اعترافات حافظ نجيب

مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن

تأليف

حافظ نجيب

الكتاب: اعترافات حافظ نجيب.. مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن

الكاتب: حافظ نجيب

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

نجيب ، حافظ
اعترافات حافظ نجيب.. مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن/ حافظ نجيب
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٦٨ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٧ – ٥٠٦ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٠٠٤٥ / ٢٠٢٢

اعترافات حافظ نجيب

مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن



الباعث

أرغمت الأستاذ حافظ نجيب على نشر اعترافاته في حياته بدلاً من نشرها بعد مماته، لأمكن الناس من تكذيب ما لا يصدقونه، ولأمكنه من الرد عليهم، فلا ينهشون لحمه وهو جثة كما نالوا منه بنشر الأكاذيب والخرافات وهو مطارد عاجز عن الدفاع عن نفسه.

إن جلجلة صوت الحق تدمغ الباطل، وتفزع الجبان.

سعدية الجبالي

الإهداء

إلى ابنتي العزيزة المحترمة /سعدية الجبالي

لم أنهج في تربيتك مناهج الناس، فلم تسمعي مني إرشادا بصوت الأمر، ولم أقيد حرية عقلك وسلوكك، إنما تركت لك الاستقلال التام فأصغيت لنصائحي بدافع من الرغبة، وأطعت إرشادي بباعث من الثقة وحسن الظن ..

وها أنت ذي صبية ناضجة العقل تامة الإدراك، يحليك الأدب ويميزك على الغير عزة النفس، والمحافظة على الكرامة، ويزيد في قدرك صفاء القلب وتنبه الضمير، وحسن الخلق، وتحميك حصون من الإيمان والتقوى واحترام التقاليد، فإذا تحدثت إليك الآن فإنما أتجه إلى عقلك لا إلى عاطفتك.

انزلي إلى أعماق صدرك، وارجعي إلى لوح ذهنك وفتشي عما تركته فيهما معاشرتي من الأثر، فإذا لم تجدي في المخبأين ما يدعو للمحاسبة والتبرم، فستدعم حكمك على مسببا بما سمعت أذنك من لساني ورأت عينك من فعالي، ثم قاربي معرفتك المسببة بما تسمعين عني من الناس يتيسر لك إدراك حقيقة وزني ووضعي وأينا كان الظالم أو المظلوم.

لقد بلغ حناني عليك حدا كنت أشعر معه بذوبان فؤادي وأنا أرى ابتسامتك أو أسمع صوتك، وبتأثير هذه الحال العاطفية المستمرة زمانا طويلا صرت لي حاسة سادسة، وتحولت في نظري إلى ملاك أقدسه.

زالت من نفسي جميع المؤثرات فيها السارة والضارة، لأنها امتلأت بك وحدك ولم يبق فيها مكان إلا للحنان عليك والانشراح بك.

وقد وجهني هذا النوع من الحصر للاعتصام لأكتسب احترامك وصداقتك ولأملأ قلبك بالاطمئنان ونفسك بأسباب الارتياح.وحين أموت فلن آسف على الحياة وما

اشتملت من أسباب حب البقاء، وإنما سيكون تألمي لفكرة تركك في خضم الحياة محرومة من صداقتي وإخلاصي.

ومن مستودع الأرواح "أين يكون" ستطل عليك روحي ويرف حولك حناني وأباركك وأسال لك من الخلاق الكريم الرحيم الهناء في الحياة، والعافية في البدن، والوقاية من شرور الناس.

والدك – أو صديقك

حافظ نجيب

١٢ – ٤ – ١٩٤٦

كلمة صريحة

لكل إنسان وزن في مقاييس الناس، ولكن موازينهم تطفف حتى في كتابة التاريخ، أما وزن الإنسان نفسه وهو في خلوة فإنه التقدير الصحيح لقيمته الذاتية.

وقد خلوت إلى نفسي وذاكرتي مرات وعرضت على العقل والضمير حياتي الماضية وما مر بي من الأحداث، فاقتنعت بأنني بددت الحياة في سفه، وضيعت ما كان يجب أن يكون لها من الثمرات، ومكنت الناس من هدر كرامتي، ومن المغالاة في القول علي حتى بنشر الخرافات عني، فخلقوا بالكذب والمغالاة والتحريف شخصية خيالية تثبت في أذهان الناس، واستقر فيها الوصف الخيالي على أنه الصورة الصادقة للمخلوق.

والشهرة التي ذاعت لهذا الإنسان الشاذ الخرافي أعظم مما أستحق، لأنني وثقت من وزني الصحيح أنه دون ما يرضى به الفرد العادي.

وفي ماضي كثير من الأخطاء وقليل لا يشرف ذكره ولا يفيد الناس عرضه، وحب الذات يقتضي كتمه ونسيانه ومحوه من ألسنة الناس بمرور الزمن، ولكن أولادي يلحون علي لكتابة اعترافاتي.

وقد عصيت هذا الإلحاح زمانا طويلا لأنني أنفر من نبش الماضي، ولكن الإلحاح المتكرر وصل إلى حد الضغط الشديد والإكراه ثم لجأوا إلى شتى الوسائل لإرغامي، ومنها غمري بحنان واضح، فذاب جلدي من حرارة العطف، وتلاشت قوة الإرادة، فخضعت وأطعت.

وليس يهمني رأي الناس إذا عرفوا الحقيقة، لأنني قسوت على نفسي بحكمي، ولأن هؤلاء الناس ضلوا في وصفي وضللوا مدى نصف قرن، فلم يعطلني ما أذاعوه عن شق طريقي في الحياة العملية الشريفة، ولم تمنعني الشهرة السيئة عن امتصاص الرزق

الحلال من بين مخالب الوحوش وأسنان الأفاعي.

استخففت برأي الجماعة وأنا في الحياة وفي حاجة إلى الناس، فمن البديهي أنني لا أحسب حسابا لآرائهم حين أفقد الشعور والحس والحياة.

وليت أكتب اعترافاتي لهؤلاء إنما أكتبها لأولادي إجابة لرغبتهم، ليتقوا الأخطاء التي ضيعت حياتي وثمراتها، لأن التجارب دروس تعلم الإنسان، ولكنها قاسية يدفع المجرب ثمنها من حياته وهناه، وربما بلغت شدتها حدا يسوى الحظ ويحطم المستقبل والحياة ذاتها، فمن العقل إذن الإفادة من تجارب الغير بدلا من التضحية للحصول على المعرفة المكتسبة من الاختبار.

أسأل الله لأولادي التوفيق والسلامة طول شوط الحياة ليكونوا نافعين لأنفسهم وللجماعة، وليتركوا وراءهم ذكرا أفضل مما تركت.

حافظ نجيب

١٩٤٦/٣/٢٩

أبي وأمي

كان جدي لوالدي الحاج حسن السداوي تاجرا، وكانت له دكانة في شارع المقادين يبيع فيها الحرير الخام المصبوغ والقياطين، وكان له ولد صغير يدلله فيأخذه معه إلى دكانته، فيقضي الصغير الوقت باللعب أمامها في الشارع المزدحم بالمارين، كان يلعب بنحلته يوما فطاحت منه إلى وسط الشارع، فاسرع إليها ليتناولها في غير محاذرة فوقع على الأرض، وكادت تدوسه عربة وجيه تركي كان عائدا بها من صلاة الجمعة.

وقفت العربة، وانقذ الصبي من بين أرجل الخيل، فاستشاط التركي غضبا من إهمال الجهلة صيانة أولادهم، وأمر خادمه فحمل الصبي إلى العربة.

ورأي أصحاب الدكاكين الحادثة فصاحوا ينبهون الحاج حسن إلى خطف التركي ابنه الصغير، وكانت العربة قد وصلت إلى سبيل العقادين ولا تزال ظاهرة قبل انعطافها إلى اليمين، فأسرع الوالد يجري خلفها يريد اللحاق بها، وكان يصرخ بكل قوته "يا تركي سيب الواد".

كان قصر الباشا بعد حي السيدة زينب (بعد مطاحن الرمالي الموجودة الآن) سرايا من طابقين فقط، ووراء البناء حديقة كبيرة غناء بها صنوف من أشجار الفاكهة، وأمام السراي خندق عليه قنطرة متحركة ترفع بالسلاسل لمنع العبور عليها وترد إلى مكانها عند الضرورة.

وكان الفضاء من هذا المكان إلى حي فم الخليج صحراء جرداء ليس بها بناء سوى ضريح صغير واقع أمام السراي، وقد بقيت آثار هذا القصر إلى **١٩٠٥** لأنني رأيت أنقاضه تنقل في ذلك الحين.

وصلت عربة الباشا التركي وبها الغلام إلى القنطرة فعبرتها واختفت داخل السراي ثم رفعت القنطرة، ووصل الحاج حسن السداوي ومعه بعض ذوي العطف والمروءة إلى

الخندق أمام باب السراي والرجل يصرخ يطلب ولده والناس يضجون معه.

ووصلت الضجة وأصوات الصراخ إلى سمع الباشا التركي، وسأل خدمه عن السبب فأبلغوه إليه، فأمر باستدعاء والد الصبي المخطوف فلما مثل في حضرته سقط على قدمي الباشا يغمرهما بقبلاته .. وجعل يتوسل إليه ليرد له ولده وترجم رد الباشا عليه، قال له:

– أنت أهملت في الحرص على سلامة ولدك الصغير، وعرضه الإهمال إلى الوقوع تحت حوافر عربتي، فأنت لم تحسن الاحتفاظ بالنعمة التي من الله بها عليك، وسيكون عقابك الحرمان من ولدك إلى حين، لقد أخذته لأعلمه وأربيه ليصير شابا قادرا على العمل نافعا في الهيئة الاجتماعية، فيعود إليك رجلا، ومن حقك أن تزوره هنا كل يوم جمعة إذا أردت.

ولم يقتنع الحاج حسن بما سمع، واستفزه الغضب بسبب خطف ولده محاولة الباشا التركي استبقاءه في قصر، فتحول من التوسل إلى الصراخ ثم إلى التهديد بالشكوى إلى أفندينا (الخديوي إسماعيل).

وأثار الصراخ غيظ التركي وغضبه فأمر خدمه فألقوا الحاج حسن السداوي على الأرض، وضربوه بالجريد حتى أعمى عليه، ثم طرد ونسى الجميع أمره.

ونشأ محمد الصغير في رعاية الباشا، وسموه في المدرسة (محمد نجيب) بدلا من محمد حسن السداوي، وسمحوا له بمقابلة والده في السراي بين حين وآخر، ثم أذنوا له بعد شهور بقضاء ليلة الجمعة في بيت أهله.

وألحق الشاب بعد دراسة قصيرة بالمدرسة الحربية، وتمت ترقيته إلى رتبة الملازم ثاني وألحق بحرس الخديوي إسماعيل، ثم عقد له الباشا على ابنته الصغرى ملك هانم، وأقام معها في جناح خاص بسراي والدها.

ولم يطل عمر هذه المعيشة لأن الفتي أخطأ خطأ عظيما لم يكن في المقدور مغفرته، أثار غضب حماته فاستدعت الخدم وطردته من السراي، وقبل ظهر النهار الثاني أبعد

إلى السودان فبقى فيه ستة أعوام لم يؤذن له فيها بالعودة إلى مصر، ولم يتمكن من العودة إلا بعد موت الباشا.

ومما يؤسف له أن ملك هانم كانت حاملا في شهورها الأولى، ولم يكن لوالدها الباشا أي رأي في إدارة البيت أو تصريف شئونه، وكانت السلطة المطلقة لحرمه الهانم الكبيرة، وبسبب حنق هذه الدكتاتورة على مُحَمَّد نجيب زوج ابنتها قررت إسقاط الحامل، فكانت تضرب على بطنها أحيانا، أو توضع عليها الرحى، وتعذب عذابا طويلا منوعا على هذه الصورة بدون رحمة من الأم، فكانت تدأب في خلوتها على البكاء الحار من تأثير الألمين: الأم من التعذيب، والألم من فراق الزوج الذي تحبه.

وشاء الله ألا يتم الإجهاض فاستعصى الجنين على شتى وسائل التعذيب حتى تمت شهور الحمل، ثم وضعت الحامل المعذبة طفلها (حافظ) سليما مكتمل الصحة والعافية، فصدق المثل المشهور: عمر الشقي بقي.

وبلغت القسوة حدها الأقصى عقب الوضع، فانتزع الطفل من أمه وسلم إلى جارية سوداء لإرضاعه، وعزل عن أهل البيت ووضع في مسكن الخدم.

وصدرت أوامر الهانم الكبيرة بعدم اتصال ابنتها بابن الفلاح إطلاقا، أرادت أن تلاشي حنان الأمومة من فؤاد الأم بعزلها عن فلذة كبدها، ولكن الطبيعة الإنسانية حولت هذا التصرف الوحشي إلى عكس الغرض منه، فزاد حنين الأم إلى طفلها، وضاعف التألم والحزن قطرات دموعها، فلم تكن ترى إلا باكية.

وزاد غضب الهانم على ابنتها بسبب بكائها على الطفل وفراق أبيه، فجلدتها وجردتها من مركزها في العائلة كابنة، وأمرت رئيسة الخدم بمعاملتها كجارية فتؤدي عمل الخدم، وترتدي ثيابهن، وتنام في القسم المخصص لهن.

كان التعذيب يصب على بدن تلك المسكينة وعلى نفسها، وشدة الألم تدفعها إلى التفريج عن النفس المكروبة بالبكاء وإرسال الدموع الغزيرة، فبقيت على هذه الحال من المذلة والشقاء والحزن والدأب على البكاء حتى فقدت بصرها .. لم يبعث العمى

الهانم الكبيرة على الإشفاق على ابنتها أو الرفق بها بل زاد في حنقها وغضبها وأمرت بأن توكل إلى الضريرة عملية تغذية مواقد الطبخ بالخشب.

وتوالت الأعوام وملك هانم في هذا الوضع القاسي، وولدها بين الخدم، حكم عليه بالبقاء على الدوام مع البستاني وأولاده في نهاية الحديقة.

وحدث مرة أن المعذبة تمكنت من مقابلة زوجة البستاني فارتمت على قدميها باكية ملحقة النفس، وتوسلت إليها أن تمكنها من مقابلة ولدها حافظ، فدفعت الرحمة المرأة إلى مخالفة أمر الهانم الكبيرة فحملت الغلام إلى أنه ومكنتها من ضمه إلى صدرها ومن غمره بحنانها ودموعها.

وشاء الحظ السيء أن ترى هذا المشهد المؤثر جارية، فنقلت الخبر إلى مولاتها تبتغي التقرب إليها ونيل الحظوة عندها، فاستشاطت الهانم غيظا وحملها الغضب على الإسراع بالمعاقبة.

سيقت إليها العمياء الشقية وولدها، فطرحت الأم ابنتها على الأرض وجلدتها خادم بالسوط، بينما كانت الدكتاتورة تضرب الغلام بيديها وتركله بقدمها وصياحه يتعالى مع استمرار عملية التعذيب، والهانم لا تسمع الاستغاثة ولا ترحم المعذبين إنما كان التألم والصراخ يزيدان الغضب والعناد فتزيد في التعذيب.

وأراد الله إنقاذ الغلام وأمه من هذا العذاب فوصلت الأصوات الصارخة إلى سمع الباشا فحضر .. فطأطأت حرمه رأسها وهدأ غضبها احتراما للزوج الهادئ الساكن الحليم، وكف الحاضرون عن عملية التعذيب.

كان أهل القاهرة يعنون عناية عظيمة بالموالد، وكان الباشا رحمه الله يعني مثلهم بمولد النبي (صلعم) وبمولد السيدة زينب، فيقيم حفلات دينية يقرأ فيها القرآن، ويطعم الناس ويوزع الصدقات لحوما وخبزا وكساء ونقودا تنثر على الرؤوس في الليلة الختامية للمولد.

وفي أحد هذه المرات في الحفلة الختامية لمولد السيدة زينب كانت ملك هانم في

المطبخ تغذي نيران الموقد بالخشب، وحدث مفاجأة أن علت الضجة لقدوم موكب الاحتفال، فترك الخادمات المطبخ وأسرعن إلى النوافذ ليمتعن عيونهم برؤية الطبول والأعلام وتركن العمياء في المطبخ.

وأرادت قدرة الله أن تضع حدا لعذابها، فعلقت النار بثوبها وأكلت بطنها وخديها، فصرخت الشقية من آلام الاحتراق ولكن صوتها لم يصل إلى الآذان، فانطرحت على الأرض وتمرغت تحاول إخماد اللهب.

ولحقها الخدم قبل أن تلفظ الروح، فحملت إلى غرفة وألقيت على حشية فوق سجادة، وبلغ النبأ إلى الباشا فأمر باستدعاء طبيب عسى أن ينقذ المحترقة، وطلبت البائسة رؤية ولدها، فأمر الباشا بحملي إليها ..

دخلت غرفة أمي المحترقة فوجدتها ملقاة فوق الحشية وجسمها تغطيه الضمادات البيضاء فوق قطن كثير.

وأخذني الخوف من هذا المشهد، وكنت أعرف أنها أمي، وأنه محكوم علي وعليها بعدم الاجتماع لسبب لا أعرفه ويعجز عقلي عن إدراكه، وسمعت صوتا صادرا من هذا الجسم المطروح على الحشية، كان صوتا رقيقا جدا إنما له صوت موسيقي روحية جذبتني إلى صاحبته، فاستقويت على الخوف ودنوت منها وحاولت الجلوس عند رأسها، فجذبتني إليها وقبلتني، ولكنها أنت من التألم الناشئ من الحركة.

أذكر أنني أشفقت على المتألمة، وسالت دموعي في صمت .. وحدثتني ولكن لا أذكر ماذا قالت .. وكان انفعال نفسي وإشفاقي وحيرتي تحول بيني وبين فهم ما أسمع ..

وطلبت إلي أن أدنو من فمها فأطعت، فسمعتها تقول بصوت خافت:

– هل تعرف في الحديقة مكان شجر البرتقال؟

قلت: نعم ..

قالت: أسرع .. وأحضر لي برتقالة لأن لساني جاف ..

فأسرعت إلى الحديقة وأحضرت لها البرتقالة ..

وطلبت سكينا، فأطعت؛ وشققت بها البرتقالة ..

وطلبت أن أعصرها في فمها، ففعلت .. فتململت وأنت، ثم قالت لي "هذه ترنجة يا حافظ .. شجر البرتقال أبعد قليلا من هذه الشجرة".

فنزلت مسرعا وأحضرت البرتقالة وشققتها، وفتحت فمها فعصرت نصف البرتقالة فيه، وسقطت مع العصير قطرات من دموعي ..

وفي هذه اللحظة جذبتني أمي إلى صدرها وضمتني إليه، ثم سكنت حركتها وأنا لاصق بذلك الصدر ..

وجاءت جارية ورأت ذلك المشهد، فانتزعتني من صدر أمي .. وسمعتها تقول:

– ماتت المسكية ..

وصل الخبر إلى جدتي فحضرت في مثل تعاظمها العادي، ووقفت أمام الجثة صامتة تحدق فيها، ثم رأيتها برهة تسقط جاثية وتنحني على ابنتها تضمها إلى صدرها ودموعها تسيل غزيرة ..

ولما نهضت من مكانها بقيت واقفة حتى غطيت المتوفاة بغطاء من الحرير الأبيض، ثم حملتني بين ذراعيها وهي تذرف الدمع في صمت، واتجهت إلى جدي حتى وصلت إليه في قاعة فسيحة، وكان جالسا على كرسي فوضعتني على ركبتيه، وتكلمت معه بالتركية، ولم أفهم ما قالت ..

وضمني الشيخ الوقور إلى صدره وأسند رأسه على كتفي وسالت عبراته صامتة هادئة، فلزمت السكون بين الذراعين النحيلين واطمأنت للحنان البادي من هؤلاء الذين اعتدت الخوف منهم والفرار عند سماع أصواتهم فرار الأرنب محاذرة ورعبا من كل طارق جديد عليه.

لست أذكر كيف نقلت إلى فراش جدتي، إنما رأيتها في الصباح حين استيقظت

تضمني إلى صدرها وتغمرني بالقبلات ودموعها جارية ..

وحملوني إلى جدي في الحديقة، كان جالسا على كرسيه ووجهه إلى الباب الخارجي، والباب المؤدي من مدخل السراي إلى تلك الحديقة مفتوح كله، ورأيت في الفسحة التي تلي الباب الخارجي خلقا كثيرين من أصحاب العمائم، كانوا الفقهاء الذين سيتقدمون النعش بالقراءة.

وأجلسني جدي في حجره، وانحنى علي في حنان يضمني إليه ويغمرني بالقبلات وشجعني الاطمئنان على التحقق من وجه هذا الشيخ الوقور لأول مرة.

كان شيخا قصيرا يرتدي ثوبا أسود، وله لحية بيضاء طويلة الشعر مرسلة على صدره، وكانت دموعه تنحدر على وجهه وتبلل هذه اللحية، ولم يتكلم ولزم السكون بينما كانت الميتة تجهز لحملها في النعش.

ورأيت حركات القوم قد زادت سرعة، ثم نهض الجالسون احتراما للنعش الذي ظهر من باب الحريم، ولكن جدي لم يتحرك من مكانه، كان يضمني إلى صدره ورأسه مسنودا على كتفي، وجاء أفندي طويل وانحنى أمامه وحدثه، ولم تبد من الشيخ حركة فاجترأ الأفندي وهزه ثم صرخ يقوا: مات الباشا!

نزلت من حجر ذلك الشيخ الوقور الذي لم أعرفه إلا من ليلة واحدة وضعت بين المتزاحمين، وسمعت في شتى أنحاء القصر الصراخ والعويل، ثم رأيت الهانم الكبيرة تأتي من باب الحريم مسرعة بقدر ما سمح لها جسمها البدين المترهل كانت تصرخ وتندب ثم ارتمت على جسد زوجها فاقدة الوعي.

كانت الضجة عالية والصراخ يتوالى والارتباك شديدا، وجاءت جاريات سود فألقين غطاء أبيض على الهانم وحملت إلى الطابق الثاني، ورأيت النعش المزين بالزهور وفيه ترقد أمي ملقى داخل باب الحريم منسيا من الجميع لأن الكارثة الجديدة طغت على ما سبقها.

مرت بي الحوادث تباعا من مغرب شمس النهار السابق بدون أن أدرك قسوتها علي ولا تعليل ما وقع، وأخذتني الضجة والصياح من كل النواحي فتولاني الذهول والانكماش والكآبة والحيرة، ورأيت جميع من يقع عليهم بصري يبكون ويولولون فبكيت معهم بكاء أخرس، ثم أخذني النوم فنمت.

واستيقظت في عصر ذلك النهار على صرخات كثيرة داوية، ورأيت نساء كثيرات يلطمن الخد ويودعن بالصراخ نعشا جديدا يخرج محمولا من باب الحريم، ثم حمل الأول وراء الثاني وانطلق به حاملوه إلى الباب الخارجي.

حاولت الخروج مع الخارجين بالنعشين، ولكن واحدا من أولاد البستاني جذبني من يدي وساقني إلى الحديقة فتلقتني أمه وهي باكية فاحتضنتني واستبقتني مع أولادها في المسكن الحقير الذي عشت فيه إلى ذلك اليوم.

قضيت النهار كله بدون طعام فشعرت بالجوع، وشكوت أمري إلى تلك المرأة الطيبة التي ألفت مناداتها بلفظ "يا خالتي" فأطعمتني ودمعها ينحدر في صمت، وكانت من برهة إلى ثانية تنحني علي وتضمني إلى صدرها وتقبلني في عطف وحنان، ثم تتبع دلائل عطفها بعبارات تحدث بها أولادها علق بذهني منها إلى الآن وكلمة: يتيم من الأب والأم ..ولم أعرف معنى عباراتها حينذاك، وكانت المرأة تعتقد كغيرها من ساكني تلك الدار أن والدي قتل في السودان، وهي شائعة أذاعتها الهانم الكبيرة نكاية في أمي لتزيد في آلامها، فأخذت هذه الكذبة لدى الجميع قوة الحقيقة حتى في اعتقاد أمي كما علمت بعد زمن غير قصير.

لم أرد أن أداخل السراي تلك الليلة فنمت حيث كنت، ولما استيقظت في الصباح رأيت نفسي في فراش الهانم الكبيرة.

عادت لطبيعتها

ظلت دار الحريم في حداد طويل، يلبس الجميع الثياب السوداء، وظلت الهانم الكبيرة تلازمني وتعني بنفسها بكل شؤوني، وتطعمني بيدها، وتحنو علي حنانا واضحا حتى كانت ترغمني على النوم في حجرها إذا غلبني النعاس بالنهار.

وكانت تأخذني معها في العربة كل صباح إلى مقبرة بها قبران متجاوران ثم تشير إلى أحد القبرين وتقول لي:

"نينتك نايمة هنا .. صبح عليها ..".

وكانت تجثو عند كل قبر وتذرف الدموع غزيرة، واحتضنت مرات شاهد القبر الذي ترقد فيه أمي، وقالت بالتركية ما ترجمته:

"أنا التي قتلتك بجنوني بسبب الفلاح قليل الأدب".

وكنا نعود إلى السراي بعد هذه الزيارة، فتدأب الهانم الكبيرة على البكاء طول النهار، ولا تكف عنه إلا إذا كنت إلى جانبها تتولى إطعامي أو قضاء حاجة من حاجاتي.

وكنت حين أنام على حجرها تغني لي بالتركية فلا أفهم معاني الغناء، ولست أدري إلى الآن أكان غناء أم ندبا، وكل ما استبقته ذاكرتي أن صوتها كان حسنا وخافتا وله نغمات موسيقية مؤثرة كانت تدفعني إلى الارتياح ثم إلى النوم العميق.

كنت أحن للحديقة ولزوجة البستاني: علي وحسنين وفاطمة، فأقضي مع عائلتي التي نشأت فيها ساعات قبل الظهر وأخرى بعده.

ولحظت حينذاك أن هناك غرفتين متجاورتين على يسار الداخل من الباب الخارجي للسراي، الأولى كبيرة أعدت لاستقبال كبار الزائرين، أما الثانية فكانت قبل

الفاصل الكبير المصنوع من الخشب والزجاج الملون ليفصل الردهة عن الحديقة، وكانت هذه الغرفة للجلوس.

رأيت في هذه الغرفة بعد موت الباشا فقيهين يأتيان من أول النهار لتلاوة القرآن بالتناوب، وأحدهما هو الذي ذكر لي أن والدي مات في السودان.

لم يحزنني هذا لأنني لم أعرف معنى "والد" لم أراه أبدا ولم أسمع عنه شيئا إطلاقا إلا بعد الكوارث التي توالت على أهل هذا القصر، فكنت أصغي لحديث الفقيه الأعمى الثرثار كأنه يقص على "حدوته".

دامت حياتي على هذا المنوال زمنا لا أعرف مداه، ولكنني أذكر الآن أنه الزمن المفرد الذي تمتعت فيه بحنان الهانم الكبيرة ورعايتها وتدليلها، وكنت بعد تناول العشاء لا أستطيع النوم إلا إذا جلست إلى جانبي في الفراش وجعلت تمر بيدها على جسمي وتغني لي بصوتها الموسيقى الحنون سواء أكان ما تلحنه غناء أم ندبا .

زوال النعمة

كنت جالسا بعد ظهر أحد الأيام إلى جانب الهانم الكبيرة على مشربية تطل نوافذها على الحديقة، وكانت كعادتها المألوفة ترسل الدموع وهي تغني بصوت ضعيف تكاد الأذن لا تسمع منه سوى نغماته.

سمعنا مفاجأة صوتا جهوريا يرتفع إلينا من فجوة السلم الكبير المؤدي إلى الطابق الثاني، ودام الصوت العالي يرسل عبارات لم أفهمها ولم تفهمها الهانم أيضا، فاستدعت جارية وأمرتها أن تسأل صاحب هذا الصوت عن سبب صياحه.

وعادت الجارية بعد برهة وقالت لمولاتها إن الذي يصيح رسول من بيت القاضي يعلنها بالحضور أمام المحكمة الشرعية "بيت القاضي" في حي النحاسين لتسمع الحكم عليها برد الغلام حافظ ابن مُحَمَّد نجيب أفندي من ملك هانم إلى والده لأن عمره تجاوز سبع سنوات.

أصغت الهانم لهذا البيان فتحول وجهها من وداعة الحزن إلى غضب هز جسمها هزا في رعشة عنيفة، وتحول صوتها الناعم الحنون إلى صوت أجش، وظهرت في عينيها القسوة الوحشية المكبوتة.

وصدر منها إلى الجارية أمر قصير موجز:

– أحضروا هذا الرسول ..

وظهر الرسول أمامنا بعد برهة مسوقا إلى حضرة الهانم .. كان رجلا نحيفا طويلا يرتدي جلبابا أزرق، وفي يده عصا طويلة تكاد تقرب من ارتفاع كتفيه، وفي رأسها مخروط من النحاس الأصفر.

لم تعرف المحاكم الشرعية في ذلك الحين الإعلان المكتوب ولا المحضر الذي يعلن الإعلانات لأصحابها، فكانت الرسل ترسل إلى البيوت لتبلغ بالنداء تلك الإعلانات

لأصحابها.

سألت الهانم الرسول عن سبب دخوله بيتها وصياحه فيه بصوته المنكر، وترجمت عباراتها إلى الرسول فأجاب بمثل ما نقلته الجارية إلى الهانم، وترجمت لها: إجابته.

فصدر منها فحيح كفحيح الأفعى، وقالت:

– الفلاح .. قليل الأدب عاوز ابنه! .. عاوز الهانم قدام القاضي! .. قلة أدب .. ما فيش تربية .. فلاح .. فلاح بدون عقل .. بدون أدب.

وبلغ الغضب حده الأقصى فتناولت الحصان الخشب الذي كنت ألعب به وألقته بعنف من النافذة إلى الحديقة ..

وجذبتني بقسوة وحشية فألقتني على الأرض تحت المشربية وقالت للرسول بصوت مثل زئير اللبؤة:

"خذ ابن الفلاح .. ارمه لأبيه .. الجميع إلى جهنم ..".

ورفض الرسول استلامي، وشرح للهانم أنه منوط به تبليغ الإعلان لا أخذ الغلام، فزاد غضبها وهياجها .. وصاحت في جارية سوداء تقول لها:

– "مرجانة .. كرباج .."

ومرجانة هي الجارية التي تتولى جلد التي تخطئ وتأمر الهانم بجلدها .. والكرباج لا يفارق يدها، فأطاعت أمر الهانم ونفذته بسرعة البرق، فبدأ الكرباج يلهب ظهر الرسول ..فوجئ الرجل بآلام الضرب بالكرباج فصرخ من الألم وحاول الهروب فسد الطريق في وجهه.

وقالت الهانم:

– "أو الكرباج .. أو تأخذ ابن الفلاح للقاضي المجنون ..".

لم يطق الرسول آلام الضرب فحملني على كتفه وخرج من السراي إلى غير عودة

.. ولما صار في الشارع واطمأن إلى النجاة من أيدي أولئك المجانين ألقاني إلى الأرض وأمسك بيدي وجرني من أقصى حي السيدة زينب إلى الجمالية، كنا قريبين من الغروب، وبيت القاضي مغلق، فنادني إلى القسم وقص على المعاون قصته وشكواه، ثم تركني هناك وانصرف.

نمت من تأثير التعب على الأرض تحت الحراسة، وأيقظوني في الليل ثم سلمني المعاون إلى ضابط قصير، فخرج بي من القسم وامتطى جودا أشهب كان في حراسة جندي من الزنوج، ثم حملني الجندي ووضعني أمام الضابط على صهوة الجواد.

كان ذلك الضابط القصير الملازم مُحَمَّد أفندي نجيب والدي الذي سبب ما ذاقت أمي من عذاب وما لقيته أنا من هوان في بيت الجدين، وكان أيضا السبب في طردي أخيرا من النعيم الذي كنت فيه، ثم في عذاب الجحيم الذي تولاني في بيت والده الحاج حسن السداوي بشارع الدراسة في سفح جبل المقطم ..

رحم الله الجميع .. وسامحهم .. وغفر لهم ..

دعاء حار من أعماق صدري .. لأن أخطاء المخطئين أدرك الآن وأنا ناضج العقل أنها كانت مع حسن النية وبتأثير الجهل والحماقة ..

ثارت الهانم الكبيرة على زوج ابنتها لأنه عاد ليلة إلى السراي مخمورا مخدرا، ودخل بدون وعي على الجناح الخاص بالباشا وحرمه، واعترضته جارية فعربد، فاستيقظت الهانم ورأت ذلك المشهد المستهجن فأمرت برده بالقوة إلى مسكنه فاعتدى عليها وأوقعها على الأرض.

عربدة لم تر مثلها طول حياتها، فغضبت وثارت واستدعت الخدم وأمرتهم بحمله وطرده وإلقائه في الطريق، ففعلوا وحملها التألم من الحادث على الجزم بقطع كل علاقة له ببيتها وأهله، ولم يجرؤ أحد على محاولة تلطيف غضبها أو مناقشة حكمها فصار نهائيا نفذته بالوسائل التي بعثها عليها غضب بلغ حد القسوة الوحشية على ابنتها، لأنها خالفت قرارها وأظهرت عطفها الحار على زوجها المغضوب عليه، فدفعت

المسكينة ثمن هذه العاطفة ما احتملت من آلام التعذيب وحرمانها من طفلها، وكانت النتيجة فقدها البصر ثم الحياة، فماتت شهيدة الإخلاص لمن لا يستحقه.

وحين فوجئت الهانم برسول المحكمة الشرعية ليعلنها بالمثول أمام القاضي لتسمع الحكم بتسليم الغلام إلى والده الأحمق رأت في هذا التصرف اجتراء جديدا عليها، وقررت تحت تأثير الغضب والثورة النفسية تسليم الغلام لوالده في الحال لتقطع جميع الأسباب التي تصل ذلك الرجل بها، فضحت بالغلام مع حنانها عليه لأن احتقارها للوالد أعظم من حنانها على الولد، ولأن رغبتها في المحافظة على كرامتها أقوى من رغبتها في الاحتفاظ بالغلام اليتيم لتفصله بالتربية عن الوسط الذي نشأ فيه والده.

وبلغ تأثرها من الكوارث التي توالت عليها بسبب هذا الرجل أنها هجرت قصرها وانتقلت إلى الاستانة مع ابنة لها ترملت (عائشة هانم) ولها والدان من زوجها غلام وطفلة. فانقطعت صلتها بمصر وبمن فيها، وانقطع خبرها عن أهل هذا البلد إلى الآن.

حياة جديدة

غلبني النوم وأنا في حضن هذا الضابط على ظهر الجواد، واستيقظت في الصباح بين جماعة من الناس لم أر وجوههم من قبل، ولم يكن الضابط بينهم لأنه ذهب إلى عمله مبكرا.. جلست بجواري جارية حبشية طويلة بدينة، عرفت وقتئذ أن اسمها حبيبة، وتولت خدمتنا جارية سوداء قصيرة اسمها حليمة، جاء بهما والدي من السودان، فكانت الأولى زوجة شرعية والثانية خادما ملكا له.

ونزلت امرأة جدي من الطابق الثالث لترى ابن "نجيب افندي" ودار حولي أولادها الخمسة ثلاثة غلمان وطفلتان: توفيق، وعلي، وعبدالرحمن، وفاطمة، وأمينة، كانت المرأة فارعة في الطول وبدينة إلى حد يدعو إلى العجب، وهي زوج جدي لأبي الحاج حسن السداوي وليست أم والدي.

لم تكن هذه الجماعة في المستوى الخلقي لكل من عاشرت في سراي الباشا، حتى زوجة البستاني وصغارها فهؤلاء كانوا أوضح أدبا وأحسن خلقا وأعظم اعتصاما في التصرفات، كان الصغار في مثل قذارة أولاد الشوارع وأخلاقهم، فكانوا كقطيع من الماعز في حركاتهم جري ووثب وصراخ ومشاجرات وبكاء وضحك، وأمهم مسترسلة في حديثها مع الجاريتين لاهية عن أولادها الأشقياء راضية عن كل ما يحدث منهم رضا التي تعتقد بأن هذه التصرفات طبيعية لا تنتقد.

ودفعتني الوحشة والسأمة إلى الاشتراك معهم في اللعب والعبث فتشبهت بهم وعدتني أخلاقهم وعشت معهم كأحدهم، وكنا ننام جميعا على حشيتين فوق حصيرة ثم أذهب مع الغلمان في الصباح إلى الكتاب.

وكان الكتاب في طابق أرضي بمنزل بشارع أم الغلام أمام ضريحها، نتناول فطورنا في البيت ثم يعطي لنا الخبز ونصف قرش (لنا جميعا) لطعام الغداء، وهكذا يأتي كل

صبي ومعه خبزه وقرش خردة؛ فيستلم سيدنا كل ما يصل إلى الكتاب من الخبز والنقود، فيضع الخبز في مقطف إلى جانبه ويرسل النقود إلى جيب القفطان.

وكنا نجلس على حصر بالية على أرض الحجرة إلى جانب جدرانها، ومن يزيد من الصبيان عن هذا المحيط يجلسون صفوفا وسط المكان، ويعاون سيدنا في التعليم عريف لكل عشرة، فيجلس أمام كل غلام ويسمع منه ما حفظه على اللوح الصفيح فإذا انتهى منه يكتب له اللوح الجديد ويقرأه له مرات ثم ينتقل إلى الصبي الذي يليه حتى يتم دورته على العشرة.

فإذا انتهى من هذه العملية يعود لتكرارها على صورة جديدة، فيجلس أمام الصبي الأول ويضع يده على قفاه فيتأرجح الغلام إلى الأمام ثم إلى الخلف وهو يتلو ما في اللوح بصوت مرتفع ليحفظه عن ظهر قلبه، ثم ينتقل العريف من غلام إلى غلام حتى ينتهي من جميع صبيانه، ويذهب بعد هذا كله إلى سيدنا فيقرأ له عن ظهر قلب ما حفظه في النهار السابق.

ويعلو صياح الغلمان وهم يحفظون وسيدنا في مجلسه العالي على دكة يراقب الجميع، فإذا لمح غلاما لا يتأرجح، أو ظن أنه غير نشيط في صياحه يضربه بجريدة طويلة تبلغ إلى أقصى حدود الغرفة.

فإذا جاء الظهر يقف بعض المقربين إلى جانب سيدنا ويقطعون بعض الخبز في قصعتين من الخشب حتى يتم امتلاؤهما إلى الحافة، ثم يحمل القصعتين غلامان كبيران ويرافقهما ثلاثة أو أربعة من الصبيان للحراسة، ويقصد الجميع إلى المسمط فيصب صاحبه المرق من وعاء كبير ماؤه في حال الغليان حتى يغمر الخبز غمرا، ثم يعود حمله القصاع وحراسهم بالثريد إلى الكتاب.

ويجلس سيدنا إلى قصعة ويدور حولها الغلمان جلوسا على الأرض، ويجلس العريف الأول إلى القصعة الثانية ومعه الجماعة، ويفتتح سيدنا الغداء بقوله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ... ويصيح الصبيان بتلاوة البسملة في نشاط ثم تمتد أيديهم إلى

الثريد وينقلون ما في القصعة إلى بطونهم متعجلين بسبب ما يشعرون به من الجوع، ويختم سيدنا الغداء بحمد الله ويردد الجميع عبارته، ثم يخرجون إلى شارع أم الغلام للراحة أو للعب ساعة، ثم يعودون لما كانوا عليه في الصباح حتى يتم حفظ اللوح، وينصرفون إلى بيوتهم بعد صلاة العصر.

وفي يوم الخميس يحمل كل صبي إلى سيدنا نصف قرش أو قرشا كاملا وهو أجر التعليم في الأسبوع، وكلما انتهى الغلام من حفظ سورة يمتحنه سيدنا بتلاوتها أمامه، فإذا أقنع بأنها حفظت جيدا تكتب خاتمتها على لوح من الخشب المدهون بالطلاء الأبيض تحت رسم باللون الأحمر أو الأخضر، ويحمل الصبي هذا اللوح إلى أهله ليفرحوا بنشاط أبنهم، ثم يردونه في الصباح إلى الكتاب ومعه ما يجودون به من النقود لسيدنا المحترم من الجميع.

وأشهد غير كاذب ولا مبالغ أن عمي توفيق وأخاه قضيا في هذا الكتاب خمسة أعوام وخرجا منه بدون تحصيل أي نصيب من معرفة القراءة والكتابة، وتوفيق حي إلى الآن وهو أمي يشتغل بتجارة الحرير وراثة عن أبيه.

في بيت الجد

أبليت الثوب المفرد الذي كان يسترني حين طردت من سراي الهانم الكبيرة فعوضني منه والدي جلابيب من الغزل، ورأيت أعمامي يلعبون في الشارع وفي الحارة بدون نعال فأهملت نعلي وألفت الحفاء مثلهم، وكنا نرى عربة تسير في الشارع ترشه بالماء فكنا نتعرى إلى الفخذين ونجري خلفها نتلقى الماء المرسل من أنابيبها على أفخاذنا، وندوس في الوحل في مرح، ثم نعود للعب في التراب إلى غروب الشمس. ويحين وقت العشاء فنصعد إلى البيت ونتناول طعام العشاء جلوسا حول طبلية من الخشب اختفى سطحها تحت بقايا الطبيخ الذي يتساقط عليها ولم يجف بدون غسلها، فإذا انتهينا من تناول الطعام ننتقل إلى حيث ننام نحن الستة على الحشيتين.

وكنت أرى والدي نادرا، بل كنت أهرب من مقابلته بسبب قسوته علي، فكان أمري كله موكولا إلى زوجته الحبشية، فكان تعنى بي على مثال عناية زوجة جدي بأولادها، فتركني ألهو وألعب معهم حافيا ثم أنام وعلى قدمي الوحل الجاف.

لست أدري كم من الوقت قضيت في هذا البيت، ثم انتقل والدي إلى قنا عضوا في مجلس القرعة فانتقلنا معه، وهناك دخلت مدرسة أهلية أنشأها المرحوم الخواجة بسادة ليتعلم فيها أولاده وأولاد إخوته.

وكانت المدرسة حجرة واحدة متسعة مستطيلة الشكل؛ ومقاعد التلاميذ مرصوصة بجانب الجدران، ولها معلم واحد طويل، فينتقل المعلم طول النهار من فصل إلى فصل يعلم التلاميذ القراءة والكتابة والحساب ومبادئ اللغة الفرنسية.

زاملت في هذا المكتب حمدي سيف النصر (باشا) لأن والده كان رئيس مجلس القرعة برتبة صاغ؛ وكان والدي برتبة ملازم أول.

انتهى المرحوم عمي حسن كامل من دراسة الحقوق، وعين في قنا بوظيفة مساعد

نيابة فأقام معنا في البيت في جناح خاص، والذي أدل عليه بكلمة جناح غرفتان متجاورتان إحداهما بدون نوافذ ولم تعرف إطلاقا ضوء الشمس ولا الهواء النقي المتجدد.

واقترن عمي بابنة خالته وأحضرها إلى قنا وسكنت ذلك الجناح المحبوس، لأن حجرته الأولى تطل على فناء البيت، ولأول مرة رأيت من يحنو علي بعد انتقالي إلى رعاية والدي.

كانت عطلة المدرسة في يوم الأحد فكنت أذهب مع والدي إلى الغرفة التي يسميها مكتبه، وهي إلى جانب مركز البوليس وفي مستواه، وأمام هذا البناء الطويل يقوم بناء المديرية وبين البناءين ميدان فسيح به أشجار اللبخ العالية ذات الظل الوارف، فكنت ألعب أحيانا في ظل هذه الأشجار.

ولم تعرف في ذلك الحين وظيفة "مأمور المركز" إنما يرأس قسم البوليس ضابط برتبة يورباشي له لقب معاون البوليس، فيرتدي هذا الموظف ثوب ضابط من الجوخ أو الصوف الأزرق، وعلى كتفيه الأزبليطة التي ترص فوقها النجوم الدالة على الرتبة، وحول هذه الأزبليطة شريط من النسيج المقصب ذات لون ذهبي وعلى جانبي البنطلون شريطان من هذا النسيج الذهبي اللون.

وكان طول الزمن والمؤثرات الجوية تؤثر في هذا النسيج البراق فتصدأ أجزاء منه وتبقى غيرها زاهية لامعة فيتشوه مشهد الثوب غير الجديد.

وحدث مرة في الشتاء أنني رأيت مشهدا عجيبا على الدرجات القليلة التي ترفع من الأرض إلى بناء المركز، رأيت حضرة المعاون بثوبه الرسمي جالسا على أحد هذه الدرجات ورأسه في حجر عسكري، وطربوشه فوق طربوش الجندي، وهذا يبحث بأصبعه في شعر حضرة المعاون ليصطاد القمل ثم يقتله بظفره على بلاط الدرج .. مشهد كان مألوفا في ذلك الحين البعيد، ولكنه لا يزال مرسوما على لوح ذهني يتجدد تصوره كلما دخلت فناء مديرية قنا.

ولم نكن نعرف المشط في ذلك الزمن، وكان القمل يسكن رؤوسنا، وكانت الحبشية زوجة أبي تدهن شعري بالبترول وتبقيني في الشمس الحارة وقتا ما ليتألم القمل من البترول ثم من تأثير حراة الشمس فيه، فيحاول الهرب من مخابئه في جذور الشعر ويسرح إلى ما حوله في الفضاء، فيظهر لعين الحبشية فتصطاده بسهولة وتقتله.

وحدث مرة أنهم جاءوا بحمير كثيرة فركبناها من فناء المديرية وقصدنا إلى النيل، وكان الركب خليطا من كبار الموظفين وأعضاء مجلس القرعة، فلما بلغنا شاطئ النهر نزلنا إلى سفينة "دهبية" فريقا بعد فريق لنتفاجأ برؤية المصباح الذي لا يدخن، منعت الدخان للمصباح، ولم يكن الناس يعرفونها إلى ذلك الحين، فقد كان في كل حجرة من حجر البيت فجوة يوضع فيها مصباح من الصفيح تثير ذبالته ويتصاعد منها دخان يحبسه سقف الفجوة.

زواج والدي

كان مجلس القرعة يتنقل في مراكز المديرية لإتمام عملية الاقتراع، ويقيم في كل مركز وقتا يطول أحيانا أو يقصر، فإذا كانت الإقامة طويلة تنتقل عائلات أعضاء المجلس معه.

وكان بين الضباط أعضاء المجلس ضابط سكندري يدعى مُحَمَّد أفندي دسوقي وعمله أثناء الاقتراع قياس المقترعين، وكان جريئا ومرحا على الدوام.

وكانت له زوجة وابنة منها تدعى جميلة، وكنا نسكن متقاربين، فكنت أرتاح لهذه الفتاة لأنها كانت تجود علي بالسكر الأحمر أو بعيدان القصب أو بقدح من الشربات كلما قصدت إلى بيت والدها لألعب معها.

كانت وديعة وظريفة وتغمرني بحنانها، كانت في بعض الأحيان تتأرجح معي في مرجيحة مصنوعة من حبال مربوطة في شرائح النخل التي تسقف مدخل البيت، ثم تربط طرفي الحبلين في كرسي قصير جدا من الخشب فتجعله مقعدا للمرجيحة.

كنت أبتهج جد الابتهاج بهذه التسلية الجديدة التي لم أعرفها من قبل، وكنت أحن على الدوام لزيارة هذا البيت لأتلذذ بما يعطى لي من الحلوى وبما يتجدد من أنواع اللعب.

كذلك كانت أم الفتاة تتودد إلى حبيبة الحبشية زوج والدي، وكانت هذه الجارية وديعة هادئة قليلة الكلام ولا تحسن النطق باللغة المصرية كجاريتها حليمة لأنهما عاشا الشطر الأول من حياتهما في السودان الجنوبي في الجهة الشرقية منه حتى اشتراهما والدي وجاء بهما إلى مصر.

وكانت في غرفة الجلوس ببيتنا صور رخيصة معلقة على الجدران لنساء من ذوات الحسن لازلت أرى صورا منها إلى الآن تباع مع الباعة المتجولين أو في دكاكين باعة

الصور المطبوعة بالألوان.

سألني والدي يوما عن ست جميلة، سألني عن طولها وعن جسمها وعن لونها وعن أجزاء زوجها: العينيين والأنف والفم، فكنت أجيبه إجابات يطمئن لها ويرتاح ويكافئني بقطع من الحلوى، وكنت أذكر لصديقتي الكبيرة أسئلة والدي وإجاباتي عليها فتضحك وتزيد فيما تهديه إلي من الحلوى أو الشراب المسكر.

ورفعتني مرة إلى صورة مثبتة في الحائط لحسناء نحيلة وسألتني:

– هل بيني وبين هذه السنيورة شبه؟

فأكدت لها أن الشبه بينهما تام.

لم أكن أكذب أو أداجي إنما كنت أعتقد أنني أصدق في الحكم، وكان الشبه بين الأثنين موجودا إنما في النحافة وحدها. وكانت في بيننا مثل هذه الصورة؛ لأن جميع أعضاء المجلس اشتروا من نوعها في وقت واحد في قنا من بائع واحد... ويظهر أنني كنت على يقين من والدي أنه يرتاح لكل ما يذكر عن الست جميلة وخاصة عن وصفها، ورأيت مرة في يده علبة من الخشب الأحمر الرقيق ملأي بحلوى تسمى ملبن .. أعطاني منها قطعة واحدة، ولكنني كنت أطمع بأكثر منها.

وكان نائما في القيلولة على سجادة وأنا أروح له، والصورة مثبتة فوق رأسينا، فهداني شيطاني للانتقاع بهذه الصورة لأرضي والدي وأستخلص منه شيئا من الملبن فقلت له:

أنا – بابا .. شايف الصورة المعلقة فوق رأسك؟

هو – ما لها يا واد .. (ونظر إلى الصورة).

أنا – تيزة جميلة زيها تماما ..

فنهض والدي من ضجعته وأمعن النظر في الصورة برهة، ثم حملني على ذراعه وسألني:

هو صحيح يا حافظ .. هي تشبه للصورة دي؟

أنا – زيها تماما يا بابا ..

وكانت هذه العبارة طلسما فتح علبة الملبن فأخذت منها أكثر من قطعة ..

خطبت تيزة جميلة إلى والدي .. وتم العقد وجاءت ليلة الزفاف في مدينة دشنا .. فرشت أمام منزل العروس دكك من الخشب جمعت من الدور، وصنع الصوان من برد النساء، وعلقت في سقف الصوان الصغير فوانيس بداخلها المصابيح الكبيرة ذات الدخان.

والبردة نسيج من غزل الصوف تستر به المرأة كل جسمها، وتطرح جزءا منها فوق رأسها ينزل إلى صدرها، وتترك شقا صغيرا بين حافتيها ترسل منها نظراتها إلى الطريق، وتخفي هذه الفرجة بسرعة إذا صادقت أمامها رجلا مقبلا لناحيتها، وتتدلى البردة إلى الأرض لتخفي القدمين، ويجري ذيلها على الطريق كالمكنسة فيثير وراءه الغبار.

وجلس المدعوون على هذه الأرائك، أما المدعوات فكن في الحريم يستمعن إلى طبلة تطبل عليها امرأة محترفة لترقص على نغماته راقصة من أهل الصعيد ثم تتعالى الزغاريد.

غلبني النوم من طول السهر فنمت على حشية في غرفة نوما عميقا، ونبهتني من النوم الحبشية زوجة أبي لأنه كان يلح في طلبي، فقادوني إليه يغلبني النعاس.ورش والدي على وجهي ماء لينبهني ثم سألني هل عندي كوبيا حمراء؟

وأخذني إلى بيتنا فسلمته صندوقا صغيرا من الصفيح فيه الكوبيا التي يسأل عنها ففرح به وجرني من يدي إلى فناء مسور به المواقد التي يطهى عليها الطعام، وسلم الصندوق إلى الطاهي وقال له:

– آدي الكوبيا الحمراء يا أسطى .. لون بها البالوظة .. أحسن دهبية المدير رست في البلد .. وعرف أن فيه حفلة زفاف وسيشرفنا الآن .. فأعمل البالوظة الملونة بالعجل ..

ومن هاذ الوصف الموجز تدرك نوع حضارة الموظفين أرقى طباق المصريين في ذلك الزمن ..

أقامت العروس مع العريس أسبوعا في منزل والدها ثم انتقلت إلى بيتنا وخصصت لها أحسن الغرفتين اللتين يتكون منهما الطابق الثاني من البيت.

وجعلت الغيرة تدب في الزوجة الحبشية، ودلت عليها مرات دلالات واضحة كانت تؤدي إلى ثورة والدي عليها، ولما عدنا إلى قنا بنى على السطح غرفة فسيحة لزوجته الجديدة ليعزلها عن الأولى، ولكن هذه العزلة لم تمنع الحبشية من الاستمرار على الغيرة الشديدة.

وكنا نجتمع عادة بعد العشاء في غرفة فسيحة من الجناح المخصص للحبشية، عمي وزوجته ووالدي وزوجتاه ثم يوزع علينا ما أحضره من الفاكهة أو البندق أو اللوز أو التين المجفف أو الملبن.

أما نحن فيأكل كل منا نصيبه، وأما جميلة هانم فلا تأكل وتترك نصيبها إلى جانبها على الدوام، وتنصرف إلى النوم دون أن تأخذه معها، ووالدي يلاحظ عليها أنها لا تأكل ..

وفضحت الحبشية سر هذه القناعة مرات، كانت تصعد إلى السطح بعد نوم الجميع أو في الفجر وتحضر قشورا كثيرة لمثل ما أكلنا بعد العشاء وتلقيها أمام عمي وزوجته وتقول:

– شوفي يا كويا .. اللي بيقول عليها مش بتاكل! ..

وكانت نتيجة هذه الغيرة أنها طلقت وأرسلت إلى القاهرة وأنا معها لألتحق بالمدرسة القريبة، وفرض لنا للمعيشة **١٥٠** قرشا كل شهر منها أجرة السكن .

في المدرسة

ألحقت بالسنة الثالثة .. وكنت في سن أو في رعونة لا تهديني الآن إلى تذكر من كانوا زملائي في تلك المدرسة مدى عام دراسي كامل.

سكنا في غرفة بمنزل في حارة بيرجوان، غرفة على سلم البيت مظلمة لا يدخلها نور الشمس ولا منفذ لها لتجديد الهواء سوى الباب. وكان النور ليلا ينبعث ضئيلا من مصباح له زجاجة، لأن العالم عرف زجاج المصابيح.

أذهب صباحا للمدرسة في جلباب، معي لطعام الغداء رغيف من الخبز ونصف قرش لشراء الإدام، فكان على الدوام طول العام: سلطة وطعمية، ولست أذكر أنني استذكرت دروسي في البيت إطلاقا، لأن الغرفة ضيقة لا تتسع إلا للسرير، ومائدة الطعام: الطبلية.

وفي رعاية دادا حبيبة عرفتني النظافة والشدة في منعي من اللعب في الحارة ومن الغياب عن البيت، ولكن جدي الحاج حسن لم يكن راضيا عن وجودي بعيدا عن بيته، وكان يسعى في إصرار لنقلي إلى رعايته لا بتأثير العطف علي أو الرغبة في العناية بي إنما للحصول على ال ١٥٠ قرشا التي ترسل للدادة من والدي في كل شهر.

وعاونت زوج أبي (جميلة هانم) ذلك الجد لتحقيق رغبته، فأطاع والدي مشورتها وأمر بنقلي إلى منزل جدي فأختل نظام حياتي من جديد، وعدت إلى اللعب حافيا وإلى القذارة العامة في ذلك البيت.

وبلغ بي الأمر إلى حد الغياب عن المدرسة أياما كثيرة متوالية، فآخذ الرغيف وأودع الكتب في دكان بائع، ثم أنطلق إلى الكوبري الأعمى غرب كوبري قصر النيل، فأقضي النهار في الاستحمام في مجرى الماء الذي يقوم عليه ذلك الجسر، وألعب مع أمثالي من الهاربين من المدارس أو الدكاكين التي يتعلمون فيها الصناعة، فإذا قرب موعد

الخروج من المدرسة أكر راجعا إلى البيت مارا من شارع الغورية وهو الشارع الموصل بين المدرسة وطريق البيت.

لم تسأل المدرسة عن غيابي بسبب اضطراب النظام في ذلك العهد، ولم ينكشف سر هروبي المزمن إلا مصادفة، كنت مارا بشارع الغورية متجها إلى شارع السكة الجديدة لأصل منه إلى شارع الدراسة الذي يقوم البيت في نهايته. وبينما كنت في الطريق وأمام الدرب المؤدي إلى حي الكحكيين فوجئت بيد تقبض على عنقي بعنف وبصوت يقول لي: جاي منين يا واد؟

لقد أخطأت في تقدير وقت انصراف التلاميذ من المدرسة، وتصادف مرور جدي في ذلك المكان وقت مروري منه فعجب لخروجي من المدرسة قبل موعد الانصراف وأدرك أنني تغيبت عنها ذلك النهار. كانت المفاجأة مزعجة وخيمة العاقبة وهي علقة حامية طبعا، فهيأ لي الخبث أن أضلل ذلك الشيخ بصورة تبعثه على الشك في شخصيتي، خطرت لي الفكرة في سرعة ونفذتها بجرأة.

صرخت في وجه جدي قلت له:– مالك يا عم! .. عاوز مني أيه؟

واستشاط الشيخ غضبا وانهال علي بيديه يضربني في غير محاذرة .. فصرخت من الألم فاجتمع حولنا الناس كعادتهم في التكأكؤ على مكان كل حادث فقلت: حوشوني يا ناس .. الراجل ده سماوي وعاوز يخطفني.

تكررت حوادث اختفاء بعض الغلمان، وكان الجهال ينسبون غيبة الغائبين لأحد سببين: الخطف بواسطة السماوي أو بواسطة اليهود ليعجنوا فطيرهم بدم الغلام المخطوف.

وصدق الحاضرون دعواي وانهالوا على جدي تقريعا، وامتدت أيدي المتحمسين إلينا تحاول إنقاذي من يدي جدي .. ولم يصدقوا دفاعه وأنني أبن ولده.

وقال أحدهم من المستحيل أن تكون جده لأنه ينكرك ويتهمك بمحاولة خطفه .. فأنت السماوي صحيح.

وانحل شال عمامة الجد المسكين، وتكاثر عليه الخلق ليسوقوه إلى قسم البوليس وهو مستميت في تلابيبي ويداه تستعصيان على المنقذين .. وفجأة جاء الشيخ حسن حبيشة التاجر بالغورية ودكانه قريب جدا من موضع الحادثة فشق الناس ووصل إلينا وألسنة الناس تصيح: سماوي أهو ده السماوي .. ودوه القسم. جروه.

والشيخ حسن حبيشة معروف في ذلك المكان، وهو زوج لبنت جدي (عمتي) فصاح في الناس:

سماوي أيه يا جماعة! الواد شقي وهو ابن نجيب أفندي ابن الحاج حسن ده .. وأنا زوج بنته ..

ونزل على صدغي بكفيه ..

وعجب المجتمعون لجرأتي ولإنكاري جدي، وحنقوا علي، فصاح أحدهم يقول: أما واد مجرم صحيح .. ده لازم له علقة تدوب رجليه.

وجرني جدي إلى البيت وهو في غيظ مني وغضب علي، وصاح بزوجته يطلب منها حبلا، فكتفاني وأنا طريح، واستحال الغضب إلى عملية ضرب، وبلغ الغيظ حد الجنون فجعل الرجل يضعني بأسنانه، فلم يؤلمني العض وارتحت له، فجعلت أصرخ أسترحم الثائر فقلت له:

"عض ولا تضربني". فضلت العض على الضرب لأن جدي بدون أسنان.

في مدرسة أسيوط

نقل والدي من قوة الجيش إلى البوليس وعين بوظيفة معاون بوليس طهطا، وعين عمي حسن كامل قاضيا بمحكمة أسيوط الأهلية، وحضر والدي إلى القاهرة أياما بسبب ظروف العمل، وكانت معه زوجه جميلة هانم فرأت نوع معيشتي والفوضى التي أعيش فيها، ورأت ما علي من الثياب البالية والقذارة التي تغطيها، فأشارت على والدي بنقلي معهم إلى طهطا، وتنفذ الرأي.فقضيت المدة الباقية من العام الدراسي في مدرسة الفرير بطهطا، ثم انتقلت بعدها إلى منزل عمي بأسيوط وألحقت بالسنة الرابعة بالمدرسة الأميرية.

كنت صغيرا إلى جانب زملائي الكبار، وكان التعليم يرتكز على الشدة وعلى الضرب بالخيزران، ونالني نصيب كبير من لكمات مدرس اللغة العربية "الشيخ عوض" ومن ضابط المدرسة بطرس أفندي، ولست أذكر معلما له حلم ووداعة سوى معلم إسرائيلي كان يعلمنا اللغة الفرنسية.

وجدت أثناء ذلك العام الدراسي أن والدي رغب في مشاهدتي، فسافرت إلى طهطا لقضاء يومي الخميس والجمعة، وغمرت في اليومين بأنواع من الحلوى وبكميات من البلح السيوي الجاف، ثم أعدت إلى أسيوط مزودا بهدية منه.

لم ترتح نفسي للعودة، وصرت قلقا لا يقر لي قرار أطمع بالبقاء في طهطا حيث الحلوى وأنواع البلح المختارة، وأحن لأصدقائي الذين ارتحت للعب معهم أثناء وجودي بمدرسة الفرير.

وقوي عزمي على تنفيذ هذا الرأي فخرجت صباحا للذهاب إلى المدرسة ومعي الرغيف والطعام للغداء، ولكنني لم أذهب إلى المدرسة وقصدت إلى شريط السكة الحديد فاعتمدت عليه للبلوغ إلى طهطا سيرا على الأقدام ..

كان الشوط طويلا على صبي، ولكنني احتملت عناء السير لأبلغ إلى غايتي فوصلت إلى منزل والدي بعد العشاء، ولحسن حظي كان والدي غائبا في دورية ليلية، فأكلت ونمت.

وقبيل طلوع النهار أيقظني والدي في غضب، واستقبل يقظتي بعلقة ألهبت جسمي وقدمي، وردني في الصباح إلى أسيوط فدخلت البيت في خزي وانكسار.وقد شكوت لوالدي من المعاملة التي ألقاها في بيت عمي، ولكنني كنت كاذبا في كل ما شكوت منه، لأن عمي كانت له أخلاق رضية كريمة، وكان منزها عن كل عيب ينسب إلى الأخلاق أو الرجولة أو العقل أو الوصف كرب أسرة هادئة تعيش في اطمئنان وهناء.

أما المرحومة زوجة عمي فكانت ملاكا في جسم إنسان، كانت المثل الأعلى للمرأة الشريفة المتزنة الوديعة ربة البيت المنظم، كانت تحنو علي وترضيني وتحقق رغباتي المعقولة وتشملني على الدوام بالرعاية والعناية.

وفي أسيوط تعلمت السباحة، لأن البيت كان في "المنشية" وله باب آخر يؤدي إلى المزارع، وفي زمن الفيضان تغمرها مياه النيل، وكان على القرب من البيت فجوة عميقة تبقى مليئة بالماء بعد زوال مياه الفيضان عن الأرض، وفي هذه البركة الفسيحة تعلمت السباحة.

وكان من عادة العقلاء في ذلك الزمن قضاء كل أوقات الفراغ في بيوتهم، وفي الليل يتزاورون في هذه البيوت في المنادر، وكان من أصدقاء عمي الذين يزورونه من حين لآخر قاض اسمه "مصطفى حلمي"، وأرجو أن يحتفظ قارئ اعترافاتي بهذا الاسم وبنوع صلته بعمي لأن له شأنا معي بعد أعوام ستثبته هذه السيرة.

وغاب عمي عن أسيوط في إجازة طويلة قضاها بالإسكندرية، وترك لصديقه القاضي مصطفى حلمي واجب الإشراف على البيت، فكان الخادم "محمد" يلجأ إليه في كل شأن هام تقضي الظروف بالرجوع إليه فيه.

وحان موعد امتحان الشهادة الابتدائية في عام ١٨٩٢، وكان هذا الامتحان

جديدا على الطلبة فتحدثوا عنه بروايات كثيرة بقى في ذهني منها من تخريف التلاميذ: أن كل داخل للامتحان تقطر له في عينيه قطرة حامية قبل الدخول، ثم يمتحن وهو يتألم من القطرة.

وكانت زوجة عمي تقطر لي في عيني قطرة نترات الفضة، فكانت الجارية صباح تضع رأسي في حجرها وتقيد ذراعي بيديها القويتين لتمكن سيدتها من صب قطرات القطرة في عيني، فكنت أصرخ وأرفض ويطول بكائي إلى وقت غير قصير بعد تلك العملية. وقد تولاني الفزع من حكاية وضع القطرة في العيون قبل دخول مقر لجنة الامتحان، وقضيت الليل في التفكير في وسيلة تنقذني من ألم هذه العملية فلم أهتد لشيء سوى الهرب من الامتحان ...

وقبيل إشراق الشمس تسللت من الفراش وبارحت البيت معي رغيف وقطعة من الجبن، وانطلقت من الباب الخلفي إلى المزارع فقطعتها إلى جسر الإبراهيمية واختبأت هناك ..

وفوجئ أهل البيت باختفائي وتركي ثوب المدرسة، فأرسلوا الخادم يبلغ الخبر إلى المرحوم مصطفى بك حلمي، فخرج بالجلباب وجمع فريقا من خدم المنازل المجاورة وانطلق بهم في المزارع للبحث عني حتى اهتدوا إلي ..

ضربني القاضي وحملني الخدم إلى المدرسة مقر لجنة الامتحان، وكان رئيسها المرحوم أمين بك سامي (باشا بعد ذاك) ناظر مدرسة المبتديان.

وكان ناظر المدرسة حينذاك المرحوم السيد أفندي وفائي، فرأى مصطفى بك حلمي في جلبابه الأبيض ورأى الخدم يحملونني بالقوة، فعرف رئيس اللجنة بالقاضي، وقص عليه هذا ما عرفه مني عن سبب هروبي.

لم يحرمني رئيس اللجنة من دخول الامتحان، وطمأنني واستدعى بائع حلوى على باب المدرسة فأحضر لي شيئا مما يبيعه من الحلوى المطبوخة، ثم سألني هل أستطيع أن أؤدي الامتحان كزملائي مع انهم دخلوا قبل وصولي بربع ساعة، فوكدت له أنني

أستطيع تأدية الامتحان فأخذني إلى الفصل الذي به زملائي، وأجلسني في المكان الذي كان معينا لي، وأعطاني ورقة أسئلة الحساب والورق الأبيض وأدوات الكتابة، ولم يتركني إلا بعد اطمئنانه على أنني استمررت في حل المسألة الأولى.

وانتهيت من الإجابة قبل زملائي وخرجت، فتلقاني المرحوم رئيس اللجنة وسألني عما فعلت فعرضت عليه المسودة وعليها الحلول والإجابات فأنشرح صدره وأدخلني غرفة الناظر فارتديت ثوبي الذي تركته في البيت، وشجعني ثانيا بكمية من الحلوى.

وتم الامتحان ثم ظهرت النتيجة فكنت الثاني في الترتيب ، فقارنوا بين أخلاق رجال التعليم والتربية في ذلك الزمن وبين النظام الذي يقضي الآن بحرمان الطالب من دخول الامتحان إذا وصل إلى اللجنة بعد توزيع الأسئلة .

بعد نيل الشهادة

قبيل امتحان الشهادة الابتدائية نقل والدي إلى قليوب، فانتقلت إليها بعد الامتحان والنجاح وعشت في ذلك البيت كما يعيشون، وكنت أتسلل في الضحى وأذهب إلى ترعة صيفية خارج المدينة لأتلهى بالسباحة، وكان والدي ينهاني عن ذلك ويضربني، ولكن النهي والضرب لم يمنعاني من المداومة على هذه التسلية.

وحدث مرة أنني كنت أسبح في الترعة فرأيت والدي آتيا على جسرها من ضبط واقعة، كان على جواد وخلفه اثنان من العساكر، ففزعت وخشيت من غضبه فهداني الخوف إلى خاطر سريع يسترني منه فنفذته بسرعة، دهنت جسمي كله ووجهي بالطين ووقفت مع بعض الصبيان على جسر الترعة نلعب ونجري، فمر بنا حضرة المعاون وسمعته يقول لأحد الجنديين: "أهو الشقي حافظ بيعمل زي دول .. " فحماني هذا التنكر من العلقة التي كانت محتمة لو رآني.

وحل موعد دخول المدارس فألحقت بالمدرسة الخديوية مجانا بالقسم الخارجي بسبب تفوقي في امتحان الشهادة الابتدائية، وسكنت مع الست نفيسة خالة زوجة أبي.

كانت المرأة سيدة هادئة الطبع متزنة تقيم في مسكن صغير في ربع موقعه في حارة السنانين، وهي فرع من شارع أمير الجيوش البراني توصل بين هذا الشارع وحي الجمالية، وكان زوجها في مثل هدوئها وعقلها، وكلاهما أمي له عادات العامة وأخلاقهم مع طيبة.

كنت أخرج في الصباح لأذهب إلى المدرسة فأقطع الطريق من هذا الربع الحاشد بمئات من السكان إلى درب الجماميز في ساعة تقريبا، وكان ضابط المدرسة "سيد أفندي عاطف" يتولى تنظيم الطلبة على الموائد وقت الغداء.

ولم تعين لي مائدة معينة كغيري، فكان الضابط بعد استقرار الطلبة على الموائد يبحث عن أماكن الغائبين ويضعني والبؤساء أمثالي في تلك الأماكن الخالية، فكبر علي أن أوضع كل يوم على مائدة أكون بين أصحابها غريبا عليهم، فاستقر رأيي على عدم تناول طعام الغداء ثم نفذت هذه الفكرة، وصرت أقضي وقت تناول الطعام في حديقة المدرسة.

كان مرتب معاون البوليس حينذاك ٩ جنيهات في الشهر، فصار يدفع منه للست نفيسة جنيها واحدا في كل شهر في مقابل السكن وطعام العشاء، وهو مبلغ قليل لا يكفي نفقاتي فلا يمكن أن يدفع منه مليم واحد لنفقات جيبي.

وكل صبي يحتاج إلى شيء من النقود لإرضاء رغباته، وزاد علي هذا الحرمان عدم تناول طعام الغداء في المدرسة، فكنت أشعر بالجوع من منتصف النهار، وتجذب نظري في كل خطوة في الطريق ذهابا وإيابا مناظر الحلوى المنوعة والفاكهة وشتى المغريات.

حملتني هذه الأسباب على البحث للاهتداء إلى حيلة لاستكمال هذا النقص، فصرت أبيع كتبي واحدا تلو الآخر إلى تاجر في الموسكي اسمه أمين هندية، وطبعا كان الشاري يدفع لي أبخس الأثمان، وتمكنت بهذه الوسيلة من إمتاع نفسي بالبليلة أو الفاكهة عند عودتي وحين الغداء، وبالحصول على ما يسيل له لعابي من الحلوى في الصباح، وبشراء خبز من المدرسة، بعت الكتب كلها، ولم أعن إطلاقا بالتنبه للدروس ولا بالمراجعة ليلا للاستذكار، وعوضت نفسي من المذاكرة بسماع "الحواديت" ليلا في الربع من الصبيان أمثالي والبنات حتى يحين موعد الست نفيسة للنوم فتناديني من طرقات الربع لأنام كما تفعل هي وزوجها.

لم أنجح طبعا في نهاية العام الدراسي وحرمت من المجانية، ثم ألحقني والدي في العام الدراسي الجديد بالقسم الداخلي بالمصروفات، واتفق مع إدارة المدرسة على الدفع شهرا بشهر من مرتبه، ولكنه عجز عن الدفع بعد ثلاثة شهور، وتراكمت عليه ديون بسبب ضآلة مرتبه فحجزني في البيت بقليوب.

وكان وجودي بدون عمل في البيت فرصة طيبة للجميع فاغتنموها، ونيط بي حمل أختي الصغيرة بهية وتسليتها لتتفرغ جميلة هانم لقضاء أعمال البيت اليومية، فضيعت عاما على هذه الصورة.

وكانت العادة السماح لي بالخروج للعب بعد عصر النهار فتعطيني تيزة جميلة هانم مليما وتطلب مني العودة قبل الغروب، فكنت أنطلق كالسهم وألعب مع الصغار في ميدان بجانب البيت يسمى ميدان "سيدي عواد".

ولم يخل هذا الزمن من المنغصات ومن العلق الحامية إذا غضب والدي علي، وأسباب الغضب كانت كثيرة طبعا.

حدث مرة أنه عاد من ضبط واقعة بعد عصر النهار متعبا، وجلس في غرفة الجلوس يحدث زوجته، وكانت أختي بهية نائمة ثم استيقظت من النوم فأمرت بحملها ومداعبتها في غرفة ثانية حتى لا تزعج خلوة الزوج المتعب مع زوجته.

فوقفت ذليلا عند باب الغرفة، ولاحظت على تيزة جميلة أن وقت رياضتي قد حل، فانتفض والدي في غضب وتناول أسطوانة سميكة من الخشب تسمى جندرة كانت تستعمل لكي الثياب المغسولة "على البارد" وجرى خلفي حتى حصرني في ركن ونزل علي ضربا بالجندرة .. فأصابت إحدى الضربات فمي فشقت شفتي العليا وكسرت سنه وتدفق الدم .

وخشى حضرة المعاون من ظهور آثار الضرب أمام عيون الناس فحبسني في البيت، وحرم علي الخروج، واعتمد في العلاج على دهن الجرح بالسمن ..

وكانت نتيجة هذا العلاج تورم الشفة وازدياد الألم من الجرح الذي ترك قذرا أياما، ولم أطق احتمال الألم يوما ما فتسللت من البيت وقصدت إلى مكتب طبيب المركز فتولاه العجب من نصرف والدي وبدأ معالجتي، ولم يرق والدي هذا التصرف فخنق عليا وجازني بعلقة كرباج.

وحدث مرة أن الست أم جميلة هانم كانت تعجن وأمامها خادم تروح على الماجور

لتمنع الذباب من السقوط في العجين، فوقفت بعيدا عن الست وجعلت أرقص على صوت ضربات العجين، وأقول على وزن تلك النقرات: سن .. سن .. سن ..

غضبت الست من عنادي وصرخت بصوت مزعج "ضربت بالصوت" وشقت جلبابها، ففزعت جميلة هانم من صياح أمها وأطلت عليها من الطابق الثاني وسألت عن الخبر، فاندفعت أمها تشكو مني، وتدعني أنني كنت أقول: بالسم .. بالسم.

فكانت النتيجة ثورة عالية الضجيج ..

وأدركت مما حدث مقدار ما سيكون عليه غضب والدي، لأن جريمتي في هذه المرة: جناية اعتداء على حماته، فحملني الخوف من الضرب المنتظر على الهرب .. من البيت ...

ليس لي ملجأ سوى بيت جدي لأن جدتي لأمي باعت ما تملك ورحلت إلى الاستانة، فقصدت إلى القاهرة ماشيا بجانب شريط السكة الحديد، فوصلت عند الغروب إلى جسر فوق ترعة تمر عليها القطارات، فأردت اجتيازه فمنعني الحارس حيث كان يتوضأ قريبا منه، وأشار علي بالمرور فوق جسر آخر في الناحية الغربية من ذلك المكان ويبعد عنه كثيرا ثم أرتد إلى شاطئ الترعة هذه المسافة نفسها لأعود إلى شريط السكة الحديد ، فشق علي الأمر لأن الجسر المحروم المرور عليه لا يزيد طوله عن عشرين مترا أستطيع قطعها في دقيقة .. فبكيت.

وأشفق علي الرجل وسألني عن وجهتي فقصصت عليه أمري وما سببه لي الخوف من الضرب، فأخذني إلى كوخه القائم بجوار الترعة وفيه زوجه وعياله، وحكى حكايتي لأمراته فأشفقت علي ورحبت بي، فقضيت الليلة عندهم.

ونمنا بعد تناول العشاء، ولكني أرقت بسبب التعب والخوف من نتائج اعتدائي على الست زنوبة ثم هروبي، وظن الزوجان أنني نائم فصارا يتساران مطمئنين، فسمعت المرأة تعرض على رجلها فكرة استبقائي عندهم لأعاونهم في حمل طفلها الصغير، فلم يحبذ الرجل الفكرة، وجعل أسباب الرفض أنني ابن معاون بوليس قليوب وسيبحث عني

بشتى الوسائل.

ومن المصادفة المزعجة أن الدورية الخيالة مرت بالكوخ في تلك اللحظة وعلى رأسها والدي، فتلقاه حارس الجسر وتحدث معه، وسمعت والدي يسأله هل رأى غلاما يقطع الجسر متجها إلى القاهرة ووصف له الغلام، وأدرك الحارس أن والدي يسأل عني فتجاهل وأنكر أنه رآني.

شكرت هذه العائلة في الصباح وقصدت إلى القاهرة ثم إلى بيت جدي فوجدت عمي وعائلته هناك، فشكوت لهم من قسوة والدي.

وحضر والدي وآل بيته للسلام على أخيه، واقتضى الحال التحدث في موضوعي، ثم استدعيت أمام الجميع فكررت الشكوى في وصف القسوة.

ولم يكن لهذه المواجهة أي تأثير في والدي سوى زيادة حنقه علي بسبب جرأتي في الشكوى منه ومن زوجه وحماته، ولم يكتمل عقلي في تلك السن فلم أزن تصرفات هذا الوالد معي، ولم أدرك الباعث على قسوته.

وعلم والدي بعد حين طويل وقرب نهاية العام الدراسي أن نظارة المعارف ترغب في الحصول على طلبة لمدرسة رأس التين الأميرية داخلية ومجانا، إنما على ذمة إلحاقهم بالمدرسة الحربية بعد إتمام الدراسة الثانوية، وكل تعليم مجاني يهرع إليه الناس، فأسرع والدي إلى تلك النظارة وعرضني على المستشار الإنجليزي فقبلني لصغر سني ووقع والدي على الشرط الخاص بالمدرسة الحربية.

كنا أربعة من الطلبة المقبولين على هذا الشرط فنقلنا إلى الإسكندرية يرافقنا موظف من النظارة، وكان الباقي على العام الدراسي شهرين، فلم نتعلم شيئا، ورسبنا في الامتحان، وكررنا الدراسة بالسنة الأولى في العام الدراسي الجديد.

واستمررت في هذه المدرسة ثلاثة أعوام ووصلت إلى السنة الثالثة، وفوجئنا في أول العام الدراسي بنظام جديد يقضي بجعل التعليم الثانوي يتم في ثلاثة أعوام فقط فاجتمعنا بالذين نقلوا إلى السنة الرابعة وبالذين رسبوا في امتحان البكالوريا، فصار

مجموع الطلبة في الفصل اثنى عشر طالبا.

والذي بقي في ذاكرتي من آثار الزمن الذي قضيته في رأس التين أنني كنت رئيس فرقة كرة القدم، وأن المرحوم إسماعيل حسنين أفندي (باشا بعد ذلك) كان ناظر المدرسة، وكان يدري لي علوم الرياضة ثم الطبيعة والكيمياء. ولا زلت أذكر أنني كنت أنفر من حفظ قواعد اللغة العربية، وأن مدرس هذه اللغة المرحوم إبراهيم أفندي .. كان يكرر معاقبتي كلما سألني لاختباري، وتضايقت مرة من تأنيبه فقلت: هو أحنا بعد الدراسة حنشتغل بضرب مُحَمَّد وقعد زيد ..

وأثارت وقاحتي غضب ذلك المدرس الحليم فانتزع النعل من قدمه ونزل بها على رأسي وعلى وجهي، ثم سجل اسمي في ورقة المعاقبة وقرر العقاب "خبز بلا إدام بقية العام ... ".

ونفذ الناظر هذا العقاب القاسي كنصه، فكنت أقف في نهاية قاعة المائدة وقت تناول الطلبة طعام الغداء، ويعطى لي رغيف من الخبز أرغم على أكله أمام الجميع تحت مراقبة ضابط المدرسة.

وأذكر أيضا أنني كنت عائدا إلى المدرسة في أول العام الدراسي الثالث وكان والدي في الفيوم، فأعطاني جنيها واحدا لأدفع منه أجرة السكة الحديد للإسكندرية، ولأشتري قميص أفرنجي وحذاء، ولأنفق من الباقي طول الشهر.

كانت ضآلة مرتب الرجل تجعله عاجزا عن الإنفاق علي واستكمال حاجاتي الضرورية، فقضيت طول زمن الدراسة في عسر وضيق.

وطلبت إلى المدرسة الحربية بعد إتمام الدراسة الثانوية على تلك الصورة ونجحت في الكشف الطبي، وألحقت بالمدرسة، فخلعت ملابسي المدنية وارتديت ثوب جندي عادي .. وكان نظام المدرسة في ذلك الزمن يقضي بحجز الطلبة المقبولين شهرا كاملا في المدرسة، فلا يخرجون منها إطلاقا، ولا يقابلون أحدا من الزائرين.

ويقضي ذلك النظام القراقوشي بوضع هؤلاء الطلبة تحت ضغط عال جدا

لتعويدهم الطاعة العمياء والاستكانة للذل وفقدان الشعور بالكرامة.

ومن الوسائل التي يدربون بها ضباط المستقبل وضعهم تحت أمر صف ضابط من الطلبة في السنة النهائية يتولى تعذيبهم بشتى ألوان العذاب والإهانة، ويعلمهم بعد العشاء في أحد الفصول واجبات الطالب في المدرسة.

تؤمر فنقف بعد تناول العشاء صفين في وضع انتباه (زنهار في ذلك الحين) ونبقى في هذا الوضع ساعة أو بعض الساعة لغير سبب سوى التعذيب، والويل لمن يتململ عند شعوره بالتعب ، فإذا دخلنا الفصل للاستماع لدروس الواجبات من المعلم المختار (صف ضابط) نسمع منه أقذر عبارات الشتم والسب والمعايرة ونحن في صمت الأصنام.

وكان من المفروض على الطالب الجديد عدم الاختلاط بطلبة المدرسة إطلاقا حتى الأخ لا يسمح له بالتحدث مع أخيه، فإذا خولف هذا الأمر تكون العقوبة قاسية ومن نوع الأدب الذي نسمعه من معلمنا المهذب مدرس الواجبات ..

وأدركت بسهولة أن طلبة المدرسة لا يفهمون العلوم التي تدرس لهم لأنهم في المعرفة دون الحاصلين على الشهادة الابتدائية، ولأن من العلوم التي تدرس الطبوغرافيا والاستحكامات والهندسة والجبر، فكانوا يجلسون في الفصول كالأصنام، ويكتفون من التحصيل بحفظ ما يفرض عليهم من النظم والقوانين وقد يكون هو الفصل الأول كله أو يتمم العدد من الفصل الثاني الذي يليه "في الأقدمية".

وكان مكتب السردار (القائد العام) ومقره الخرطوم يقذف المدرسة من حين إلى آخر بطلبة من السودان يفرض على المدرسة فرضا قبولهم، وكلمة "طلبة" بعيدة عن الحقيقة كل البعد، لأن أولئك كانوا جنودا في الفرقة السودانية من نوع: بروجي أو عسكري مراسلة لضابط إنجليزي حمله الرضا عن سلوكه على الرغبة في تحسين حظه وحاله الاجتماعية، والوسيلة المفردة لتحقيق هذه المعاونة هي قذفه على المدرسة الحربية المصرية مع الأمر بقبوله.

وخصص لهؤلاء المقذوفين لترقيتهم ضباطا فصلان يتعلمون فيهما القراءة والكتابة والنظم العسكرية، وكانوا على الدوام من ذوي الأخلاق الحسنة والطيبة والوداعة، لأنهم يدركون أنهم دون مستوى الجماعة التي يعشون بينها في جميع الصفات.

وكان المفروض على إدارة المدرسة ترقية أفراد منهم في كل مرة يحدث الترقي فيها، فيرقون بالأقدمية وحدها بدون امتحان.

النظام اليومي

يستيقظ الطالب قبل إشراق الشمس بالأمر يوجه إلى الجميع بواسطة النفير، فيثب الطالب منم الفراش إلى السرير بعناية ودقة، وثم إلى السلاح فيتمم فحصه، ثم إلى السرير صف ضابط "رئيس البلوك" فيؤدي له التحية ويقول: تمام يا أفندم — أو ينقص كذا من مهماتي.

ويهبط مسرعا إلى الطابق الأرضي حيث الماء ودورة المياه، ولم يكن هناك للاغتسال سوى صنبور واحد ليغسل منه ٢٠٠ طالب وجوههم وأقدامهم في وقت لا يزيد عن دقائق قليلة فكانت الضرورة تلجئ الشطر الأكبر من الطلبة إلى التخلي عن غسل الوجه والقدمين.

ويعود الطالب من دورة المياه إلى عنبر النوم ليرتدي ثيابه وليتقلد سلاحه ثم يجري جريا إلى ميدان المدرسة في الفناء إطاعة لأمر النفير فتصطف الصفوف في كتيبتين "بلوكين" يتولى قيادة كل كتيبة ضابط برتبة ملازم أول من الجيش.

ويتولى القيادة العامة قو مندان المدرسة راكبا جواده ولم يكن للمدرسة الحربية في ذلك العهد قو مندان إنما نائب قو مندان برتبة صاغ، فيصدر الأمر بالمسير فتخرج قوة المدرسة إلى ميدان الرصد خانة للتدريب في طابور الصباح، وينتهي هذا الطابور في الساعة الثامنة صباحا.

ويعود الطلبة إلى المدرسة ويصعدون إلى عنابر النوم ليترك السلاح في المكان الخاص به ثم ينزلون إلى غرفة الطعام لتناول طعام الفطور، وهو على الدوام رغيف من الخبز وزنه ١٠٠ درهم ثم إناء به شوربة عدس يوزع على عشرة تلاميذ على قلة ما فيه.

ويأتي الخدم يحملون على رؤوسهم "طبالي" عليها أكواب من القهوة المخلوطة باللبن، فيثب ذوو الجرأة إلى الأقداح وثبا سريعا ويتناول الطالب بيده أو بيديه ما

يستطيع خطفه من هذه الأقداح، ثم يسرع إلى مكان بعيد ليشربه هنيئا، أما ذوو التأدب والحياء فلا ينالون شيئا.

وفي الساعة التاسعة ينادي النفير الطلبة ليذهبوا إلى الفصول للدراسة، وتذهب فرق أخرى إلى طابور الرياضة البدنية في مكان خاص خارج المدرسة لمدة ساعة ثم تعود لتلقي الدروس في الفصول إلى الظهر.

لم يمن عدس الصباح يكفي لتغذية طالب في طور الشباب والفتوة يقضي طول النهار في بذل مجهودات بدنية في التدريب العسكري أو في التدريب الرياضي أو في تعلم علم الاستحكامات العسكرية على الطبيعة، ويقتضي التدريب العملي حفر خندق وعمل واقيات من أكياس تملأ بالتراب، وما يشبه هذا من شتى الأعمال.

إذن كان الجوع يفرض على الطالب استكمال حاجته من الغذاء بالفول المدمس وهذه الحاجة حاضرة على الدوام، لأن "خالتي شفا" العجوز الضريرة تجلس في ردهة إلى جانب غرفة الطعام وأمامها قدر الفول الساخن، وإلى جانبها ابنتها الصبية "صديقة" وإناء مملوء بالسمن السائل ذي الجاذبية القوية.

يحمل الطالب إناء ويجري إلى "خالتي شفا" فيغرف من بطن القدر مغرفة واحدة من الفول، وتملأ صديقة الحسناء مكيالا صغيرا من السمن تصبه على الفول وترش عليه الملح في نظام وسرعة، ويدفع الطالب ثلاثين قرشا في نهاية كل شهر لبائعة الفول سواء استوفى حقه من هذا الغذاء أم تعطل عن الحصول عليه لأي سبب، لأن خالتي شفا وابنتها ليست لهما دفاتر لقيد الحساب ..

والذي سمعته عن تاريخ "خالتي شفا" أنها تولت هذه التجارة الرابحة في المدارس الحربية زمانا طويلا يزيد عن نصف قرن .. يثبت هذا أنني رأيت ماهر باشا (والد علي ماهر باشا)، وكان حينذاك محافظ مصر، يقف في الطريق مرة أثناء رياضته، ويحنو على "خالتي شفا" ويتحدث إليها، وسمعته يقول لها: أنت لك فضل علينا كلنا .. علفتينا ونحن شبان ..

وتركت شفا بعد موتها (في غير ذمتي) ثروة كبيرة لابنتها صديقة الحسناء، وسمعت أن هذه الثروة عاونت الفتاة على الاقتران بضابط كبير من الذين "تمر فيهم العيش والملح".

وطعام الغداء لم يكن كافيا أيضا فيزيد عليه الطالب من "كانتين" المدرسة السلطة لتعاونه على بلع ما يتناوله من اللحم .. إذا صح أن تسمي تلك المادة المتصلبة لحما، ويختم الطعام باللبن المخثر (الزبادي) أو بحلوى الطحينية يفتتها على الأرز المسلوق ليستطيع تناوله ، وثمن هذه الزيادات اللازمة لكل طالب تقتضي منه دفع ٣٠ قرشا في كل شهر للكانتين إذا لم يشرب الدخان أو يستهلك فاكهة وحلوى أو شيئا مما يسيل له لعاب المرحوم الجائع.

وتنظيف السلاح لا يتم إلا بالقماش والزيت وحجر طفلي ثم بورنيش أسود لدهن الجلود، حاجات ضرورية أكثر لزوما للطالب في ذلك الزمن من الضروريات لاستكمال النقص في الغذاء، ومن هذا الوصف ندرك أن حياة الطالب كانت تستدعي أن يتوفر له في الشهر جنيه واحد على الأقل للنفقات الضرورية لحياته داخل المدرسة فقط، بدون المحاسبة على الحاجات الأخرى اللازمة من الثياب الداخلية أو نفقات التريض يوم الجمعة يوم العطلة.

كنت محروما من جميع هذه النفقات الضرورية عدا خمسين قرشا يرسلها لي والدي في أول كل شهر، ولست أدري كيف قضيت أيامي في المدرسة بدون الحصول على ألزم اللزوميات، إنما جملة الذي أذكره أنني لم أبارح المدرسة إطلاقا في أيام العطلة الأسبوعية بسبب عدم وجود نقود معي حتى ولا ملاليم لركوب الترام بنصف الجرة ..

أما عطلة الأعياد فكانت مرتين في العيدين، قضيت واحدة منها عند والدي بسنورس (فيوم) والثانية (مرغما) في منزل آل حبيشة أولاد عمتي بالقاهرة لعدم حصولي على أجرة السفر للفيوم، وكنت الطالب المفرد الذي يعود للمدرسة بدون ما يزوده به أهله من أنواع الطعام الشهي.

كان الفقر من الأسباب التي حملتني على اعتزال زملائي حتى لا يشعروا بما كنت فيه من الحرمان والعوز الشديد، وكنت أرتاح لمعاشرة طالب واحد اسمه (فريد فهمي) مسيحي ابن قسيس كنيسة حارة السقاين بالقرب من حي عابدين بالقاهرة، ثم ترك حياة الجندية بعد وفاة والده ليحل محله قسيسا في تلك الكنيسة، وسيكون له معي شأن هام في الأعوام الآتية بتأثير هذه الزمالة في نفسه الطيبة.

متفرقات متنوعة

زمن الدراسة في الدارسة الحربية كان حافلا بحوادث متنوعة، منها: أن إدارة المدرسة كانت لناظرها المرحوم إسماعيل سر هنك باشا ورتبته (أمير بحر)، ولكنني طول العام الدراسي لم أره في المدرسة سوى مرة واحدة، رأيته واقفا على الرصيف الداخلي يشاهد الطلبة يلعبون في الفناء الفسيح الواقع وسط بناء المدرسة، ولم يزر المدرسة في ذلك العام إلا هذه المرة الخاطفة.

وكانت القيادة العسكرية والرياسة الإدارية للمرحوم الصاغ محمود صدقي، كان جنديا بالمعنى التام، ومعلما للفنون العسكرية يدل تدريبه على معرفة واطلاع وعلى قدرة على التجديد والابتكار.

وكان في عمله الإداري مربيا أكثر منه آلة لتنفيذ حرفية النظم العسكرية ونصوص القانون، وكانت أحكامه للتأديب لا للقسوة في المعاقبة، وكان نهجه قائما على الرغبة في استبقاء دوسيه الطالب خاليا من حصر الأخطاء والعقوبات ليرسل معه إلى الجيش عند الترقي.

أما الواقع فإن لكل طالب دوسيها محليا تحصى فيه المخالفات والعقوبات التي نفذت فيه بشدة أثناء الدراسة.

وكان لبعض كبار السن من الطلبة عادات سيئة، منها تناول المنزول في المدرسة بعد الانتهاء من العمل النهاري، ومنه الإسراع إلى دور الملاهي المبتذلة في ليلة الجمعة حين يخرجون للمبيت خارج المدرسة.

وحدث مرات أن نائب القومندان فتش بعض المشتبه في سلوكهم وعثر معهم على علب صغيرة من العاج أو المعدن ممتلئة بالمنزول، وهو عجينة مطبوخة بها مخدرات من الحشيش، وقد عوقب كل هؤلاء الطلبة بالعقاب الرادع، ولكن الرجل الطيب القلب

كان يودع تلك العلب في خزانة المدرسة وعلى كل علبة اسم صاحبها ليردها إليه يوم ترقيته كتذكار لسلوكه المنتقد.

وقد دفع نائب القومندان ثمن هذه التصرفات إبعاده عن الضباط العاملين في الجيش، وضع في الاستيداع ثم حول إلى المعاش.وقد دفع جميع الضباط الذين تمت ترقيتهم في مدة رياسته ثمن هذه التصرفات البعيدة عن النظم العسكرية إحالتهم إلا الاستيداع، ودفع طلبة المدرسة الحربية الثمن أيضا من حياتهم لأن السردار عطل الترقية أربعة أعوام، وفصل من قوة المدرسة عددا كبيرا من الطلبة بدون سبب صحيح، واستبقى قوة المدرسة في حدود مائة طالب فقط قضوا أربعة أعوام في تكرار الدراسة واحتمال الأعمال الشاقة.

ووصف نصيب طلبة المدرسة في ذلك العهد، وحظهم من تحصيل العلوم في الدراسة، بجعل الضابط في مثل معلومات أي (ضابط صف) لا أكثر، تبلغ غاية قدرته قيادة كتيبة (بلوك — ١٠٠ جندي) يستطيع تحريكها وتوجيهها وتشكيلها إلى صفوف، ونشرها وجمعها، ثم يقف عاجزا فيما يزيد على هذا القدر من القيادة.

وعلى هذه الصورة من نقص التعليم والإضعاف كانت المدرسة الحربية تكون ضباط الجيش، ليبقى تحت قيادة شباط إنجليز على الدوام.

كنت في صباح أحد الأيام حارسا (ديده بان) واقفا أمام الباب القرقول في نهاية مدخل المدرسة، وإلى جانبي خزانة المدرسة وعليها المراسلات التي جاء بها الساعي من مكتب البريد، لتحمل إلى مكتب القومندان بعد حضوره إلى مكتبه عقب الانتهاء من تدريب الصباح.

وكان الطلبة في المكاتب يتلقون دروسهم، ودخل المرحوم محمود أفندي صدقي نائب القومندان فأديت له التحية العسكرية، فمشى خطوات على رصيف المبنى ثم عاد إلى الخزانة وفحص الوارد من رسائل البريد.

واختار من بينها كتابا مرسلا إلى طالب أكتفى للدلالة عليه هنا بحرف (ي) لفت

نظره غلاف الكتاب لأنه لون وردي وعليه زهور مطبوعة بالألوان، ثم رفع الكتاب إلى أنفه وشمه. وابتسم.

وفض في هدوء غلاف الكتاب ووقف على حافة الرصيف يفحص ما بيده، فأخرج من الغلاف الوردي آخر له لون أصفر فاقع، ثم ثالث له لون أزرق باهت، ثم الكتاب نفسه .. كان على رأسه رسم ملاك بالألوان الزاهية، وإلى جانبه خصلة صغيرة من شعر امرأة تنتشر منها رائحة عطر ..

ولما انتهى من قراءة الكتاب أمرني بالنداء على قوة القرة قول للحضور تحت السلاح، ففعلت. وأمر البروجي (النافخ في النفير) باستدعاء كل قوة المدرسة بالسلاح ففعل، فحدثت ضجة عالية واضطراب في مكاتب المدرسة، والطلبة يتركونها سراعا إلى العنابر لحمل السلاح والنزول جريا إلى ميدان المدرسة الداخلي.

اكتملت القوة في نظام، وشكلها القومندان بشكل قلعة ووجوه الطلبة إلى الداخل، ثم أمر رئيس الحرس بنزع سلاحي وإحضاري إلى وسط القلعة بين حارسين بالسلاح، فنفذ الأمر.

وتوسط القومندان القلعة وجعل يتنوع من غلاف الخطاب ما بداخله من الغلافات الملونة واحدا بعد الآخر ببطء وهو يقول:

- وردي .. لبني .. برتقالي ..

ثم أخرج الكتاب ومر به على الصفوف وهو يقول:

- خصلة من الشعر .. يعني تذكار منتزع من الرأس .. ومرسلة الخطاب لها صورة ملاك ألصقتها عليه ..

ثم عاد إلى موقفه الأول وجعل يقرأ بصوت مرتفع نص الكتاب، وكل ما فيه من عبارات غرام مشتعل ووعود بالحب الجارف.

ثم رفع يده بالكتاب وصاح في الطلبة:

– من منكم له امرأة شعرها أسود، وصورتها مثل هذا الملاك وبلغ بعا الغرام إلى درجة الغليان؟

وسكت برهة قصيرة، ثم صاح بصوت يدل على الغضب والتهديد:

– الذي أرسل إليه هذا الخطاب، يخرج من الصف خطوتين إلى الأمام.

فخرج الطالب (ي) وخطا الخطوتين ووقف، فتحولت إليه جميع الأنظار، فناله من القومندان نصيب كبير من التوبيخ والتقريع، ثم طلب إليه أن يتوب، ولقنه العبارة التي يعلن بها توبته، ثم ألقى على الطلبة عظات ونصائح.

أما أنا فكان اللوم موجها إلي لأن الخطاب جاء به فراش من المدرسة ووضعه إلى جانبي فوق الخزانة ليسلم إلى المرسل، وخطئ أنني لم أتنبه له أنه خطاب غرام "محرم" ولم أشم رائحة العطر، فلم أحجز الخطاب ليسلم للقومندان ..

ولجوء القومندان إلى هذه الوسيلة، للمعاقبة ولإرسال النصائح، وجعل للراقصة صاحبة الكتاب شهرة بين شبان لهم فتوة ولهم غريزة حيوانية، ولهم أقصى حدود الاشتهاء ..

وبلغ الراقصة طبعا نبأ ما حدث من الإعلان عنها، وشق عليها أن يتعمد القومندان بنصائحه وعظاته منع صديقها من الذهاب إليها، فأصرت على معارضته بأنوثتها، وبجر جميع الطلبة إلى بيتها.

كانت تحضر في الصباح في عربة مكشوفة، تقف عند المزلقان الذي يقع شريط السكة الحديد، ويمكن من الذهاب إلى ميدان الرصد خانة، فيمر بها طابور المدرسة أثناء العودة من تدريب الصباح، وتحملق فيها جميع عيون الشباب الملتهبين، ثم تصير حديث الجميع وقت الإفطار.

وتنتقل الراقصة (ن) إلى الساحة المخصصة للألعاب الرياضية ولها سور من الطوب النيء يبلغ ارتفاعه مترا فقط، فتقف بعربتها خارج السور تشاهد تدريب الفرقة

التي عليها النوبة في اللعاب، فتخبل عقول الشبان، وتنشط رغباهم إلى حد الشوق والتمني، فيبذل كل منهم جهده ليظهر نشاطه ومقدرته أمامها.

ونجحت حيلة المرأة فجذبت إلى دارها جميع طلبة المدرسة الحربية عدا السودانيين، وعدا مصري واحد. هو أنا ..

لم يكن الباعث الذي عطلني عن الاشتهاء هو المناعة الخلقية، أو التعفف بسبب التحصن بالأدب، إنما كان الباعث الأساسي المفرد هو: الفقر.

كان مرتبي الشهري من والدي ٥٠ قرشا، وهي نصف النفقات الضرورية اللازمة للطالب، فلم أعرف يوما ما ان في جيبي أجرة للقصد إلى المدينة للتنزه، فما بالي بنفقات سهرة في قهوة غناء ورقص، ثم بنفقات متعة في دار الراقصة المسرفة القاسية على الجيوب! ..

كان عند الست (ن) بيان بأسماء الطلبة، وكانت تشطب منه اسم كل من يسقط في شركها حتى أتت على الجميع عداي أنا، فشق عليها أن ينجو طالب واحد من العقاب الذي فرضته على القومندان، وسألت عني كثيرا من الذين كرروا زيارتها، فعرفت منهم حالي، فحاولت جري إلى دارها بالتضحية.

وحدث في أحد الأيام أنني استدعيت لمقابلة خادم (عبد) طلب مقابلتي خارج باب المدرسة فنوديت، وخرجت من الباب ووقفت تحت أول نافذة وكانت مقفلة وهي في غرفة نوم ضابط الكتيبة.

وتقدم الخادم حتى اقترب مني، وذكر لي أنه موفد من الراقصة الست (ن) تدعوني لمقابلتها في القهوة التي تعمل بها في الساعة التاسعة مساء يوم الخميس، فاعتذرت عن قبول الدعوة، فقال:

"الست عارفة أنك حتعتذر .. وأمرتني أن أؤكد لك أنك لن تنفق شيئا إطلاقا لا في القهوة ولا في البيت .. وأن الدعوة عزومه لله .. "

فلم أجد مبررا للاعتذار ووعدت بالذهاب إلى الموعد.

وجاء يوم الخميس، وكادت تنتهي الحصة الأخيرة من حصص الدروس، وكان ضابط الكتيبة الثانية (ع . ز) هو المدرس، فخصص الجزء الأخير من الوقت لفكاهات ونكات، وأعجبت بنكتة فضحكت قهقهة كباقي زملائي.

وظهر الغضب على حضرة الضابط، وأعلن سخطه من سوء أدبي، وأصدر أمره بحبسي يومي الخميس والجمعة ...

طار صوابي لأنني لم أعاقب إطلاقا طول مدة الدراسة، ولأنني أتحرق شوقا إلى الراقصة (ن)، وحبسني في المدرسة ليلة الجمعة يحرمني من التمتع الذي دعيت له، فعمدت إلى الملاينة والتذلل لطلب الصفح عني فرفض رجائي، وتنفذت العقوبة، فقضيت ليلة الجمعة أتلوى على فراشي من الألم ومن السخط على الضابط، وامتلأ صدري حفيظة وغلا وحنقا عليه.

واستيقظ حضرة الضابط من نومه في ضحى يوم الجمعة، واستدعاني لمقابلته فلما مثلت أمامه صارحني بالسبب الذي حمله على حبسي في المدرسة ليلة الجمعة، كان حضرته واقفا خلف النافذة المردودة يحلق ذقنه حين مان خادم الراقصة يدعوني لمقابلة مولاته ويؤكد لي أن العزومه لا تكلفني شيئا لأنها لله ...

وقال لي:– هب أنك لن تدفع ثمن الخمر ولا أجرة المبيت، ولكنك طبعا ستدفع بتأثير الخجل أجرة العربة وبقشيش الخادم في الصباح .. يعني ريال على الأقل، وهذا المبلغ نصف ما يرسل إليك في كل شهر، فتحرم من ألزم اللزوميات من حاجاتك، ولهذا حبستك لأوفر عليك الريال والحرمان...

ظن أنه أرضاني بهذه المصارحة، ولكن نصائحه لم تصل إلى أذني، وبقى في ذهني انه تعمد حبسي بدون سبب فكان سببا في حرماني من ملاذ شتى منوعة كنت محروما منها على الدوام.

واستمرت حفيظتي وغلي شهورا حتى تعينت يوما رئيس حرس المدرسة لأول مرة،

وكنت فخورا بأنني صرت رئيس القرقول، وحملني الغرور على حصر تصرفاتي كلها في حدود الأوامر العسكرية وتنفيذها حرفيا، وهذه الشدة تنفر الطلبة أفراد الحرس زملائي في ذلك اليوم، ولكن أحدا من الطلبة ضباط الصف لا يعني بشعور زملائه أو برأيهم فيه، إنما تتجه عنايته إلى التشدد في تنفيذ الأوامر تنفيذا دقيقا، وكانوا يهونون على أنفسهم احتمال هذه القسوة بتكرار المثل العامي:

"الغربال الجديد له علاقة .." — "وربنا يحمينا من محدث النعمة"

في الساعة الثامنة من مساء هذا اليوم استدعيت لمقابلة حضرة الضابط وكانت نوبته في الخدمة مع الحرس (ضابط النوبة للمدرسة).

وجدت حضرته عند باب المدرسة يرتدي ثوبا عسكريا من الجوخ الأزرق له شريط أبيض عريض على الجانب الظاهري من كل ساق، وعلى يده معطف الشتاء (كبود)، أديت له التحية فقال لي أنه سيجلس على القهوة المجاورة للمدرسة إلى الساعة التاسعة، ثم يذهب إلى قهوة شفيقة القبطية ويبقى بها إلى آخر السهرة ..

فإذا حدث حادث في المدرسة يستدعي حضوره أرسل له البروجي (نافخ النفير) جرجس بالبسكليت لأستدعيه.

كنا نؤدي هذه الخدمات بثيابنا كاملة وعليها المعطف أيضا (الكبود) بسبب البرد، وكان الحارس يوقظني كل ساعتين لأتولى عملية إبداله بالذي عليه الدور بعده.

والذين خدموا في الجندية يعلمون أن أقسى ساعات السهر للحارس هي الوقت من الساعة الثانية إلى الرابعة صباحا، وقوة الشباب، واحتمال العناء طول النهار في التدريب ولعب الكرة والألعاب الرياضية يجعل جسم الشاب الفتى في حاجة مهمة إلى النوم، فإذا حل وقته يستغرق في نوم عميق لا يعرفه الإنسان في طور الرجولة ويتمناه الذي بلغ الكهولة.

نمت نوما عميقا كالعادة في كل ليلة، فأيقظني الحارس ونبهني لوجود الضابط على باب المدرسة يطلب الدخول .. فلم أغالب تأثير النوم العميق كل المغالبة، ولكنني

أخذت المفاتيح واتجهت إلى الباب.

رفعت العارضة الحديدية وأدرت المفتاح في القفل، وهممت بفتح الباب ولكن حضرة الضابط كان متعجلا، وفي حالة عصبية فدفعني أنا والباب حتى لصقنا بالحائط، ودخل معه زميل له يرتدي معطفا "كبود" عليه علامات الملازم أول.

ورددت الباب وقفلته وأعدت العارضة الحديدية إلى مكانها وثبتها بالقفل، ثم عدت إلى غرفة الحرس وإلى فراشي ورقدت فاستغرقت في النوم العميق كالعادة.

ولم يكل هذا الاستغراق الوقت الذي كنت أتمناه لأشعر بالشبع من النوم، لأن الحارس أيقظني من جديد وطلب مني تلبية نداء حضرة الضابط، فنهضت وسرت إليه متذمرا فرأيته من بعيد واقفا في باب غرفته وإلى جانبه خارج الغرفة زميله الزائر الذي جاء معه، فأمرني بفتح باب المدرسة ليخرج صديقه.

انعطفت إلى الممر الذي يؤدي إلى الباب، وكان عرضه أقل من مترين وطوله أكثر من ثمانية أمتار، وأرضه من الأسفلت، وكنت في هذه المرة أسير وخلفي حضرة الضابط الزائر.

اعتادت آذاننا سماع الخطوات العسكرية المنظمة التي ألفها رجال العسكرية جميعهم، والمسافة بين أول هذا الدهليز وآخره طويلة والأرض صلبة (من الأسفلت) فسمعت وقع خطوات الضابط عليها، كانت خفيفة الصوت غير منتظمة كأنها نقرات أرجل معزة ..

ولما وصلت إلى الباب بدأت عملية فتح القفل الذي يثبت العارضة الحديدية ثم نزعتها من مكانها، وحدثت هذه الحركة بشيء من العنف فصدمت يدي صدر الضابط لأنه وصل بعدي ووقف قريبا مني، وقد تولتني الدهشة مفاجأة، لأن الصدمة كانت قوية هزت الضابط وأسقطت الطربوش عن رأسه، فتدلت من هذا الرأس ضفائر امرأة مزحومة بقطع من الذهب يسمونها خريات ..

ضربت لخمة ..

قالت الغانية:– استر علي .. ربنا يستر عليك ..

وقلت: ليلتكم سودة ..

عرضت المحترفة طاعتها لكل ما أطلبه .. وكل ما اتجه إليه غضبي في تلك اللحظة أن أثبت لحضرة الضابط الجريء المغامر أنني رئيس حرس يعرف كيف يؤدي واجبه وكيف يعاقبه؟

أخذت المرأة في ردائها، وأعدت الطربوش على رأسها، وغطيته بزنط الكبود (طرطور يتدلى على الكتفين إلى الخلف) وسقتها إلى غرفة ناظر المدرسة، وهي التي لم يدخلها سعادته طول مدة دراستي.

كانت غرفة مكتب فخم، فتركت الغانية بها، ولم أصغ لتوسلاتها ولا لنغمات صوتها الرقيق المثير، وأغلقت الباب بالمفتاح، وعدت إلى غرفة الحرس ونمت إلى الفجر.

أيقظ النفير طلبة المدرسة (بنوبة تيقظوا) ووقف الحراس بالسلاح وقصدت إلى غرفة نوم الضابط، وأديت التحية العسكرية كالعادة وبلغته تمام المدرسة، وقلت:– تمام يا أفندم .. والمدرسة زائدة واحد.

فقال وهو مستلقي على فراشه: أنت بتهزر يا أفندي!

قلت: لا .. التبليغ جد .. المدرسة زادت واحد ..

قال: مين فيكم ولد؟ ..

قلت: حضرتك .. ظهر أن الضابط الذي أدخلته معك امرأة من الراقصات .. فجلس على السرير منزعجا وقال: والنهاية .. مش خرجت؟

قلت: لا .. بل حبستها في الزنزانة ..

فانتصب الشاب الجريء في اضطراب وخرج بجلباب النوم إلى غرفة الحرس وفتح بقدمه بابي المحبسين فلم يجد بهما أحدا، فتحول إلى غاضبا ..

وقال: إيه الهزار الوسخ ده يا أفندي!

قلت: أنا لا أمزح .. فتعال معي ..

أخذته إلى غرفة الناظر وفتحت الباب فدخل ووقف أمام المرأة في اضطراب وفزع.

قلت: ستبقى هذه الراقصة محبوسة هنا حتى يجيء القومندان في الصباح وأبلغه الخبر..

قال: هذه جريمة .. وستكون النتيجة محاكمتي بمجلس عسكري وطردي من خدمة الجيش .. فهل تقبل إيذائي على هذه الصورة؟

زلزلني هذا الاعتراف، وندمت على ما فعلت، وشق علي أن ينال ذلك الضابط أذى بسببي .. رغم حنقي عليه.

فقلت: هل هذا الخطأ يعادل خطأي إذا ذهبت لمقابلة راقصة في بيتها بناء على دعوة منها! .. ولكنني سأتصرف لأمنع الأذى عنك ..

نزعت الرداء عن المرأة، وأعطيتها معطفي لأنه بدون علامات ضابط وتأبطت ذراعها وانطلقت بها إلى الفناء الداخلي للمدرسة خلف غرفة الطعام، وكان مزدحما بالطلبة يتزاحمون على الصنبور المفرد الموجود في مكان هناك ليتمكنوا من غسل وجوههم، وكلهم لاه بنفسه عما حوله.

في هذا المكان بناء من الخشب به صفان من المراحيض بينهما فضاء ليتمكن العامل من جر آنيات المراحيض منه وتفريغها في الصباح أمام باب هذا المكان من ناحية الشارع.

دخلت والمرأة هذا الفضاء، وفتحت لها الباب، وأخذت منها ردائي والطربوش وقلت لها: مع السلامة .. ثم أغلقت الباب وعدت إلى حجرة الحراس .. وانتهت الحادثة بسلام .

المستشفى العسكري

عاد الطلبة من عطلة عيد الأضحى وقد زودهم أهلهم بشيء كثيرا من اللحوم والدجاج والديكة الرومي، وخطر لأحد زعماء الطلبة (وقد نسيت اسمه) أن يجمع زملاءه في عشاء يشتركون فيه بما أحضروه معهم، وزادوا عليه برميلا من النبيذ نقل إلى داخل المدرسة من الباب الخارجي لدورة المياه.

وتناول الطلبة العشاء في مرح وضجة وأفرطوا في الأكل وشرب النبيذ، وسهروا سهرة ممتعة بالرغم من نداء النفير للنوم، غض ضباط الصف نظرهم عن تنفيذ الأمر لأن تلك الليلة من العطلة المدرسية.

وفي صباح اليوم الأول للدراسة تخلف فريق كبير من الطلبة عن تدريب الصباح لأنهم مرضى، وعاد فريق آخر من ميدان التدريب بسبب عجزهم عن الاستمرار، وعرض المرضى على الطبيب فتحقق من المرض أنه حمى فأرسلوا إلى المستشفى.

وقبل مرور يوم جديد لحقهم فريق ثالث، فازدحمت أسرة المستشفى بالمرضى من الطلبة، ولبثوا هناك أياما للمعالجة رغم تضجر الأطباء من الزحام ومن شيطنة هؤلاء المرضى الخبثاء.

ولما كنا في دور النقاهة خطر لبعضنا خاطر شيطاني، عقدنا العزم على الهروب من المستشفى ليلا للتريض في الصحراء الواقعة أمامه، ثم الذهاب إلى كانتين العسكر الإنجليز لشراء سجاير وشرب البيرة.

يقع إسطبل البغال ومهمات عربات المستشفى في الجهة الشرقية من المستشفى، فتسللنا أربعة إلى ذلك المكان، وركب أحدنا كتفي آخر ووصل إلى حافة السور المحيط بذلك الفناء، وحطم الزجاج المثبت فيه، ثم غطى مكان منابت الزجاج نثب إليه واحدا بعد الآخر وهو يعاوننا على الصعود ثم على الهبوط إلى الأرض من الناحية الثانية حتى

خرجنا جميعا إلى الفضاء.

ولم يكن من السلامة المرور أمام باب المستشفى لأن عليه حراسا مسلحين، ولأن البناء نهاية الطريق فلا يعبر منه عابر ليلا ونهارا إلا إذا كان يقصد المستشفى نفسه، فاتجهنا إلى الشرق في الصحراء ثم عدنا إلى الغرب على بعد سحيق.

وتمكنا بهذه المغامرة الجريئة من تحقيق رغباتنا، وأمعنا في الصحراء متجهين إلى الشرق لنتجاوز باب المستشفى بدون أن يشعر بنا الحراس، ثم نتجه بعد ذلك إلى السور الذي تخطيناه عند الهروب.

كنا أربعة: إبراهيم راضي، مُحَمَّد زكي شكري، تقي عبد الهادي ثم أنا، وكنا تحت قيادة المرحوم تقي عبد الهادي.

وبينما نحن قريبون من نهاية الشوط إلى الشرق سقط مُحَمَّد زكي شكري في فجوة في الأرض قاعها الممتلئ بالرمال على بعد سحيق، فصرخ يستنجد بنا .. فعادا اثنان منا إلى السور فارتقينا وأخذنا من مخزن العربات لجم البغال وهي حبال غليظة طويلة، ثم تخطينا السور ووصلنا إلى الفجوة، وكان تقي عبد الهادي واقفا إلى جانبها يتحدث إلى زكي شكري ليطمئنه، وتمكنا من ربط الحبال ببعضها ثم أرسلنا طرفها إلى زكي فربطه في وسطه وأمسك الحبل بذراعيه فجذبناه إلينا وأنقذناه، وعدنا إلى المستشفى مبتهجين كأننا نلنا الفوز في معركة حربية.

كنا نظن أن هذه السياحة تمت سرا وأن أحدا لن يشعر بما فعلنا، ولكننا بسبب الرعونة تركنا الحبال في الفناء مربوطة، ولم نفكها ولم نردها إلى المكان الذي أخذت منه.

واكتشف العمال في الصباح هذه الحبال فحدثت الضجة، وتطورت الحادثة إلى الظن بأن لصوصا سطوا على مخزن المهمات للسرقة، ثم فروا قبل تنفيذ رغبتهم لسبب من الأسباب، وقالت الشائعة إن الحبال على هذه الصورة لتربط بها المسروقات وكشف البحث في أعلى السور عن المكان الذي حطمنا زجاجه الواقي، ووجدت آثار الأقدام تحت السور من جانبيه الداخلي والخارجي.

وعرفوا أن هذه الآثار لشباشب المستشفى، ولكنها لا يمكن أن تهدي لقدمي شخص معين، لأن جميع الشباشب توزع على المرضى على صورة واحدة.ولكن الضجة عالية والظنون كثيرة، فاستبعد المنطق فكرة مجيء لصوص من الخارج للسرقة "ورجحوا أن الآثار وتحطيم الزجاج عملية جماعة بارحوا المستشفى ليلا لسبب من الأسباب ثم عادوا إليه".

وحار أمرهم في مسألة أخذ الحبال من المخزن وربطها ببعض، ورجح العقل أن هذا العمل الجريء من فعال الكلبة لا من فعال الجنود المرضى، واطمأن الجميع لهذا الاستنتاج.

كان أطباء المستشفى جميعا من السوريين عدا اثنين أو ثلاثة من المصريين وهكذا جميع الأطباء في الجيش، وكان كبير هؤلاء الأطباء موسوليني بك رحمه الله.

كان طبيب القلب حسن الخلق رحب الصدر، فلم يشأ عمل تحقيق لفضح الطلبة، ولكنه أمر بنقل جميع المرضى إلى المدرسة ليتم علاجهم فيها، فتألمنا من هذه الصدمة القاسية، لأن الإقامة في المستشفى راحة وتله وتنزه في الحديقة الفسيحة وحرية مطلقة.

لم أرى مُحَمَّد زكي شكري بعد زمن الدراسة، فانقضت أعوام طويلة وحوادث شتى، وقبض علي في ١٩١٧ وأرسلت إلى سجن الاستئناف، فوجدت فيه مُحَمَّد زكي شكري مسجونا في زنزانة انفرادية متهما بالاشتراك مع الأعداء في حمل السلاح ضد الحكومة!

كان يرتقي الكرسي ويقف على نافذة محبسه ويحدث المسجونين حديثا يدل على الحماقة والرعونة، ويحاول البحث عمن يمكنه من الهروب في مقابل مبلغ كبير من المال، ونقل الخبر إلى رؤساء السجن فضيقوا عليه الحصار وزادوا في الحراسة.

وقرأت في الصحف بعد ذلك نبأ الحكم عليه بالأشغال الشاقة وإرساله إلى ليمان طره لتنفيذ العقوبة فيه.

وقرأت بعد أعوام نبأ آخر عنه: أن جماعة ذهبوا إلى الجبل بالقرب من المكان

الذي يعمل فيه المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، وكشف الحراس أمرهم واتهموهم بمحاولة تهريب مُحَمَّد زكي شكري، فكانت هذه آخر الأنباء عنه ثم انقطع عني خبره.

أما إبراهيم راضي فمات في شبابه، ومات تقي عبدالهادي أفندي وهو يوزباشي بالبوليس بعد إصابته بالشلل، ولم يبق من الشياطين الأربعة سواي .. ولكل أجل كتاب.

سياسة الإنجليز

انتهت الحرب في السودان فرأى الإنجليز خفض قوة الجيش المصري إلى أضعف حد، فحولوا الأورط المصرية إلى أربع كتائب بدلا من ست، وأحالوا إلى الاستيداع عددا كبيرا من الضباط حديثي العهد بالخدمة، وعينوا للمدرسة قومندان إنجليز ومعه صاغ مصري من عادته التسبيح بحمد الإنجليز.

وسلم محمود أفندي صدقي المدرسة ومهماتها التي في عهدته، ثم سلم الخزانة وما كان بها من علب المنزول مع بعض الطلبة، وصارح زميله بما كان يفعل مع أصحابها.

وسلم له دوسيهين لكل طالب، الأول لتوقيع الجزاءات فيه، والثاني نظيفا ليرسل مع الضابط الجديد إلى الجيش ليبدأ حياة جديدة.

ولم يكتم الصاغ هذا السر عن القومندان الإنجليزي، فكتب تقريرا عن أعمال نائب القومندان المخالفة للنظم العسكري، فكان هذا التقرير سببا في إحالة الصاغ صدقي أفندي الرجل الطيب إلي الاستيداع ثم إلى المعاش بعد حين.

وتولى القومندان الجديد عملية تصفية المدرسة، ففصل منها مائة طالب بدون سبب، وقررت نظارة الحربية منع ترقي طلبة المدرسة الحربية أربعة أعوام قضوها في أشق أنواع التدريب مع الإسراف في القسوة عليهم.

حياة جديدة

في نهاية هذا العام الدراسي تقريبا، وقبل وصول القومندان الإنجليزي انتدبت المدرسة الحربية فريقا صغيرا من الطلبة للاشتراك في عرض خاص ومباريات مختلفة في الرماية. وانتدبت أنا والمرحوم تقي عبدالهادي للرماية، وأنا وطالب وآخر أسمر اللون لا أذكر اسمه لسباق ١٠٠ متر، وربع ميل.

كان المتبارون من الإنجليز، وبعض الإيطاليين، وموظفون من شباب الإنجليز في التلغراف الإنجليزي، ثم من خليط من هواة الألعاب الرياضية.

ونلت الجائزة الأولى في السباقين، ونال زميلي الجائزة الثانية في سباق ربع الميل.

ونلت الجائزة الأولى في الرماية بالبندقية والمسدس، ونال المرحوم تقي عبدالهادي الجائزة الثانية.

كان الضرب بالبندقية (واقفا) على بعد ١٥٠ مترا، وكان الضرب مرتكزا على بعد ٣٠٠ متر، وكان الضرب راقدا على بعد ٥٠٠ متر.

ومباراة أخرى في التنشين بالبندقية على فوهة أنبوبة من الحديد عليها قطعة قماش، موضوعة على بعد ١٠٠ متر.

وكان الضرب بالطبنجة على أهداف متحركة حركات غير منظمة على بعد ٣٠ مترا، ومن هذه الأهداف كرة صغيرة من الزجاج عليها طلاء في لون الزئبق ومفرغة من الهواء، موضوعة على ماء ينبعث من نافورة، فتعلو تارة وتهبط أخرى على مثال حركة اندفاع الماء ثم تسقط عنه لتلقاها غيره.

وكان الضرب بالطبنجة على بعد ٢٠ مترا أيضا على خيط معلق في نهايته ثقل له لون برتقالي، والهدف هو الهيط.

وقد تولت سيدة أفرنجية توزيع الجوائز على الفائزين، فاستوقفتني في المرة الأخيرة وقالت لي:

"لو كنت أعلم أنني سأصادف شابا له هذه المهارة كنت أحضرت له معي جائزة جديدة بسبب فوزه بهذه الجوائز".

وكان المرحوم المستر براين كبير مدرسي المدرسة الحربية إلى جانبها فقالت له: "أرجو أن ترسل هذا الطالب غدا في الساعة الرابعة إلى بيتي لأعطيه جائزة".

وكان المستر براين يعطف علي كل العطف ويرتاح لكل ما فيه الخير لي، فنفذ رجاء السيدة، وعلمت منه أنها أميرة من البيت المالك في روسيا، ولكنها متزوجة من إنجليزي ذي منصب كبير.

ذهبت إلى بيت السيدة وشربت الشاي هناك، وتسلمت الجائزة ساعة من الذهب ولها سلسلة قصيرة تتدلى خارج الجيب، وعند انصرافي طلبت مني التردد على زيارتها كل يوم جمعة في الساعة الرابعة لأشرب عندها الشاي.

تجاوزت تلك السيدة الحلقة الرابعة وقاربت نهايتها، ولكنها كانت جميلة واضحة المحاسن لها فتنة وجاذبية قوية، ولها صوت ناعم يصل إلى السمع كأنه صوت موسيقي، لم تكن فرعاء ولا نحيلة الجسم، وتكونت بصورة تجذب إليها الأنظار وتفتن القلوب وتأسر الأفئدة، ويزيد عليها علم غزير، وأدب عال، وشاعرية.

تهيبت تكرار الزيارة فاستدعاني المستر براين ونصح لي بالذهاب لشرب الشاي هناك، وأكد لي أن هذه الشخصية لها احترام ونفوذ كبير، وربما أنتفع بها في المستقبل.

كنت شابا من العامة، نشأت بينهم وفي طبقتهم، ولم أصادف في حياتي عظماء، وكل أملي في الحياة إتمام الدراسة والارتقاء إلى رتبة ضابط، ثم أخدم في الجيش كزملائي فتكون لي مثل ظروفهم ومثل حظهم، فلا أكون في حاجة لمعاونة أي إنسان.

ولكني أطلعت المستر براين وكررت الزيارات لتلك السيدة المحترمة، فعلمت من

أحاديثها أنها كانت تدعى قبل الزواج البرنسيس فيزنسكي، وأنها روسية، ثم صادفت زوجها في السفارة الإنجليزية ببرلين وثم اقترانها به.كانت تغمرني بعطف واضح من نوع عطف ذي الرحمة على غيره الصغير أو الضعيف بتأثير الإنسانية، فصرت أرتاح لمقابلتها والتحدث إليها.

قالت لي مرة: الإنسان هو الذي يكون حظه في الحياة بنفسه، فالذي يتعلم النجارة يصير نجارا! والذي يتعلم الطب يصير طبيبا، والذي يتعلم العلوم العسكرية يصير ضابطا، ويصير طول حياته آلة صغيرة تؤمر وتوجه بأمر يصدر من الكبار.

وقالت في مرة أخرى: يتحتم على الإنسان ارتقاء السلم ليصل من الأرض إلى الطابق الذي يليها، فكل ارتقاء لا بد له من وسيلة للصعود.

وكنت أظن بسبب نقص المعرفة أن هذه العبارات حديث مجالس فلم تنبهني لأمل جديد، ولم تنشط في نفسي المطامع، لأن غايتي المفردة محصورة في الانتهاء من الدراسة والوصول إلى الجيش ككل الدين اتبعوا طريقي، وكل الذين سيجيئون بعدي في هذا الطريق.

وفوجئنا مفاجأة في المدرسة بوصول القومندان الإنجليزي الجديد والصاغ الجديد وبالزلزال الذي أحدثاه عقب تسلمهما إدارة المدرسة، ووصلت إلينا أنباء تخفيض قوات الجيش وإحالة الضباط إلى الاستيداع، ثم حملنا على اليأس والتألم الشديد من قرار فصل الطلبة ومنع الترقية مدى أعوام ...

انتقلت للفصل النهائي في الامتحان الأخير، وكان بيني وبين الوصول إلى الجيش ثلاثة شهور إذا سارت الأمور سيرها العادي، ولكن الطوارئ المفاجئة هدمت هذا الأمل وعوضت منه اليأس والحسرة.احتملت شتى المشقات طول العام الذي قضيته في المدرسة الحربية، وتألمت من الفقر والحرمان بسبب حقارة النفقة التي يرسلها إلي والدي فكيف تكون حالي إذا عجلت ترقيتي أربعة أعوام؟

شرحت للبرنسيس فيزنسكي هذه الظروف، فكانت إجابتها غامضة لم أدرك

الغرض منها.. قالت لي: الخط المستقيم أقرب بعد بين نقطتين، وقالت: جميع الطرق توصل إلى باريس.

وعلمت مني أنني لا أقضي العطلة المدرسية في بيت والدي لأنه وزوجته لا يرتاحان لوجودي، فكنت أعزل في غرفة عن بقية أفراد البيت، لا يكلمني أحد منهم إطلاقا حتى والدي، ويمنع الأطفال بالقوة من دخول غرفتي أو محاولة اللعب معي، وكان الخادم يحضر الطعام إلى تلك الغرفة ويضعه على منضدة وينصرف، فإذا ناديته لقضاء حاجة لا يجيب النداء.ألجأتني هذه المعاملة زمن الدراسة الثانوية إلى الهروب منها، فلم أجد ملجأ أقضي به شهور العطلة بعيدا عن المنغصات سوى منزل عمي بأسيوط، فأجد فيه الاطمئنان والهدوء والمعيشة المنظمة، وعطف الجميع علي.

وقالت البرنسيس: إذا قبلت نصيحة تنفعك، آخذك معي لإتمام الدراسة العسكرية في باريس .. ولكن هذه الرغبة لا تتم إلا إذا مررنا بالقسطنطينية أولا، فأنقذك من تعطيل الترقية في مصر، وأهيئ لك مستقبلا أحسن وأمتن.

زالت سلطة المستر براين في المدرسة الحربية بعد وصول القومندان الجديد، وحصر عمله في الإشراف على التعليم في المكاتب، وفصل القومندان مائة طالب من قوة المدرسة خبط عشوائي، فزاد هذا في تذمر كبير المدرسين وسخطه.

كان الرجل يعطف علي ويسندني، وكنت أزوره في البيت وأعطي ابنته دروسا في اللغة العربية، فلما زلزلت المدرسة هذا الزلزال عرضت عليه موقفي من أهلي، وشرحت له الأسباب التي تجعلني عاجزا عن احتمال تعطيل الترقية في المدرسة أربعة أعوام، وأسررت إليه بالعرض الذي عرضته علي البرنسيس فيزنسكي، فاستراح لهذا الاقتراح ونشطني لقبوله، قوال لي:

"إذا التحقت (بالبوليتكنيك) مدرسة الهندسة العسكرية تصل بسرعة إلى أرقى المناصب".

ولم يكتف بما سمعه مني، وربما أراد توكيد الأمر وتثبيت الاقتراح فتحدث بالتليفون

مع البرنسيس فصارحته بعزمها على تنفيذ هذا الوعد، فعاد إلي ونصح لي بإطاعة البرنسيس بدون تردد لأنها ستكون مستقبلي على أساس متين.وأثرت في هذه النصيحة فأسلمت أمري لهذه السيدة التي تظهر العطف علي والاهتمام بمستقبلي بينما أجد من والدي القسوة والنفور من وقوع نظره علي.

هو الذي انتزعني من أحضان جدتي، وهو الذي كان سببا في تعذيب المرحومة والدتي، وهو الذي أهان جدتي وحملها على ترك مصر كلها والرحيل إلى تركيا نهائيا، ثم قسا علي وقصر في تأدية واجب الوالد حتى أتمم الدراسة العالية أولا ثم الدراسة العسكرية.

وضعت هذه التصرفات في كفة الميزان، ووضعت في الكفة الثانية عطف المستر براين علي ورفقه بي ومعه عطف البرنسيس فيونسكي وحنانها الواضح، فرجحت هذه الكفة فأسلمت نفسي لهذه السيدة وللقدر.

انتهى العام الدراسي في نهاية شهر يونيو فانطلقت من المدرسة إلى منزل البرنسيس، فتركتني لوصيفة لها لتدربني على التقاليد في مثل هذه البيوت.ولحظت الوصيفة أنني لا أملك سوى ثوب واحد عسكري، فنزلت معي إلى الأسواق واشترت جميع ما يحتاج إليه شاب سيعيش في وسط راق، فعشت في هذا الجو أياما قليلة وأنا لا أصدق أنني في يقظة.

رحلنا إلى الأستانة فأقمنا بها أسبوعين ، تم فيهما التحاقي بالجيش التركي مع إرسالي بعثة لإتمام الدراسة في فرنسا بكلية سان سير الحربية.

لست أدري كيف تمت هذه العملية، إنما أعرف أن البرنسيس لجأت إلى السفارة الفرنسية وإلى ضابط كبير ملحق بالسفارة الإنجليزية فذللا جميع العقبات.. وهذا التصرف من الحكومة التركية يثبت ما كان مشهورا عن رجالها أنهم في ذلك العهد كانوا يتأثرون بالرشوة وبالوساطة وبالمرأة.

في باريس

كان للبرنسيس بيت في هذه المدينة، فيلا صغيرة فخمة بديعة في مدخلها حديقة منسقة بعناية، ولها خيول وعربة وخدم من النساء والرجال، مظاهر تدل على الغنى وسعة الثروة.سكنت في غرفة خصصت لي فعشت فيها تحت إشراف إيزابيلا الإيطالية، وهي عجوز وديعة حكيمة مخلصة في خدمة البرنسيس، وفية لها كل الوفاء، ودلت على هذه الصفات في ١٩٢٠ في القاهرة في ظرف حرج كان خاتمة حياة البرنسيس.

استمرت إيزابيلا تدربني على كيفية تناول الطعام وشرب الشاي، وعلى ارتداء الثياب، وحتى على كيفية الجلوس في مقصورة في التياترو، كانت تريد أن تكون لي آداب رجل عصري في المجالس والمجتمعات، فلما اطمأنت إلى استعدادي أنه تم سمحت لي البرنسيس بتناول الطعام على مائدتها، وبالذهاب معها إلى التياترو، وعهدت إلى معلم رقص بتعليمي بدروس خاصة.وجاء أوان ابتداء الدراسة في كلية سان سير فألحقت بها، ثم نقلت بعد ثلاثة شهور إلى مدرسة البوليتكنيك، فلبثت بها طول مدة الدراسة حتى أتممتها، ونلت الشهادة النهائية.

كانت البرنسيس في تلك الأيام في الأستانة العليا، وكان من عاداتها التردد عليها من حين إلى حين لتقضي بها شهرا أو أكثر لأن زوجها كان هناك ملحقا عسكريا في سفارة ...

لم تشأ البرنسيس أن أعود إلى الجيش التركي برتبة يوزباشي ضابط أركان حرب، لأن الأحوال في تركيا كانت مضطربة، والفتن والثورات منتشرة في ألبانيا وفي أملاك الدولة العليا في البلقان، فلجأت إلى مسعى جديد يجعلني بعيدا عن ذلك الجو المضطرب، فوصل كتاب من الأستانة إلى وزارة الحرب في باريس يرجو منها قبولي في الفرق الفرنسية الأجنبية لاستكمال المران بها لمدة عام واحد.

قضيت ثلاثة أعوام في دراسة الهندسة العسكري وفنون الاستحكامات، وكنت أقصد في بعض الأوقات الفراغ إلى جامعة باريس لأسمع محاضرات في الأدب كأمر البرنسيس.

وكان اهتمام تلك السيدة بي يزيد في كل وقت، فأقضي إلى جانبها كل أيام العطلة والأعياد، وأمضي الليالي في سهرات في بيوت أصدقائها فأجد فيها صنوفا من النساء ذوات الحسن والفتنة ومن الفتيات ذوات الجمال والجاذبي، فاستأنس الحيوان ، وتحول من آدمي بدائي إلى إنسان له تمدن وثقافة وذوق في الوزن والاختيار.

كنت أظن في أول الأمر أن عناية البرنسس بي ونشاطها لمعاونتي ولتكويني بباعث الرحمة والإنسانية وحدهما، ولبثت على هذا الاعتقاد أكثر من عام، فكنت أحترم تلك المحسنة الكريمة إلى حد الإجلال لأن لها كل الفضل في تكويني على صورة جديدة بعيدة كل البعد عن وصف الذين نشأت معهم أو بينهم.

وبدأ ذلك الظن يتحول منذ قبلتني الأميرة على مائدتها وفي سهراتها، كانت لها تصرفات تشعرني بأنها أكثر من عطف بريء، وكنت أعلل ذلك تحت تأثير احترامي لها تعليلا بعيدا عن سوء الظن.

كنا في حفلة ساهرة في قصر أرملة من الطبقة الراقية، وكنت في ثوبي العسكري واضح الشباب والقوة، فاجتمعت لي أسباب مميزة تنشط الغربة في مزاملتي؛ فرفضت مرات؛ وتجاوزت في شرب الخمر حد احتمال العقل، ولست أدري كيف انصرفت عقب انتهاء السهرة من تلك الدار؛ لأنني استيقظت في الصباح فوجدت نفسي في غرفة نوم البرنسيس ..

انكشف الستر السميك عن الباعث الحقيقي الذي دفع المرأة إلى الاهتمام بشاب فقير لتعليمه وتهذيبه وتكوينه في صورة تناسب مدنيتها وثقافتها وذوقها وتقاليدها، لترتاح لصفاته كما ارتاحت من قبل لشبابه وفتوته.

اعتمدت الراقصة (ن) على الأنوثة والخلاعة لامتلاك كتائب من الشبان ارتاحت

نفسها للحصول عليهم .. واعتمدت هذه الأميرة على العقل والصبر والمال والحيلة لتملك شابا واحدا رغبت في الحصول عليه.

هدف المرأتين واحد: هو الرغبة في الامتلاك، والباعث واحد: هو الارتياح والاشتهاء، إنما تنوعت الوسائل بسبب اختلاف العقليتين والمدنيتين والثروتين.

يدفع كل إنسان ثمن ما يرغب فيه، لا بنسبة ما تساويه قيمته الذاتية، إنما بنسبة مقدار الرغبة فيه والإصرار على تحقيق هذه الرغبة، وتصدق هذه النظرية في تحديد أثمان شراء المعادن النفيسة، والجارة الكريمة، والحيوان، والإنسان أيضا.

وبقدر قوة الرغبة في السلعة المختارة يكون مقدار المعزة والعناية بالاحتفاظ بها سليمة، ولهذا السبب نشطت الأميرة لإبعادي عن جو الأستانة المضطرب، بعيدا عن مواطن الفتن والثورات وعمليات الجيوش للقمع.

كان إذن الدافع المفرد للاحتفاظ بسلامتي هو حب الذات لا الحرص على حياتي، ولكنني كنت في طور الشباب ينقصني العقل الناضج والوزن الصحيح للبواعث، فكنت أنسب جميع التصرفات لأسباب إنسانية وبتأثير العطف البريء والرحمة واعتياد فعل الخير، فصرت ككل مملوك بالشراء أحترم المالكة، وأجلها وأجزل الشكر وأبيت لها الإخلاص والرغبة في الاحتفاظ بالمعروف.

أدركت من تلك الليلة المشؤمة نوع رغبتها فلم أتردد في الخضوع والطاعة، في حياء في بادئ الأمر ثم في جرأة المعتاد الراغب في الإرضاء.

الفرقة الأجنبية

حشرت حشرا في الفرقة الأجنبية الفرنسية في قسك أركان الحرب برتبة يوزباشي، وكانت القيادة للأميرالاي جورو، ومكثت في باريس شهورا ثم قضي العمل بانتقالي إلى الجزائر والخدمة في ثغري وهدان وبلفيل، ثم في قرى في أعماق الصحراء في تواب بالقرب من عين صالح وإلى الشمال منها، وفي غابات وسط الصحراء الكبرى، ثم في غدامس بالقرب من حدود تونس الغربية الجنوبية.

وكانت الحياة في المعسكرات كمثلها في جميع مراكز الجيوش، إنما كان للجنود والضباط سهرات خاصة للتسلية خارج المعسكرات أو للتلهي إطاعة للغريزة، وبعض هذه الأماكن الخاصة لإفرنجيات وبعضها لأهل البلد، كما كان الحال في مصر في زمان ازدحامها بالجيوش الأجنبية.

حادث واحد بقي في الذاكرة لسبب غرابته.

قامت ثورة من سكان الجزائر غير المتحضرين بسبب شدة الضغط عليهم والقسوة التي ترهقهم، وانضم إلى الثائرين ضابط مصري أظن أن اسمه مُحَمَّد زكي ولكنني نسيت لقبه الأخير بسبب طول الزمن وضعف الذاكرة في الشيخوخة.

ووقع ذلك الضابط في الأسر، وأسرى الثائرين وصفهم أنهم من المتمردين فليست لهم مميزات أسرى الحرب من النظاميين، فوضع هذا المنكود الحظ في طابية في ثغر وهدان أثناء وجودي بها.كان شابا دمث الأخلاق له فتوة ومظاهر القوة، وكان وديعا حلو الحديث ترتاح له النفوس وتطمئن، فمتع بشيء من الحرية في التريض.وكان لقومندان الطابية ابنة تدعى بلانش جميلة رشيقة ذات جاذبية قوية، فصادفت الضابط المصري فنال حظوة عندها فكررت مقابلته والتحدث إليه، ثم وصل الأمر إلى تجاذب الروحين وارتياح الفؤادين واندلاع لهيب الشوقين في الخفاء ..

وحدثت مفاجأة ضجة في الطابية في صباح أحد الأيام، اكتشف القومندان غياب ابنته من غرفة نومها، وذاع في الوقت نفسه هروب الضابط المصري، وعجز التحقيق عن معرفة وسيلة هروب الفتاة مع الضابط، إنما ثبت أنه هروب بالاتفاق المبيت، لأن الهاربة أخذت معها ما تملكه من المجوهرات القليلة وبعض الثياب الداخلية.

أعلن الهروب بكل وسائل الإعلان، وبلغت به جميع الحدود القريبة والبعيدة، وانطلقت عدة قوات صغيرة لاقتفاء الأثر والبحث في المدينة والضواحي، فضاع أثر الهاربين وانقطعت عنهما الأخبار.

ومن محاسن الصدف أنني صادفت مرة ثانية ذلك الهارب بالغنيمة، لا في الجزائر ولا في الصحراء إنما في مدينة الفيوم سنة ١٩٢٠، كان موظفا هناك.وعلمت منه أنه اقترن بالفتاة وأنجب منها صغيرات، وأنها كتبت لعائلتها بعد أعوام من استقرارها في الحياة الزوجية، ولكن أهلها أنكروها ولم يرسلوا الإجابة على كتابها.وأشهد صادقا أن ذلك الرجل صدق في حبه زوجه، وقدر صنيعها معه حق التقدير فعوضها بحنانه ورعايته ومحبته وإخلاصه فوق ما كانت تغمر به في بيت والدها من العطف والرعاية والحنان.

وصادفته مرة ثالثة في المنيا كهلا محطما ظريفا، وبقى هناك حتى بلغ سن المعاش فانتقل إلى الإسكندرية واستغل مكافأته في عمل تجاري، وسمعت بعد ذلك أنه زوج ابنته الكبرى لضابط مصري من ضباط خفر السواحل أو قسم الحدود.

من صفات الفرنسي المستعمر الصلف والغطرسة والاستبداد بصورة لا يخفيها بل يعلن أنها القاعدة التي يجب أن تتبع في جميع الحالات، وأساس سيادته أين حل: سيد وعبد، وأمر وطاعة.

فالفرنسي مكروه في كل مستعمرة ومن كل الذين يعيش معهم ما عدا أهل السنغال لأنهم عبيد نسلوا من الرقيق المحرر، لهم ذل العبيد وطاعتهم، فلا تردد في الخضوع ولا اعتراض هناك إطلاقا على أي تصرف، ولهذا السبب تجد النظام العسكري الشديد ينفذ بسهولة في الجنود السنغاليين، وترى هؤلاء يخلصون لأسيادهم.

ويؤثر الفرنسي السنغالي على غيره من أهالي المستعمرات الأخرى، ويعتمد عليه في عمليات السحق التي يلجأ إليها الفرنسيون سراعا في مستعمراتهم أو في البلاد التي انتدبوا للوصاية عليها، وأقرب الحوادث للذهن استخدام فرنسا المحررة هؤلاء الوحوش في حوادث سوريا ولبنان الأخيرة.

وكذلك يتعالى الضابط الفرنسي على الأجنبي الذي يزامل في علمه في الفرق الأجنبية، ولو كان أرقى منه بصفاته وبدرجته العسكرية، ولو اندفعت بتأثير مزاجي العصبي تحت تأثير ما يخلقه الضابط الفرنسي الزميل من أسباب المشاكل لطردت من الخدمة في ذلك الجيش.

كنت المصري المفرد في تلك الفرقة، وكان عملي في مكتب خاص من مكاتب القيادة، ورئيسي المباشر هو الأميرالاي جورو بالذات، وقد احتفظت بالعزلة من أول الأمر لأنها عادة تثبت لي أثناء وجودي في المدرسة الحربية المصرية ثم في البوليتكنيك، فأفدت من هذا الاحتياط الوقاية من المشاكل والمنغصات، لأن الفرنسي لا يطيق رؤية إنسان من غير جنسه يحتفظ بكرامته.

ومن هذا الوصف الموجز يدرك العقل نوع سياسة المستعمر في البلد الذي يتحكم فيه بالقوة، ويعرف الهدف الذي ترمي إليه هذه السياسة.

يدعي كل مستعمر أنه يعمل لتحضير السكان ونقلهم من الفوضى إلى النظام، ومن الهمجية إلى الإنسانية بنشر التعليم وأسباب الحضارة ونظم الحكم العادل، ليمكنهم من الارتقاء ثم من حكم أنفسهم.

والواقع ينقض هذه الدعاوي الكاذبة، ويثبت أن سياسة المستعمر تهدف لهدم كيان الأمة التي تتسلط عليها، فتفسد الأخلاق، وتعاون على نشر الرذائل، وتحول وسائل التعليم إلى عمليات غير منتجة، وتحصر المعرفة في حدود ضيقة، وتسطو على الكرامات فتذلها، وعلى الفكر تقيده، وعلى الحرية تحبسها، وعلى الثروة القومية فتسلبها بشتى الحيل الاقتصادية، فتتحول المستعمرة بهذه الوسائل إلى مزرعة

للمستعمر، ويصير الناس عمالا أذلاء في هذه المستعمرة.

لم تكن لي المعرفة التي تمكنني من وزن الأمور وزنا صحيحا، لأنني كنت في طور الشباب ناقص المعرفة قليل التجارب، فكان نظري قاصرا على رؤية الوقائع المحدودة والتصرفات الفردية، وأنواع الغطرسة والقسوة التي تنصب على الفراد القريبين من نظري.

من طبع الإنسان النفور من الظلم الظاهر ومن القسوة التي لا تبررها أسباب واضحة، وهذا النفور يؤدي إلى الشفقة على المظلوم والمغبون الذي يقع عليه الظلم أو تسحقه القسوة، فلهذا السبب كنت أعطف على الوطنيين حيث حللت لا بباعث ما يسمى الإنسانية إنما بتأثير الطبع.

لست أنسى يوما رأيت فيه فريقا من رجال البادية يساقون إلى السجن بين جماعة من الفرسان وخلفهم الجاويش هاشم على جواده في مظهر غازي فاز في المعركة.

ورأيت المأسورين في حبال طويلة وضعت في أعناقهم في شكل خية رخوة لا تضايق العنق، فاستخففت بهذه القيود التي يسهل التخلص منها. ولما حانت لي فرصة الخلوة بالجاويش في المساء أبديت له هذه الملاحظة فضحك من سذاجتي، ودفعه الغرور إلى التحدث عن الخية وعن خطرها العظيم الذي لم أفطن إليه.

قال عن الخية الرخوة حول العنق إنها مشنقة بالمعنى الكامل، ويكفي أن يسقط رجل من الجماعة أثناء سيرهم في الطريق فيشنق نفسه، وسقوط جسمه يشد الحبل فيشنق في الوقت نفسه واحدا أو أكثر من الذين أمامه أو الذين خلفه؛ وتستكر عملية الخنق إذا لم يسرع الحراس لمنع ضغط الحبل المشدود عن الأعناق.

وقال الرجل إنهم من البادية مر بهم ضابط فرنسي "ذكر اسمه" فداعب فتاة من بناتهم فصرخت تستغيث بأهلها؛ فهرعوا إليها وأهانوا الضابط واعتدوا عليه فلجأ إلى الهروب لإنقاذ حياته.ولما عاد الضابط اختارني من بين زملائه لوثوقه من بسالتي ومن سعة حيلتي ودلني على المكان الذي به خيام تلك الجماعة من البدو؛ فاخترت عددا

من الجنود أثق بهم وقصدت تلك الخيام في الصحراء.

فاجأت فريقا منهم مجتمعين في خيمة فترجلت عن الجواد وكذلك فعل أصحابي ودخلنا الخيمة؛ لم نتكلم إنما أطلقنا بنادقنا على الرجال فتولاهم الذعر وانطلقوا هاربين في الصحراء تاركين القتلى والجرحى على الأرض.وسمع النساء صوت إطلاق النار فأسرعن إلى الخيمة ورأين الجثث على الأرض فولولن وصرخن؛ وبدأت المعركة بيننا وبين النساء وسلاحهن الحجارة والزلط الكبير.

وأصابني حجر في كتفي تألمت منه فسللت سيفي وطعنت به امرأة في صدرها فشقه ونفذ من ظهرها؛ ففزع النساء وتفرقن بعيدا عن المكان وصراخهن يزيد؛ ولكننا تمكنا من القبض على ثلاث منهن .. وتظاهرنا بأخذهن معنا في طريق العودة .

ولم يطق الرجال مشهد النساء نسيبهن منهم فعادوا إلينا أذلاء خاضعين لافتداء النساء، فوضعناهم في الحبال كما رأيت وعدنا بهم إلى هنا .. إنما مات بعضهم في الطريق بفعل هذه الخيات، فطرحنا الجثث وقصرنا الحبال، ومضينا في طريقنا بسلام حتى وصلنا إليكم.

وقد اكتفيت بذكر ما سمعت من الجاويش هاشم، ولا أزيد شيئا للتعليق على هذا الحادث الذي يتكرر كثير من نوعه طول زمان خضوع شمال أفريقيا للمستعمرين .. إنما أزيد عليه وصف الجاويش هاشم بطل هذه المأساة.نشأ نشأة شيطانية، كان نشالا وهو صبي، ولصا وهو شاب، وقاطع طريق وهو بين الشباب والرجولة، وسجينا بعد ذلك، ثم انتقل إلى تركيا وخدم جنديا في الجيش، وهرب منه إلى الجزائر والتحق بالفرقة الأجنبية هناك. وقد كونت له تجارب الماضي الطويل قدرة على شق طريقه في الحياة، وعلى إرضاء ضابطه بالإخلاص له والتفاني في خدمة أغراضه، فاطمأن له وعاونه على الارتقاء، فصار من أقسى آلات المستعمرين في التعذيب والتنكيل بكل من يسلط عليهم.

في باريس

قضيت عاما في الجزائر لم آنس فيه بفرنسي واحد سوى الجنرال جورو، كان يعتقد أنني ضابط عسكري بالمعنى الكامل أؤدي الواجب بدقة كما هو مفروض علي، وكان يرتاح لملاحظاتي الفنية في المناقشات التي تحدث بين الضباط الكبار، وكنت أخرج من هذه الجلسات وأنا على يقين من أنني مكروه ومنفور مني بسبب اعتراضي على كل رأي لا يقره العقل والمنطق ولو كان هذا الرأي لأكبر ضابط في الفرقة.

وفي عصر أحد الأيام خرج الجنرال من مكتبه وأنا معه، وحييته لأنصرف فطلب مني أن أتبعه فسرت في أثره حتى وصلنا إلى حقل منبسط مزروع، فاستند على عكاز ذي شعبتين يركز بينهما ساعده ويتكئ فيستريح، ثم أسر إلي بأنني رقيت وصدر الأمر بنقلي إلى المكتب الثاني بوزارة الحرب بباريس، وهنأني على هذه الخطوة لأنها فاتحة مستقبل زاهر ..

وقال لي: ليس من الميسور قبول كل إنسان بين موظفي هذا المكتب لأن جميع أعماله من أخطر أسرار وزارة الحرب. وقد حدث الاعتراض على اختيارك لهذا المكتب لأنك أجنبي لا فرنسي .. وكانت إجابتي على هذا الاعتراض: إن الدولة تختار الجواسيس الصالحين للعمل من شتى الأجناس إذا وجدت الأسباب التي تحمل على الثقة بهم، والذي يزكى هذا الضابط لقبوله بذلك المكتب هو ثقتي به بعد الاختبار.

وأمرني بالاستعداد للسفر على أول باخرة تعود لمرسيليا، وأخرج من جيبه غلافا مختوما لي وقال:

"عند وصولك إلى وزارة الحرب تقدم نفسك لمدير المكتب وتسلمه هذا الخطاب."

شكرت الجنرال على حسن ظنه بي وعلى رغبته في معاونتي، ولم أعترض على نقلي إلى باريس لأنني رغم عطفه علي كنت متذمرا من وجودي بين ضباط تلك الفرقة الفرنسيين بسبب الغرور الذي يحملهم على الصلف والغطرسة وعلى ازدراء كل أجنبي كيف تكون صفاته وأخلاقه.

وكنت قوي الرغبة في مفارقة أولئك المتغطرسين فأعددت نفسي للسفر، وودعت الجنرال وحده، ورحلت إلى مرسيليا، ومنها ركبت القطار إلى باريس فعدت طبعا إلى دار البرنسيس وهو المأوى المفروض علي اللجوء إليه.وعلمت من الأميرة أنها هي التي سعت بواسطة بعض أصدقائها لنقلي إلي المكتب الثاني بوزارة الحرب لأعيش إلى جانبها بباريس ..، فشكرتها طبعا على اهتمامها بأمري ودللت على إخلاصي لها بالإطاعة وتنفيذ كل رغباتها.

لم أكن أعرف إلى هذه اللحظة شيئا عن "المكتب الثاني" التابع لوزارة الحرب وأردت أن أعرف لأكون على بصيرة ولأهيئ نفسي للعمل الجديد، فشرحت لي الأميرة كل ما يختص بهذه الناحية شرحا وافيا كأنها من أركان ذلك المكتب الخطير .

المكتب الثاني

تتكون إدارة التجسس الفرنسية العامة من عدة إدارات فرعية تابعة لوزارات مختلفة، فمنها:

١- المكتب الثاني ... ويتبع مباشرة وزارة الحرب.

٢- المكتب الثاني .. ويتبع وزراه البحرية.

٣- المكتب الخاص .. التابع لوزارة الخارجية.

٤- المكتب الخاص .. التابع لإدارة الأمن العام.

٥- المكتب الخاص ... التابع لوزارة المستعمرات.

وليس يهمنا "في اعترافاتي" سوى عملي في المكتب الثاني التابع لوزارة الحرب، إنما يستلمح هنا ذكر كلمة عن التجسس والجاسوسية للفت النظر إلى هذه الناحية لأنها مجهولة من المدنيين، ومعرفتهم لا تصل إلى ما يذكر من حوادث التجسس إذا نشرت في الصحف بإيجاز لا يزيد في المعرفة.

خطورة التجسس

الحروب قديمة، بدأت فروسية وبطولة ثم تحولت مع الزمن إلى صناعة وفن بسبب نشاط العلم لتنويع الأسلحة وللزيادة في قوة فتكها، وبسبب ضخامة الجيوش عند الدول والاضطرار لتنظيم وسائل التعبئة والنقل والتموين والتوجيه.وكذلك التجسس بدأ مع تاريخ الحروب القديمة، وارتقى مع ارتقاء العالم والصناعة والفنون، وتسلل إلى جميع أنواع القرى في البر والبحر والهواء، وبلغ بفضل العلم والتجارب والحيلة والابتكار شأنا خطيرا جدا له غرابة المعجزات.

من المستحيل أن تدوم حرب إلى الأبد لأن لها نهاية مهما طال عمرها، ولكن التجسس حرب ناشبة في الخفاء بين الدول بحالة دائمة، فيها فوز وفشل، ولها قوات كثيرة منتشرة في شتى أنحاء العالم تعمل في صمت، وبقاؤها في عالم الخفاء يجعلها أشد خطرا من القوات الظاهرة.

يمكن بسهولة أو بصعوبة اتقاء بعض أخطار الحرب في الميادين أو في المدن بالوسائل التي أعدها العلم للوقاية، ولكن العلم يعجز عن اتقاء أخطار التجسس لأنها من أعمال قوات خفية، ولأن أسلحتها الخطيرة؛ المال والحيلة والمرأة.

ويزداد نشاط التجسس في زمن الحرب عنه في زمن السلم فتبدع العقول الجبارة أعجب الحيل وأغرب الوسائل لسرقة الأسرار، وقد تمكن الجيش من الانتصار في مرات كثيرة بفضل الاهتداء إلى أسرار العدو.

ولإدارة التجسس في كل دولة نفوذ غير محدود تقف دونه جميع السطات المدنية والعسكرية، ولها نفقات كبيرة جدا لا يجوز أن تحصر في الميزانية في حدود أرقام مفروضة، ولهذه الإدارة وسائلها الخاصة في المكافأة والمعاقبة أيضا، فلا تتقيد بنصوص القوانين ولا بالإنسانية إنما توزن بمصلحة العمل وحده.

يعتمد الإنسان على العين للرؤية، وعين كل دولة هي إدارة التجسس لأنها تيسر للساسة الإبصار والعرفة وأسباب التبصر، وهي التي تمكن رجال العسكرية من وزن الطاقة وتقديره وإدراك النتائج. والتحدث عن التجسس وذكر بعض الحوادث لا يؤدي إلى فضح أسراره، لأن الأهداف تتغير مع الزمن والظروف ومقتضيات الحال فتتجدد تبعا لها الوسائل المختارة لتحقيق الأغراض، وكل جديد يبقى سرا دفينا في إدارة التجسس حتى تكشفه الحوادث بعد وقوعها فلا تعود سرا تخشى عليه من إذاعته.

يسير الزمن في شوطه الطويل غير المتناهي، والعلم يجد لزيادة المعرفة، والسياسة تتبدل بتحول المصالح والأغراض، والاتجاهات الدولية تتغير وفاق الظروف، ولكن التجسس يبقى على الدوام ضرورة لازمة في كل زمان ومكان وعليه تعتمد السياسة العسكرية على الدوام.

يطالع الناس في الصحف أنباء الحوادث والطوارئ الهامة مشفوعة بأسماء أقطاب السياسة فيتوهمون أن مصائر الخلق في أيدي أولئك المشهورين، والحقيقة أن وراء هؤلاء هائلة خفية في أيديها الخيوط التي تحرك الساسة الظاهرين، فتوجههم لاستبقاء السلام أو لإعلان الحرب وزلزلة العالم بالأهوال التي تنصب على رؤوس الأمم وتبدل حظوظ الشعوب.

قتل رافا باك هنري الرابع ملك فرنسا بطعنة خنجر، والتي سلحت ذلك السفاح ودفعته لارتكاب الجريمة هي الآنسة دي تيليت جاسوسة ماري تيريز .. قضت ستة شهور تؤثر في عاطفة الفتى وعقله حتى طغى سلطانها على جميع مشاعره فخضع لها وحقق رغبتها، فتلك اليد الخفية هي التي قتلت نفسين وخلعت ملكا عظيما من عرشه وألقته جثة في بطن الأرض.

وفي كل زمان ومان شخصيات مختبئة وراء الملوك والوزراء من نوع الآنسة دي تيليت، هي التي تثب في الفرص السانحة فتترك على صفحات التاريخ آثارا خالدة دموية ..

عاش الجواسيس في الماضي في الخفاء، وكذلك يفعلون في الحاضر والمستقبل فلا تهتدي العيون إليهم، لأن الخفاء هو الجو الذي يصلح للتجسس والضمان للسلامة والنجاح في العمل.

المكتب الثاني

لهذا المكتب بناء خاص في الزاوية القائمة على شارعي سان جرمين والأنيفرسيتيه، وله مدخل خاص عليه حرس متنبه، وكل زائر يلتمس الدخول يفحص أمره فحصا دقيقا ثم ينقل تحت الحراسة إلى غرفة انتظار تغلق عليه إلى أن يتم الفصل في موضوع الزيارة بالقبول أو الرفض.ولكل خزانة من خزائن هذا المكتب مفتاحان يكون أحدهما مع الموظف المختص والثاني مع رئيس القسم التابع له هذا الضابط، ولا يجوز فتح الخزانة إلا بعد معرفة السبب وإقرار العمل من الرئيس.

وكل من يخطر بباله اللجوء لهذا المكتب لعرض أي نوع من الخدمة يوضع في غرفة خاصة وتراقب حركاته بدون أن يشعر بواسطة المرايا العاكسة، فإذا تيسر الاطمئنان له وزال الشك في أمره يؤذن له بعرض ما جاء من أجله، ثم يشيع على الدوام لعبارة لمألوفة: سنفحص الأمر.

وإذا رغبت الإدارة في الاتصال بأحد الناس تكون المقابلة بعيدة عن المكتب في مطعم أو مقهى أو فندق أو في حديقة عامة.

وفي هذه الإدارة قسم خاص للاستعلام على رأسه ضابط كبير، يتناول عمله البحث عن القوات العسكرية في جميع أنحاء العالم، وفحص جميع الصحف والمجلات والكتب والخرائط، وتحفظ بهذا القسم جميع المعلومات الخاصة بالأسلحة ومصانعها، وتعبئة الجيوش، وبالحالة الاقتصادية في الدول الصديقة المعادية.

وترسل لهذا القسم تقارير عن المناورات العسكرية في كل دولة مع الملاحظات الفنية عليها، وعن كل ما يجد على نظم التعبئة والتموين والنقل وعن طرق المواصلات والجسور والمخابئ، وعن الحالات النفسية في الأمم وجيوشها.وتستعين الإدارة للحصول على هذه الأنباء ببعض موظفيها وبالملحق العسكري في كل سفارة للدولة، ثم بضباط

البعثات العسكرية والمدرسين ورجال الصحافة.

وتختار أيضا أفرادا غير موظفين تدفع لهم مكافآت عن الأعمال الناجحة، وتنتخب هؤلاء الجواسيس غالبا من المسجونين المفرج عنهم، ومن المشتبه في سلوكهم، ومن أبناء البيوت الكبيرة المفلسين، ثم من النساء الجميلات، فهؤلاء يرغبن في الكسب من التجسس باعتباره مورد كسب كالإيجار بالحسن والدلال والجمال: بضاعة المرأة.

الحبر السري

تستدعي عملية اتصال المكتب بالجواسيس اللجوء إلى وسائل سرية للمراسلة وتلقي الأخبار التي تم الوصول إليها، ومن هذه الوسائل الكتابة بنوع من الحبر يزول أثره الظاهر بعد جفافه ثم يظهر ثانيا بعد معالجته بمواد كيميائية خاصة.

واللبن والبيرة وعصير العنب والبصل والكريز يزول أثرها من الورق بعد الكتابة بمداد منها، ثم يظهر بتعريضها لحرارة قوية أو برشها بمسحوق ناعم من الفحم أو من الأزرق البروسي، فيظهر المداد المتخذ من اللبن في لون أسمر، والمتخذ من عصير العنب في لون أخضر.

والحبر السري المركب من حامض الكلوردريك وحامض النتريك يظهر أصفر اللون بعد تعريضه للحرارة، ويزول هذا الأثر شيئا فشيئا بزوال تأثير الحرارة التي سلطت عليه.

ويظهر الحبر المركب من نترات الكوبالت ونترات النيكل بعد تعريضه للحرارة في لون أخضر.ويمكن الحصول على حبر سري من أملاح الكوبالت وأسيتات أو سلفات الكلورور، وجميع هذه الأنواع معروفة فليست لها قيمة في أعمال التجسس، لأن لكل مكتب في كل دولة أنواعا أخرى من الحبر السري تجهل الدول الأخرى المواد التي يتركب منها.

وقد أوجد علم الكيمياء مركبات كثيرة لها قيمتها الفنية لأنها لا تظهر إلا في حمامات سوائل كيميائية خاصة لكل نوع من المركبات السرية هي التي تحدث التفاعل والظهور، كالحالة المتبعة في إظهار الصور الشمسية.

ومن هذه الأنواع الحبر المركب من سائل كلورات الصودا أو الأنتيموان فإنه يذوب في حامض الكلوردريك ثم يضاف إليه حامض النتريك، ولا يمكن ظهور هذا الحبر إلا بمسح الورقة بزاج من كبريتات النحاس، وتستعمل في هذه العملية قطعة من القطن بدلا من الإسفنج.

ومن الضروري الكتابة بريشة أوز بدلا من الريشة المصنوعة من النحاس أو الصلب أو الذهب؛ لأن هذه الريش تترك أثر الضغط عليها فيمكن كشفه بالمنظار المكبر.

والعلم ناشط على الدوام للبحث عن أنواع مجهولة من الحبر السري لتعجيز الجهات الأخرى عن كشف الأسرار، وقد امكن الحصول على حبر إذا كتب به على الورق يتشبع به، فإذا عولج بأية مادة كيميائية غير الخاصة بإظهاره يحدث تفاعل آخر يحول الورقة إلى رماد فتزول من الوجود حاملة معها ما عليها من الأسرار.

الشفرة

ترسل الرسائل البرقية أو اللاسلكية بالشفرة على الدوام، وهي حروف أبجدية وضعت في نظام خاص، فيتعذر معرفة الرسالة إلا بعد ترجمتها بواسطة كتاب الاصطلاح الخاص بها، وفي كل مكتب من إدارات التجسس قسم خاص لوضع الشفرة وللبحث عن أسرار الشفرة في الدول الأخرى، ومن الزيادة في الحرص أن تكتب الرسائل التي ترسل إلى أية جهة بشفرة خاصة بهذه الجهة وحدها لغاير غيرها كل المغايرة.

فمثلا توجد شفرة خاصة:

١- للمكاتبات بين الوزير وأعضاء المجلس الأعلى للحرب، وقواد الفرق والملحقين العسكريين في السفارات، ومحافظي المواقع الهامة.

٢- شفرة لرؤساء الفرق الصغيرة.

٣- شفرة لبقية المراسلات العادية بين الرئاسة ومكاتب الفرق في الجيش.

وقد أوجدت الصناعة آلة في حجم البيانو الصغير تنظم حروفها بصورة خاصة سرية، ثم يكتب بها كالآلة الكاتبة، فتظهر العبارات بلغة شفرة خاصة وتترجم في الجهة المرسلة إليها بآلة من هذا النوع رتبت حروفها على هذا النظام نفسه في وضع معكوس.

توفر هذه العملية الوقت والأيدي العاملة مع التحصن من الخطأ في الترجمة، ولكنهم عدلوا عن الاعتماد على هذه الآلة لأسباب فنية، منها سهولة كشف أسرارها لأنها أكثر حصانة. وليس من السهل وضع شفرة ولا ترجمة أخرى غريبة، ويقضي الخبراء الفنيون أعواما طويلة في العمل والمران قبل البلوغ إلى الحد الطلوب للإجادة في تأدية هذا العمل الدقيق المعقد.

لقد تمكن العلم الآن حتى من اقتناص الرسائل اللاسلكية المرسلة على أجنحة الأثير، ثم تبذل مجهودات جبارة للتمكن من ترجمة شفرة الرسالة لمعرفة أسرارها، والخبراء

الذين يناط بهم هذا العمل الصعب يجب أن تكون لهم معرفة تامة بعدة لغات أجنبية، لأن الشفرة الحرفية مأخوذة من حروف اللغة.

والتخصص في ترجمة الشفرة علم وفن، والذي يتوصل لترجمة شفرة معينة يتمكن بعد ذلك من وضع كتاب الشفرة السرية الكامل للدولة التي سرقت منها رسالتها اللاسلكية.

وفي كل إدارة من مكاتب التجسس جداول تبين نسبة استعمال كل حرف من كل لغة بالنسبة إلى استعمال غيره من الحروف، فيستعان بهذه النسبة العددية عند محاولة الترجمة، ويقابل هذا الاجتهاد عقول أخرى جبارة في كل دولة تحاول بمختلف الحيل استبدال الحروف في اللغة بأخرى بصورة تضمن تعجيز جداول النسبية عن الإفادة في الترجمة، وقد توضع شفرة أولية ثم تترجم إلى شفرة ثانية جديدة زيادة في التعقيد للتعجيز، فتعجز الجداول عجزا تاما عن تأدية الغرض منها.

ومن هذا الشرح الموجز يدرك الإنسان مقدار الجهود التي تبذل في إدارة التجسس لترجمة شفرة سرية مسروقة من دولة أخرى، ويدرك أيضا مقدار العناية التي يلجأ إليها الفنيون لتحصين أسرار الشفرة من المساعي التي تبذل لترجمتها.

في المكتب

ذهبت إلى المكتب الثاني ومررت بغرفة الانتظار والفحص، ثم أذن لي بمقابلة الرئيس: الكولونيل سيكست، وقدمت له الخطاب المرسل إليه من الجنرال جورو فتمهل في قراءته ثم دق الجرس، فلباه ضابط كبير يدعى الكولونيل ليفلو فسلمني إليه ليدربني على العمل الجديد في القسم الذي يتولى رئاسته.

وضعت المادة تحت الضغط، وحشر الإنسان في الفرن العالي الحرارة ليتم صهره، وتحركت آلات التفريغ لتنتزع من الإنسان إنسانيته وعاطفته وعقله وحتى غريزته، لتضع مكان العقل العادي غيره يصلح للعمل المختار له، ولتستبدل الإنسانية بالوحشية، والعاطفة بالقسوة، والغريزة التي تتجه لنداء امرأة واحدة بتأثير الجاذبية إلى غريزة حيوانية غير مستقرة تنطلق إلى كل النواحي بدون اختيار.

طال زمن التدريب إلى عام قضيته في مدرسة الشياطين التي يتولى إدارتها الكولونيل ليفلو، والدروس عملية تحت الإشراف الدقيق والضغط العالي من جميع الجوانب، فتحولت إلى آدمي جديد له صفات تخالف جميع صفات البشر وطبائعهم إنما له ميزة واحدة تدل على أنه جرد من الإنسانية، فصرت صالحا للعمل محصنا من مؤثرات العاطفة والشفقة والجاذبية والمال، لأنني صهرت في حرارة أعلى من أي حرارة ستصادفني في الحياة فلا تقوى على التأثير في عاطفتي.

من المتعذر على الموظف في إدارة التجسس معرفة جميع الذين يعملون معه في المكتب الثاني، لأن كثيرا منهم موزعون في شتى أنحاء الأرض وحتى في مدينة باريس نفسها للاصطياد، بعضهم في زي خدم أو طهاة أو سائقي عربات أو موظفين في الفنادق، وبعضهن عاملات في المحلات التجارية أو راقصات أو مغنيات أو ممثلات أو

ممرضات أو وصيفات.

وقد تنكر الكولونيل ليفلو مرة في صورة رئيس خدم المائدة في حفلة عشاء ساهرة في دار سفير الدولة، وتمكن في غفلة من الجميع من التسلل إلى غرفة السفير وسرق من خزانته الخاصة كتاب الشفرة فنقل منه الأبجدية وبعض الاصطلاحات، ثم رده إلى مكانه كما كان فلم يكتشف أحد فعلته، وكافأته إدارة المكتب الثاني بسبب نجاحه ولكن مدير المكتب نصح له بعدم المجازفة بشخصه مرة ثانية في مثل هذه العملية محاذرة من اكتشاف أمره، فتنشأ من فضح شخصيته مسؤولية خطيرة للدولة، وأشار عليه بالاعتماد في هذه الأمور على شخصيات من النكرات ذوات المقدرة والمران الطويل لتتمكن الحكومة من إنكار ما ينسب إليها من الاشتراك مع الفاعل المفضوح.

دربت على تمثيل شاب أخرس لا يسمع ولا يتكلم إلا بأصوات تشبه أصوات ذوي الخرس، وأرغمت على الاحتفاظ بهذه الصفة وقتا طويلا، ثم جمعوني بسيدة هولندية شابة من ذوات الجمال النادر، عرفت أنها زوجة ألماني يملك ضيعة كبيرة في ضاحية ولهلمسهافن، ولكنها في الوقت نفسه من التابعات لإدارة التجسس في المكتب الثاني، وعملها المفرد أنها صندوق ..

والصندوق في اصطلاح التجسس إنسان تودع عنده الرسائل الخاصة بالجواسيس المعروفين منها معرفة تامة، فتسلمهم الرسائل المرسلة إليهم أو تتلقى منهم الرسائل التي يراد إرسالها إلى الإدارة بواسطة الجواسيس عمال البريد، أو يستدرج إنسانا آخر ليتمكن الجاسوس المنتدب من الالتقاء به في ذلك الصندوق.

لفت نظري جمال ولهملين ووداعتها، وارتحت للسفر معها لأكون خادما في بيتها في الضيعة ولو أنني محكوم علي بالخرس، ويكفي المرء ما ترتاح له العين من مشاهدة الجمال والتأثر بفتنته، والبقاء إلى جانب حسناء لخدمتها أفضل من مجاورة عجوز دميمة تنفر العين منها.

حضر زوج هذه الفاتنة إلى باريس لأعمال خاصة بتجارته الواسعة، فعرضت عليه

رغبتها في الحصول على خادم أخرس، فضحك الرجل لغرابة الطلب ولكنه لم يرفضه، وهذه عادة كل كهل يقترن بشابة لأنه يحاول استرضاءها بجميع الوسائل الممكنة عسى أن يعوضها مما حرمت منه من بواعث اختيار المرأة الشباب.

وأشارت عليه التحدث بالتليفون مع المكاتب التي تورد الخدم ففعل، ولكن المطلوب كان نادرا في تلك المكاتب فلم تلب الطلب مدى شهر كامل حتى كادت تنتهي أيام الزوج في فرنسا ويحين موعد عودته إلى ضيعته في ألمانيا.

وألحت عليه الزوجة الحسناء للبحث عن الخادم، وكرر الرجل توصية المكاتب مرات مع الوعد بمكافأة كبيرة لمن يتمكن من استحضار الخادم الأخرس.

وحضر إلى الفندق أحد أصحاب المكاتب وقابل الزوج ونبأه بوجود خادم من هذا النوع في ليون ولكنه يعمل في بيت أرملة عجوز من ذات الثروة، وذكر له أن في الاستطاعة إغراء الخادم بترك مكان عمله إذا وجدت المغريات.

واشتركت ولهلمين في الرأي وسخت المغريات وبنفقات سفر صاحب المكتب إلى ليون لإغواء الخادم ولإحضاره معه. ونفذ الرجل رغبة السيدة السخية وسافر إلى ليون وعاد بالخادم الأخرس.

وفحص الزوج أوراق الشخصية والشهادات التي يحملها الخادم للدلالة على أمانته فاطمأن لها وقبل الأخرس ليخدم في بيته، ثم رحلنا إلى ولهلمسهافن ووصلنا إلى الضيعة وبدأت أعمل كخادم خاص للحسناء الفاتنة.

بذلت الجهد في الخدمة لأنال رضا سيدتي بتأثير ارتياحي لجمالها لا بدافع الأمانة في تأدية عملي كجاسوس ينتظر الفرص لانتهازها ولتأدية الواجب المطلوب منه.

ولم تعن ولهملين بإدراك ما في نفسي من الشوق والرغبة، لأنها لم تكن معي امرأة لها شعور إنما آلة تنفذ ما صنعت له لا أكثر. فحملت هذا التغافل على حرماني من لساني الذي يعبر عما في نفسي، وعلى قلة ما وهبتني الطبيعة من مغريات المرأة الحسناء، فاكتفيت بما عين لي من الخدمة وبالحسرة المستمرة.

وزاد في المنغصات أن ولهملين كانت تستقبل في بيتها بعض ضباط الحامية الموجودة في ولهلمسهافن، ومنهم القائد، كان برتبة قائد فرقة بلغ الحلقة الخامسة من العمر ولكنه احتفظ بالصحة والعافية وبشباب القلب ونشاط العاطفة وبالرغبة القوية في غزو أفئدة النساء.

وكانت ولهملين شغفة باستقباله وتعني بإكرامه باهتمام واضح لم يغب عن عين الرجل، فعلل الأسباب كما شاء الغرور، وشجعته وداعة الحسناء على الطمع بأكثر من الإكرام، وقد لاحظت أن الزوج يشترك مع زوجه في الحفاوة بالقائد أثناء الزيارات المتقطعة وتحترمه أجل الاحترام، كما لاحظت أن هذه الزيارات تكثر أثناء غياب زوج ولهملين في أعماله التي تستدعي الشفر.

لعبت المرأة دورها مع القائد العسكري بمهارة صائدة الرجال المحترفة، كانت تظهر الارتياح لحديثه ومجاملاته، وتلين بتأثير عباراته ليتوهم أنه بالغ إلى الفوز فيزيد شوقه ويقوى طمعه، ولكنها أيضا كانت تحسن التصرف لوقف الاجتراء عند حد معين.

وكانت تسر بزيارات الضباط من الشباب وتنشط نشاطا صادقا في الترفيه عنهم بلعب التنس أو التريض في الحديقة الفسيحة أو بتوقيعها على البيانو، فيقضي الجميع وقت الزيارة في ائتناس وحبور.

إن موقع الضيعة بالقرب من ذلك المعسكر الحاشد بالضباط كان يغري الجميع بالتعرف بالحسناء صاحبة الأرض والقصر والجمال قوي الجاذبية، وشجعتهم المرأة بأدبها ودلالها وفتنتها على تكرار الزيارات في أوقات الفراغ، وفي نفوس الجميع الشبان حافز للتمتع من قرب بمشاهدة الحسن في مجلس المرأة الجميلة وبسماع حديثها الحلو، وبالتأثر بجاذبيتها القوية.وكنت أمثل دور الخادم الأخرس بمهارة فلا أسمع العبارات الغرامية المستورة التي يختارها القائد لأذن الفاتنة التي وقع في شركها، لم يكن يحترس مني أثناء وجودي لقضاء حاجة لهما لأنه علم من ربة الدار أنني أخرس والأخرس أصم لا يسمع ..

وكانت ولهلمين تأمرني بالإشارة بالمحافظة على جواد الزائر وبالعناية بعلفه إذا كان وقت الزيارة سيطول في يوم الأحد، أو حين تكون الزيارة بسبب دعوة من الزوج لتناول الغداء أو العشاء.

اطمأن لي الضابط الكبير لما أنس مني الاهتمام بجواده والابتهاج بزياراته، فعوضني من شعوري شعورا بالشفقة علي يدل عليهما بالابتسام، وزاد في ارتياحه اهتمامي بالسير وراء الجواد حتى يتجاوز حدود الضيعة ويصل إلى الطريق العام الموصل إلى المعسكر.

يزداد شوق الرجل إلى المرأة التي تستهويه مادام لم يبلغ إليها، ولا يسأم من التدلل والتمنع بل يجدد في عزم بذل الجهود للتمكن من تحقيق الرغبة، وهكذا كان حال ذلك الألماني المتغطرس، زاد ولعه بالمستعصية عليه وتضاعف نشاطه لنيل أمنيته، وكلما حس ارتياحها له وتوددها إليه في ظرف ودلال اشتد طمعه بها وقوي أمله بقرب الوصول إليها، فكان لعبة في يد المرأة.

اطمأن لي كل الاطمئنان حتى صرت أرافقه إلى أول حدود المنطقة المحرمة بعد انصرافه من تناول الشاي في الضيعة، وحمله الولع على استخدامي مرة في حمل كتاب مغلف إلى مولاتي وأشار إلي بالحرص على هذا السر، وكان الكتاب أول مكاشفة بما في نفسه من العاطفة التي كبتها زمنا زاد عن حد الاحتمال.

ولم تنفر الهولندية من هذا الاعتراف لأنها قرأت الكتاب في ارتياح ثم أعطته لي لأطلع عليه، فكانت هذه الوثبة بداية التوفيق في الغرض الذي نتضامن للبلوغ إليه.

لم تجب الخبيثة على كتاب العاشق بالكتابة، وتريثت حتى حضر زوجها ودعاه للغداء في يوم أحد، فلقى منها الحفاوة وغلوا في وسائل التكريم فاطمأن لها أنها لم تنفر من مكاشفته الجريئة، واستمر على عاداته في تكرار الزيارات حتى عرف عند الجميع بأنه صديق هذه الأسرة.

استبقت الحسناء القائد مرة إلى وقت متأخر من الليل ثم أمرتني بمرافقته حتى يصل

إلى مقره.كان المطر رذاذا، فارتدينا أردية المطر ووصلنا إلى باب القلعة سالمين بفضل سر الليل الذي يعرفه، وشق عليه أن أعود وحدي إلى الضيعة بسبب المطر الذي أخذ ينهمر، فدخلت معه القلعة ونمت في القسم الخاص به.

وجرأته هذه الحادثة على الإذن لي بدخول القلعة حين ترسلني مولاتي إليه لأي سبب، وكانت المرأة تخلق هذه الأسباب في أوقات متقطعة، فعرفت في المعسكر وذللت لي العقبات التي تحرم دخول القلعة.ظهر ارتياحي للرجل وابتهاجي بخدمته فزاد عطفه علي، فصرت أكثر من البقاء عنده كلما جد ما يدعو لمقابلته لشأن يختص بمولاتي، ولم يجد الجنود ولا الضباط سببا للنفور مني وألفوا رؤيتي في معسكرهم، كذلك صادقني كلب القائد وارتاح لمداعباتي.

لبثت شهورا على هذه الأمانة حتى اطمأن الجميع، ثم بدأت عملية التجسس المنوطة بي كضابط في المكتب الثاني، وتذكرت مرات لوحة رأيتها في مكتب الكولونيل سيكست مكتوبة عليها هذه العبارة:

"دفع مليون جنيه للحصول على ضابط أركان حرب من الأعداء صفقة رابحة".

كان المفروض علي الحصول على أسرار خاصة بمدافع ثقيلة جديدة، وقد وضعت بعض هذه المدافع في ولهلمسهافن، فلم تكن العملية سهلة بل دقيقة تحتاج لمعرفة أجزاء المدفع، ووزن القذيفة، ومقاييس شتى ثم مدى الرماية.

ودأبت على جمع هذه المعلومات جزءا بعد جزء بعد فترات من الزمن، وكنت أبلغ رئيسي أولا بأول ما حصلت عليه، كانت الكتابة طبعا بالحبر السري وبشفرة خاصة، وكانت ولهلمين صندوق البريد هي التي تتولى تسليم الكتب للجاسوس بالبريد، اغتررت بالنجاح الذي وصلت إليه، وكان هذا الغرور سببا قلل من الاحتياط ويسر لي الاطمئنان فكشفت المصادفة أمري ووقعت في المأزق الحرج، والمأزق الحرج لكل جاسوس هو القبض عليه متلبسا بجريمة التجسس، والعقوبة المعروفة لحالة التلبس هي الإعدام ..

مللت طول الإقامة إلى جانب ولهملين الفاتنة لأنها لم تشعر إطلاقا بأنني شاب مبصر يرى الحين ويشعر بتأثير الفتنة في نفسه، ولم تمكنني حصانتها من التودد إليها كإنسان، فرض عليها أن تقبلني في بيتها خادما أخرس فوضعتني في هذا الوضع ولم تتحول عنه.

وقد غاظني منها هذا الجمود، وزاد في حنقي ما كنت أراه من نشاطها في مجاملة القائد وملاطفته إلى أقصى حدود الإغراء والتشجيع حتى أمامي، كانت تفرض عدم وجودي لأنها تعلم يقينا أنني آلة ليس لها حس ولا شعور ولا غريزة ولا حق في الاشتهاء والرغبة.

وقد عمدت إلى الصبر والاحتمال ما استطعت إلى أن رأيتها في غرفة الاستقبال بين ذراعي القائد مستسلمة للضم والعناق فالتهبت من الغيرة، وغلى دمي من شدة الغيظ، وامتلأ صدري بالغل، فنفذ الصبر وتلاشت قوة الاحتمال، وعزمت على التخلص بسرعة من هذا التعذيب لأنه فوق الطاقة.

يجب أن أتمم عملي إلى النهاية لأتمكن من مبارحة الضيعة والعودة إلى باريس، فأصررت على النشاط للانتهاء بسرعة لا يبررها الحرص، فاندفعت تحت تأثير الولع والغيظ والغيرة اندفاع الأحمق فقد وعيه.

مكثت في القلعة في النهار الثاني وقتا طويلا، وغامرت بدون احتياط فجمعت بقية المطلوب مني، وكانت الرسوم والأرقام كثيرة لا يمكن أن تحتفظ بها الذاكرة كما كنت أفعل من قبل في أخذ البيانات عن جزء واحد من الأجزاء، فرسمت على ورقة وكتبت الأرقام في غفلة من الجميع.

وبينما كنت أطوي الورقة لأخفها هاجمني كلب القائد ليداعبني فخطف الورقة وجرى بها، وركضت خلفه في فزع لأستخلصها منه، فانفتح باب مصادفة وظهر منه ضابط فرأى الورقة في فم الكلب ورآني أجد وراءه، فصوب مسدسه إلى رأسي وصاح بي: ارفع يديك إلى رأسك ..

ما أخطر هذا الأمر الجازم! .. إنه تهديد بالقتل إذا لم ينفذ بسرعة البرق، فرفعت يدي بحركة لا شعورية، فكانت الإطاعة من الأدلة على أنني أسمع، فثبت ثبوتا قاطعا أنني لست أصم ولا أخرس، والنتيجة المنطقية لهذه الفضيحة ثبوت تنكري بهذه الحيلة للتجسس.

صفر الضابط وأنا تحت رحمة المسدس فهرع إليه بعض زملائه خرجوا من حجراتهم وقبضوا علي ورأيت الكلب رابضا على خطوات منا والورقة الخطيرة في فمه، فاستخلصها أحد الضباط وتحقق مما فيها ثم سلمها للضابط الأول، فأمر بنقلي إلى سجن القلعة فألقيت في دهليز الموت ..

أدلة الإثبات ضدي قوية واضحة لا تترك منفذا للشك في الإدانة، وقد تم جمعها بسرعة، وليس في مقدوري ادعاء الخرس والصمم وجهل القراءة والكتابة لأن الدفاع على هذه الصورة عمل صبياني، وفي مقدور المحققين إرغامي على النطق بالتعذيب.

والعقوبة على جريمتي التي اكتشفت في حالة التلبس عقوبتها الإعدام حتما، وليس على ظهر الأرض قوة تستطيع إنقاذي من هذه الورطة، ستتنكرني فرنسا إذا اعترفت بانني أتجسس لها، وستدعي ولهلمين عند سؤالها أنها خدعت وأنها لا تعرف شيئا عن حقيقتي، ولن يكون لدى الاتهام أي دليل يثبت عليها الاشتراك معي في الجريمة، وسينتهي الأمر بإعدامي وبمعاقبة القائد بسبب غفلته التي مكنتني من دخول القلعة والبقاء فيها في حرية بدون الشك في أمري.

ولكن المحقق لا يكتفي بإعدامي إنما يريد أن يسمع اعترافي بكل ما فعلت وبجميع ما حصلت عليه من الأسرار، فأصر على الحصول على هذا الاعتراف، ولجأ إلى شتى الحيل للإغراء ومنها وعود سخية مع العفو عني واستخدامي في مكاتب تجسسهم.

والطمع بالحياة وبالنجاة من الموت المحقق من أقوى المؤثرات في نفس شاب لم يشبع من الحياة ويرغب في البقاء، ولكنني كنت على يقين من الوعود أنها كاذبة، وأنها مجرد وسيلة لمعرفة الأسرار التي وفقت للحصول عليها، وكان اعتقادي الراسخ أن

جريمتي لابد لها من العقاب عليها بالموت.

وما دام الإعدام هو النهاية المحتمة فلماذا أمكن القوم من معرفة ما يريدون، ولماذا لا أموت وتدفن أسراري معي انتقاما منهم؟ أعجبتني هذه الخواطر بعد وزنها فأصررت على عدم الاعتراف.

قلت لمجلس التحقيق: لقد تجسست وتم القبض علي وأنا متلبس بالجريمة، ولا مناص من الجزاء، وكل اعتراف لا يلطف من العقوبة التي أستحقها بسبب ما فعلت وبسبب حماقتي وعدم احترازي من الفضيحة، فافعلوا بي ما تريدون لأنني عاجز عن النجاة وعن الدفاع عن حياتي.

لم ييأس المحقق من حملي على الاعتراف التام، وزارني في السجن أمير من آل هوهنزولرن وأقسم بشرفه أن ألمانيا ستعفر عني وتستخدمني إذا عرفت بكل ما حصلت عليه من الأسرار، وبالدولة التي تجسست لها، وبالوسائل التي اعتمدت عليها لتوصيل رسائلي، ثم بمكان الشفرة التي نتخاطب بها.

لم أصدق يمين الأمير واستنتجت من الاهتمام بالأمر أن المطاولة في التحقيق تحمل عليها الرغبة القوية في معرفة مدى ما عرفت من الأسرار، ثم الحصول على الشفرة، ولماذا أمكن قوما عزموا على قتلي مما يهمهم معرفته مني؟

كان السجن في قاع القلعة، وهو عبارة عن حجرتين في إحداهما باب من قضبان الحديد السميك يوصل للثانية وهي السجن، الأولى يجلس فيها الحارس المسلح ووجهه لباب السجن للسهر على المسجون ولملاحظة جميع حركاته.

والسلم الذي ينزل إلى هذا القاع ينتهي أعلاه بباب من الحديد يوصد من سطح الأرض، ولا يفتتح إلا عند حضور ضابط لاستبدال الحارس بغيره عند انتهاء نوبته، وهذا الوصف البسيط يثبت استحالة الهروب من القبر المحصن.

وقد سئلت ولهملين في التحقيق فذكرت أنها لجأت إلى مكاتب توريد الخدم في باريس وأن أحدهما هو الذي قدمني لها ولزوجها، واعترفت بأنها طلبت خادما أخرس

لأن الخرس والصمم أضمن وسيلة لمنع الخادم من السماع ومن نقل أسرار البيت، وقدمت للمحقق أوراق شخصيتي والشهادات التي كانت معي وكانت سببا في اقتناعها بأنني أمين صالح للخدمة في بيت كبير.

وسئل زوجها الألماني عني فأمن على إجابة زوجته وأكد أنها ذكرت الحقيقة كاملة، وأنها كانت حسنة النية وخالية الذهن من الحيلة التي خدعت بها وضللت الجميع.

وفتشت الضيعة للاهتداء إلى الشفرة أو إلى رسائل خاصة بموضوع التجسس فلم يعثروا على أي شيء لأن ولهملين أحرقت الشفرة التي اعتمدنا عليها كلانا، لم يجد التحقيق ما يثبت اشتراك الحسناء في جريمة التجسس، ولكن عدم وجود الأدلة لم يمنع الشك، كذلك لم يفت تلك المرأة الداهية إدراك ما في نفوس الألمان من ناحيتها.

أحدثت هذه الواقعة زلزالا في الناحية كلها وخاصة في ولهلمسهافن وفي ضيعة ولهملين، وصار الموضوع حديث الناس جميعا، بينما التحقيق يتم في باريس سرا ليتمكن المحقق من الحصول على أي تناقض يمكن من اتهام الهولندية الفاتنة.

وبينما كنت مستغرقا في النوم في إحدى الليالي فوجئت بضابط ألماني شاب ينبهني من نومي فاستيقظت، وأمرني بخلع ثيابي وارتداء ثوب الجندي الذي يتولى حراستي ..

وجدت الرجل ممدودا على أرض الحجرة الخارجية بدون حركة فنظرت إلى الضابط في دهشة، فكرر أمره وزاد عليه كلمة "أسرع" فخلعت ثوبي واستبدلته بثوب الجندي وردائه وحذائه وقبعته.

وحمل الضابط الجندي ووضعه في سريري وأدخله في ثوبي ثم غطاؤه، وأشار علي فتبعته ومعي سلاح المسكين الذين لا أدري أكان مقتولا أم مخدرا. كنت أمشي خلف الضابط بخطوة عسكرية، وكلما مررنا بحارس يرد الضابط على ندائه بكلمة سر الليل فيتركنا نمر حتى وصلنا إلى باب يؤدي إلى البحر فاجتزناه ونزلنا على سلم حتى وصلنا إلى الماء.

كان تحت السلم زورق بخاري وبه سائقه، فركبناه وانطلق بنا إلى الجهة الغربية،

فمررنا على قرقولات خارجية في البحر، فأدركت من عملية الضابط أنه في النوبة ومن واجبه المرور على هذه الأماكن.

وانطلق الزورق إلى الغرب حتى صار على بعد سحيق، وكنا جلوسا خلف السائق وظهره إلينا، ففاجأنا الضابط مفاجأة مزعجة، ثبت فوهة المسدس في مؤخر الرأس وأطلق رصاصة قضت على الجندي في الحال، فتولتني الدهشة وخشيت أن يكون حظي كحظ ذلك المنكود، ولكنني لم أحدث حركة ولا صوتا وتنبهت لنفسي في محاذرة.

جلس القاتل مكان المقتول وأدى عمله بمهارة، فلبثنا في هذه السياحة قريبا من ساعتين، وكان الزورق يقترب من الشاطئ فلاح لنا في الأفق ضوء مصباح يظهر برهة ويغيب أخرى، فقصد الزورق لناحيته حتى كدنا نلمس البر.

وأخذ الضابط من بطن الفلك أثقالا من الحديد لف بها جثة المقتول، ثم ألقاه في البحر ليغوص بأثقاله.

ولما رسونا على البر أمرت بالنزول فنزلت، وخلع الرجل ثيابه وألقاها إلى جانبي ثم أبعد بالزورق إلى خضم البحر، وهناك نسفه بعد الاحتياط لنفسه بالابتعاد عنه قبل حدوث الانفجار، وعاد لناحيتي سابحا.

وبدأ ضوء النهار يعود إلى الكون فمكننا من رؤية الطريق الذي انطلقنا فيه حتى بلغنا كوخا في مزرعة فدخلناه، فزلزلتني المفاجأة الثالثة لأنني رأيت أمامي ولهملين .. رأيتها ترتمي في أحضان الضابط القاتل وتلقي رأسها على كتفه فاحتضنها وغمر فيها بالقبلات.

لم أر هذا الشاب إلا مرات قليلة في الضيعة مع بعض زملائه، ولم ألاحظ إطلاقا حركة تدل على أية علاقة عاطفية بينه وبين الحسناء فاتنة الجميع، وإذا بهما يكشفان فجأة وبدون تهيب حبا طاغيا وولعا بلغ حد الاشتعال.

من المحقق أن اكتشاف هروبي من القلعة وجثة الجندي وغياب ضابط النوبة واختفاء الزورق وسائقه حوادث خطيرة تحدث رجة هناك، وستطلق جماعات من الجنود

ومن الجواسيس في أثري للبحث عني في كل ناحية في البر والبحر، ومن المرجح أن المطاردين سيصلون إلى هذا الكوخ.

سئمت الحياة وأنا في السجن مهدد بالإعدام في كل لحظة، وكنت أتمنى التخلص من الحياة بسرعة بتأثير اليأس واستمرار الفزع من الموت.أما وقد نجوت من السجن ومن عقوبة الإعدام فقد تجدد أملي استبقاء الحياة وعزت علي الروح، فصرت قلقا من بقائي في هذا الكوخ أريد الحصول على ملجأ أعظم منه حصانة وصيانه.

وقد تحقق أملي بسرعة لأن الملجأ الأمين ظهر تحت الكوخ نفسه، نزلنا نحن الثلاثة من فجوة إلى سرداب ثم إلى حجرة فسيحة في جوف الأرض تصلح للبقاء فيها، وخلفنا وراءنا صاحب المزرعة الصغيرة ليزيل من أرض المكان كل أثر يدل على مدخل هذا المخبأ الذي عزلنا عن عالم الأحياء.

أقمنا في هذا القبر الفسيح المنظم أسبوعين لتضليل المطاردين عن الاتجاه الذي سرنا فيه، ثم انتقلنا منه إلى مزرعة أخرى تبعد عن الأولى ١٢ ميلا قطعناها طول الليل، واختبأنا هناك في ملجأ جديد يشبه الأول مخبوء تحت إسطبل.

وفي إحدى الليالي الممطرة خرجنا إلى ظهر الأرض وافترقنا، تسلمني رجل ليرافقني إلى الحدود، وبقيت وهملين مع خليلها وفي عزمهما الهروب من ألمانيا من طريق آخر لا أعرفه، فانقطعت أخبارنا عن بعض مدى تسعة أعوام.

كنت في القاهرة متنكرا باسم الخواجة غالي جرجس وأسكن أوتيل نسيونال بشارع سليمان باشا في الغرفة ٢٣، وكان من عاداتي قضاء بعض السهرة في قاعة البلياردو أو في البار، وكنت أتناول طعامي على الدوام في حجرة خاصة بي في الطابق الأرضي.

وبينما كنت أخل البار في إحدى الليالي فوجئت برؤية وهملين وخليلها الألماني في زاوية المكان يشربان قدحا من الويسكي، عرفتها نحيفة لها روعة الخيال فملأت الهناءة بدنها صحة وعافية، وتشربت نضارة الوجه الصبوح لون الورد.

وخطر لي بسرعة رأي طربت له، عزمت على الرد على المفاجآت التي مرت بي في

سجن القلعة وفي الزورق بمفاجأة مزعجة من نوعها، فدنوت من السائحين وجلست معهما بدون تهيب، وقلت:

- لقد تشرفت القاهرة بزيارة السيدة ولهملين ..

فظهرت آثار الدهشة والخوف على العاشقين، وقطب الرجل جبينه ونظر إلي شرارا، ولكنني لم أبال بهذه النظرة القاسية وقلت:

- يلوح لي أن عيون ألمانيا لم تمتد إلى ضابط النوبة الهارب من ولهلمسهافن!

فبدا الاضطراب واضحا على الوجهين، وظهر الغضب الشديد على الألماني، ولكنه استقوى عليه فأسكته، وسألني:

- من أنت وماذا تريد؟

ورأيت وقف المداعبة عند هذا الحد فقلت:

- أنا الجاسوس الذي أنقذته من السجن.

فنهضت ولهملين وأمسكتني من كتفي في حركة عصبية وقبلتني في جبيني وقالت:

- مفاجأة سارة جدا ..

ونهض الألماني وصافحني مصافحة حارة وقال:

- لست آسفا على ترك وطني ولا على خيانتي، لقد عوضت مما ضحيت أعظم سعادة في الحياة .. لقد مات زوج ولهملين من زمن بعيد فتزوجتها.

اشترك الأثنان في إنقاذ حياتي ببواعث لم أعرفها، ولكنهما جازفا لإنقاذ هذه الحياة فأنا مدين لهما بها، فكان لقاؤنا بعد ذلك الزمن الطويل باعثا على المسرة فقضينا سهرة ممتعة.

قضيت ثلاثة شهور أتنقل من بلد إلى آخر حتى تمكنت من العودة إلى باريس فلم أجد بها مسكني الخاص ولا حاجاتي؛ وعلمت من حارسة الباب أن بعض أقاربي حضروا

مع قومسير البوليس ودفعوا ما علي من الأجرة وأخذوا الحاجات؛ فلم ألح في الاستفهام ولجأت إلى فندق.

قابلت الكولونيل ليفلو في النهار الثاني فسمع قصتي، ثم تركني في حجرة موصده ساعات نقلت بعدها إلى مكتب الرئيس سيكيست فقال لي:

– لقد أسأت التصرف في أول عمل نيط بك، وسبب القبض عليك عدة مشاكل مكدرة، واتهمت فرنسا بأنك كنت تتجسس لحسابها، وظهورك هنا سيؤيد هذا الاتهام، والعمل في هذا المكتب يجب أن يتم في الخفاء وبدون إحداث ضجة، فلهذه الأسباب يتحتم خروجك من الأراضي الفرنسية جميعها، وسيتولى الكولونيل ليفلو تنفيذ هذا القرار.

ودق الجرس الكولونيل ليفلو، فأشار للآخر برأسه إشارة خفيفة، فساقني الرجل إلى السجن الخاص قضيت به أياما قليلة، ثم نقلت تحت حراسة خاصة إلى مرسيليا فوضعوني في قاع باخرة أوصلتني إلى الإسكندرية.

في منزل والدي

كان والدي في ذلك الحين معاون بوليس طوخ وله من زوجته أربعة أولاد صبيتان وصغيران، ولكنني لجأت إلى بيته لأستجم بعد المزعجات التي زلزلت أعصابي وفي نيتي البحث عن أي عمل ارتزق منه.

لم أقابل في ذلك البيت مقابلة تشجيع على البقاء بين أهله، عزلت في غرفة ومنع الأطفال من الاتصال بي، وقاطعني والدي وزوجته مقاطعة تامة، فإذا جاء وقت الطعام يحمله الخادم إلى غرفتي ومعه الخبز وإناء الماء فيضع الجميع على منضدة ويخرج، وإذا ناديته لقضاء حاجة لا يجيب النداء، وهذا التصرف جعلني في وضع لا أجد فيه أحدا أتحدث معه.

وحدث مرات أنني كنت أحتاج لشيء في غياب الخادم في السوق أو للتريض مع الصغار، فأقف على باب الحجرة التي بها زوجة والدي وأطلب هذا الشيء، فلا ترد مباشرة إنما تقول: يا كرسي الصابونة في المطبخ .. وإذا كانت في المطبخ تقول: يا حلة خذي الفوطة من الدولاب ..

لم أعرف سببا لهذه المقاطعة فأدركت أن الباعث عليها عدم ارتياح الزوجين لوجودي معهم في البيت، ولكني لم أتذمر ولم أحقد على أحد، لأن والدي رأى في هذا التصرف وسيلة لإرضاء زوجته، ولأنه هو الذي شجعها على المقاطعة لأتضايق فأرحل من البيت.

وأشهد أن هذه السيدة الأمية كانت تغمر أولادها بحنان عظيم وتعنى بتعليمهم رغم حقارة مرتب زوجها، كانت تقتصد من ذلك المرتب الضئيل لتقضي حاجات الأولاد، ولو تركوا لوالدي لعجزوا جميعا عن إتمام الدراسة.

وقد قابلتها مرات بعد وفاة والدي، فكنت أجثو على الأرض وأقبل يدها باحترام

وأنا في أول العقد السادس من عمري، ولما تكررت هذه العملية مني قالت لي يوما:

– أنت تخجلني بهذا الاحترام يا حافظ! ...

كانت تريد أن تذكرني بالماضي وتصرفاتها معي فيه، فقلت لها:

– أنا لا أحترمك ولا أقبل يدك لأنك زوجة والدي .. إنما أرى أنك تستحقين هذا الاحترام لأنك عنيت بتربية إخوتي تربية كونتهم نافعين ونافعات في المجتمع.

ولكني ألاحظ هنا أن نوع هذه التربية والمقاطعة المستمرة حولاني في نظر هؤلاء الأخوة إلى إنسان غريب عن عائلتهم، فاستمر البعد بيننا والقطعية إلى نهاية حياتي.

ولاحظت أيضا أن هؤلاء الأولاد الذكور والبنات وهم رجلان وست بنات يجتمعون على الدوام حول والدتهم ويقاطعون والدهم الشيخ مع أنه عايش معهم في البيت حتى انتهت حياته، وسبب هذا الجفاء شعور الأولاد جميعا بما كانت تغمرهم به الوالدة من الحنان والشفقة والمعزة فلم يرتاحوا لأحد غيرها.

هذا وصف موجز لبيت هذه الأسرة ولنوع التصرفات فيها معي ومع بعضهم، ولكنني أثناء إقامتي في طوخ كنت مرغما على الاحتمال لأنني بدون عمل وبدون مأوى سوى هذا البيت، وكنت أفرج عن نفسي بعد عصر كل يوم بالجلوس في المقهى المفرد الموجود في هذه القرية وقتذاك، وهناك أطالع ما أجده من الصحف مع بعض الجالسين.

وقرأت مصادفة في إحدى الصحف نبأ عودة الأميرة فيزنسكي إلى القاهرة، فهزني هذا الخبر لأن أخباري انقطعت عنها، منذ رحلت إلى ولهلمسهافن، ولأنها كانت غائبة عن باريس حين عدت إليها ثم أبعدت عن فرنسا كلها.

سررت لظهور الأميرة ثانيا فأخذت من زوجة والدي عشرين قرشا وسافرت إلى القاهرة بدعوى البحث عن عمل، وطرت إلى منزل الأميرة، فأحسنت لقائي وقالت لي:

– دع الماضي فلا فائدة من التحدث عنه، أردت لك رفعة سريعة فعاكستك الظروف، فمن التعقل أن نبدأ الشوط من جديد بعيدا عن حياة الجندية، وفي ميادين

الأعمال الحرة فرص كثيرة يفيد منها من يجيد انتهازها.

وقالت: كل عمل يحتاج إلى رأس مال وسأعاونك بما يحتاج إليه العمل مع إرشادك على الدوام حتى لا تخطئ فتنالك الخسارة.

كنت في حاجة للمأوى فوجدته ومعه العطف والحنان والسخاء والرغبة القوية في توجيهي في الحياة محوط بكل ما يضمن لي النجاح، فنعمت بهذه الحياة وهجرت بيت والدي بدون أسف عليه.

ضاربت في البورصة باسمي وأنا لا أعرف شيئا عن جو المضاربات، ولكنني كنت أوجه فأطيع فأربح ربحا وافرا، وصار لي مكتب لأعمال القومسيون وبه إدارة وموظفون، ونفوذ الأميرة وتوصيتها تزيد في الثقة بي وفي كسبي.

ومرضت الأميرة وأرغمتها الظروف على الإقامة في الإسكندرية في فيلا على شاطئ البحر، فكونت لي بيتا فخما في القاهرة، وكنت أزورها مرة كل أسبوع وأقضي عندها يومين، وكانت إذا حضرت إلى القاهرة لعمل لا تأنف من زيارتي في بيتي المتواضع.

اشتريت عربة وخيلا وصار لي إسطبل، وكونت من الربح رصيدا كبيرا في بعض المصارف، وأسرفت في الإنفاق للتظاهر، وكان من عادة الشبان أبناء الذوات في ذلك العهد التزين بالأحجار الكريمة، فتزينت بالبرلنت والزمرد والياقوت، وجعلت اللؤلؤ بدلا من أزار القميص.

مدارج السفه

لم يكن لي في مصر أصدقاء لأن زملائي في زمن الدراسة العسكرية صاروا ضباطا في الجيش ومقر عملهم السودان، ولأن زملاء الدراسة الثانوية لم تستقر صداقتهم بسبب صغر سني أيام المدرسة.

ولكن المال إذا ظهر في يد إنسان يجذب إليه الأنظار والمطامع، فعرفت رجلين أحدهما موظف في محل تجاري أفرنجي يدعى حسن حلمي، والثاني كان ناظر مدرسة أميرية وفصل من وظيفته فصار مدرسا في مدرسة أهلية اسمه مُحَمَّد ربيع.

كنت أكتفي في بدء هذه الحياة الجديدة بنزهة إلى الهرم في عربتي أو على دوكاري، وبتناول طعام العشاء في مطعم فخم ثم أعود إلى بيتي فأقضي وقتا في المطالعة ثم أنام.

فلما عرفت الصديقين الجديدين كنت أصطحب المدرس في العربة للنزهة، ويرافقني إلى المطعم للعشاء هناك يوافينا حسن حلمي عقب انصرافه من عمله فيشرب ويتناول طعامه معنا، ثم نخرج للسهر.

بدأت هذه السهرات في القهوة المصرية "كافيه إجبسيان" وكان بها فرقة موسيقى وتربة من فتيات ذوات حسن وجمال لا يقل عددهن عن اثنتي عشرة حسناء كن ينثرن في المكان في فترات الراحة، وتجلس كل واحدة إلى جانب من يدعوها فيشرب قدحا واحدا في الجلسة ولا تزيد عليه، وكن تحت رقابة رئيس الفرقة يجئن معه إلى مكان العمل ثم يعدن معه في الليل إلى البيت المستأجر لسكن فرقة البنات، أما الرجال فلهم بيت آخر.

جالست هؤلاء البنات مرات كثيرة فارتاحت نفسي لمجالسة النساء، وأحسست نشاطا يدفعني لمثل هذه المجالس، وشكوت للزميلين من قسوة النظام المتبع في هذه الفرقة لأنه يحول دون رغبة مثلي في جلسة طويلة مع من يختارها من البنات.

واستأت مرة من رئيس الفرقة لأنه أنب فتاة على تأخرها معنا برهة قصيرة بعد ندائها للعمل، فأراد الصديقان تسليتي في غير هذا المكان، فقاداني لأول مرة إلى الألدرادو القديم في حي الأزبكية.وجدت المكان مزدحما برواده وهم خليط من الخلق، هذا يدخن الشيشة وآخر يشرب الخمر، وغيره جالس وسط المكان مع راقصة يسكران في غير تهيب من النقد، ورأيت الراقصات منتشرات بين الجمهور هذه تبحث عن صديق قديم وتلك عن صيد جديد.

ورأيت على المسرح أريكة مستندة إلى الحائط تجلس عليها المغنية وإلى جانبها الراقصة التي عليها النوبة للرقص، وعلى كراسي متجاورة أفراد التخت، ينصت البعض لغناء المغنية وتعلو أصوات البعض في الحديث مع الراقصات الجالسات معهم للمؤانسة.

وكل امرأة من أولئك المستهترات في ثوب فاقع اللون، يغطي صدرها ومرفقيها حلي من الذهب الثقيل، حتى الشعر المرسل إلى الخلف جدائل كانت به حلي من الذهب تسمى خريات ..

مشهد جديد لم أره من قبل ولكل جديد تأثير في العين والنفس، وجاء الخادم فطلبنا خمرا، ومرت بنا راقصة تتمايل تدللا فناداها حسن أفندي فوزتنا بنظرة فاحصة، فرأت في صدري دبوسا من البرلنت وفي يدي خاتما من نوعه فاطمأنت وجلست.

وجاء في أثرها الخادم يسألها عنا تريد أن تشرب فقالت: دستة بيرة .. والدستة ١٢ زجاجة، وكان ثمن الزجاجة خارج قهوة الغناء قرشين، وثمنها في قهاوي الغناء عشرة قروش.

وأحضر الخادم دستة البيرة في قفص من الجريد ذي عيون تثبت في كل عين منها زجاجة واحدة، وضع الرجل القفص عند قدمي الراقصة، وانتزع منه زجاجة صب ما فيها في أقداحنا الثلاثة، ثم حمل قفصه وعاد به، ولكننا سندفع ثمن الدستة كاملة لأنها طلب الست ..

كانت المرأة أمية جاهلة ولكنها ثرثارة تجيد الحديث الفارغ والقهقهة، وتبدي التدلل بحركات واضحة لا صلة بينها وبين الدلال الذي يدل عليه معنى الكلمة، ومنت علي برتبة بك بدون براءة الرتبة، وكانت طول السهرة تكثر من تكرارها أتفضل يا بيه – وعشان خاطري الكاس ده يا بيه – وسيجارة من فضلك يا بيه – وهات ريال بقشيش للجرسون يا بيه – وكمان ريال لخدامي يا بيه ..

وقدح البيرة يشرب في دقائق وخاصة إذا تعجلت الست جماعة الشاربين، فإذا خلت الأقداح تصفق فيحضر الجرسون وتأمر الست بدستة بيرة من جديد، فيحضرها الخادم وتشرب منها زجاجة واحدة كالنظام المتبع مع المغفلين.

شربت قدحا من البيرة الساخنة خجلا من الست أو مجاملة لها؛ ودفعت ثمن الدستة التي أمرت بها الست، ودفعت كل ما طلب مني للبقشيش، وقمنا للانصراف فشيعتنا الراقصة إلى الباب الخارجي حتى تحضر العربة التي طلبناها؛ وكان على مقربة من الباب وفي وسط الشارع الضيق القذر عسكري من البوليس فأسرت المرأة في أذني هذه العبارة:

– من فضلك نص ريال للجاويش .. ده راجل طيب وبكرة يخدمك.

وطلب الست لا يجوز رفضه، فتناولت مني قطعة النقود وأشارت للعسكري فخطا إلينا في كبرياء، وناولته المرأة البقشيش خفية في مصافحة وقالت له: ربنا يطول عمر البيه ..

وجاءت العربة فحملتني إلى البيت وحملت بعدي حسن وربيع إلى داريهما، فانتهت الليلة الأولى في عالم الفساد بهز كتفي استخفافا بكل ما رأيت ومن شاهدت.

الالدرادو الجديد

بدأت السهرة في الليلة التالية في مطعم سانتي داخل حديقة الأزبكية، وزاد مقدار الكونياك الذي سبق العشاء؛ وشربنا نبيذا مع الطعام ثم نهضنا لنبحث عن سهرة جديدة لأنني أظهرت عدم رغبتي في الذهاب إلى الألدرادو القديم.

فقال حسن: بلاش القديم يا سيدي .. نروح الجديد.

وقصدنا إلى الجديد في شارع وجه البركة.

كان هذا الشارع في ذلك العهد من أنظف الشوارع في حي الأزبكية، على جانبيه مطاعم فخمة تغمر أنوارها الشوارع، وبه محلات تجارية كبيرة، وفي نهايته بار فخم جدا ورأيت أمراء يجلسون فيه، وفي هذا الشارع الألدرادو الجديد.

المحل نظيف ومنظم فيه على يمين الداخل البار، ثم يسير الزائر في ممر فسيح يوصل إلى باب يسبقه حاجز من الخشب المعشق من نوع ما كان يسمى "مشربية". والقاعة التي بها المسرح مستطيلة فسيحة منظمة رصت فيها المناضد صفوفا متوازية، وفي المكان جمهور يلوح للعين أنه أرقى م الذين كانوا في الألدرادو القديم.

أما نظام الغناء؛ والرقص بالصاجات على نغمات الدربكة، وانتشار الراقصات بين الجمهور؛ فكانت صورة طبق الأصل الألدرادو القديم، فجلسنا في نهاية القاعة بعيدا عن الزحام، وعلمت من ربيع أفندي أن هذه عادة الذين يميزون أنفسهم على الباقين.

وقال ربيع لحسن:– الفلوس بتندفع فبلاش تلبيخ .. نقي واستنضف وبلاش قرف أمبارح ...

وبدأت عملية الاستشارة بين الرجلين حتى استقر الرأي على راقصة معينة، فاستدعى حسن أفندي الجرسون وطلب منه استدعاءها، وطلب زجاجة كونياك وثلاثة كؤوس، لأن البيرة سخنة وتموع النفس ..

وحضرت الزجاجة والأقداح ولكن الست لم تحضر لأنها فضلت الجلوس مع غيرنا إلى جانب الحائط، فسلانا ربيع أفندي بالكونياك حتى تنتهي الست من الصفقة الأولى ثم تشرف مجلسنا، ولكنها لم تشرف ..

وظهر الغضب على الزميلين، وقال حسن أفندي "لازم أجيبها على بوزها" ثم صفق فحضر الجرسون فقال له:

– هات أي ست فاضية لتشرب معنا ..

فانصرف الخادم برهة وعاد إلينا وفي أثره راقصة، عجوز دميمة بدينة أخفت تجاعيد وجهها بالبودرة واللون الأحمر، صورة تنفر منها كل عين، ولكن حسن أفندي أحسن استقبالها فجلست متواضعة، وسألها الجرسون عما تطلب لتشرب فطلبت زجاجة بيرة ...

ولكن سي حسن لم يقنع بهذا الطلب المتواضع وأمر بإحضار دستتين للست فاستولت الدهشة على المرأة .. وطلب إحضار فواكه من الخارج عنب وموز وتين ...

أما الدستتان فجيء بهما في زفة، كل دستة في قفصها يحملها خادم، وعلى جوانب كل قفص شموع مضاءة، وأمام الخادمين "المطيب" يصيح بصوت مرتفع: "يا ميت مسا .. يا ميت فل .. ألف ليلة سعيدة يا ست" وانحنى على يد الست يقبلها، ثم دفع يده في جيبه فغرف منه حفنة من اللب وضعها على المنضدة أمامنا ..

لفتت هذه الضجة نظر الحاضرين الرجال والنساء، وأدرك الجميع أننا من أشد المغفلين غفلة .. ولكن بين الناس من يحترم المغفلين ومنهم الخواجة صاحب الألدرادو بعد رؤيته الزفة والشموع المضاءة وقفصي البيرة، فأنحنى أمامنا دلالة على الاحترام وقال:

– شرفتم محلنا يا بهوات .. هات يا مُحَمَّد مزة كويسة ...

وقال الجرسون إننا طلبنا فواكه من الخارج، فقال الخواجة: كل الطلبات دي على

حساب المحل ..

وكل الطلبات التي جاءت من بائع الفاكهة لا يمكن أن تزيد عن عشرة قروش، ولكننا دفعنا ٢٤٠ قرشا ثمن ٢٤ زجاجة بيرة بدلا من ٤٨ قرشا، ودفعنا ١٠٠ قرش ثمن زجاجة كونياك بدلا من ١٥ قرشا.

لم يكتف حسن أفندي بما حدث فكرر طلب دستتين بيرة، فتكررت الزفة والضجة ونقد الناس، ولكن المستهتر لا يقدر النقد ولا يعبأ برأي الناس فيه.

طال المكث في المقهى ونحن على هذه الحال من الاستهتار والسفه، وانتهى وقت السهر وبدأ المكان يوصد أبوابه فدفعت ثمن ما قدم لنا، ونهضنا للانصراف فلما قطعنا الممر المؤدي للباب الخارجي ووصلنا إلي باب البار، ظهر الخواجة واستوقفنا ليكلمنا ولكنه جعل يجذبني إلى داخل البار محاذرة علي من الزحام ..

قال – أنا زعلت الست شفيقة كتير خالص .. علشان ساعتك .. وهي متأسف كتير وعاوز تعتذر للبهوات .. معلش علشان خاطري أتفضلوا هنا شوية صغيرة ...

فدفعني حسن أفندي إلى ركن المكان وقال همسا:

– أنا قلت لكم حاجبها على بوزها .. دلوقت تيجي زي الكلب وتعتذر لنا.

وجاءت شفيقة القبطية "زي الأسد" ورنت ضحكة طويلة وقالت:

– يظهر يا بيه إنك رضعت لبن جارية!

ثم قالت:

– الزفة اللي شفناها الليلة كانت زفة دخلتك والآزفة قفص؟

وجرني الخواجة إلى كرسي وقال:

– الست شفيقة كويسة خالص .. دايما عاوزة تضحك .. أتفضلوا شرفونا شوية ..

وتابعت شفيقة نكاتها قالت:

- كان لازم يا بيه تطلب الأقفاص ووياها جرادل ..

فضحك الجميع ضحكات مغتصبة مجاملة للست شفيقة وللخواجة .. وجلست المرأة معنا في استرخاء الغرور والتعاظم. وأسرع الجرسون يسألها ماذا تريد أن تشرب.

فضحكت من جديد ضحكة طويلة وأشارت إلينا وقالت:

- شيل قبله الفوارغ دول ..

وقال الخواجة:

- شوية شوية يا ست شفيقة .. البيه لسه زبون جديد شرف المحل بتاعنا الليلة بس .. ولازم كلنا نكرمه علشان المحل يبقى بتاعه ..

فرنت ضحكة عالية وقالت:

- طيب .. صفروا للبيه علشان نفسه تتفتح ويشرب ..

ثم مدت يدها وداعبت بها شفتي وقالت:

- النونو ده بيشرب والا بيرضعوه ..

وعلا ضجيج الضاحكين حولنا، وجعل حسن أفندي وربيع يرقصان ويصفقان من الإعجاب، فقالت:

- الجوز ده عاوز اسطبل مش بار يا بيه ..

وقالت:

- هو أنت لازم تدخل القهاوي راكب! .. هات يا واد قزازة كونياك والمزة شعير..

وحضرت في الحال زجاجة كونياك، فصبت المرأة الخمر في الكؤوس وبدأنا نشرب في صحة الست ..أما الخواجة فودعنا وانصرف، وترك لخدمتنا جرسونا واحدا وعامل

البوفيه، فلبثنا في هذا المجلس إلى الصباح نشرب الخمر ونسمع نكات شفيقة.

ولما عزمنا على الانصراف تكرمت الست وحملتنا في عربتها الخاصة إلى بيتي وقالت للتوديع:

– بذمتك خيلي أحسن ولا الجوز الأسود بتاعك؟

شفيقة القبطية

يقتضي الحال وصف العصر الذي عشت يه والأسباب التي أثرت في حياتي وتصرفاتي وأدت إلى نتائج هدمت بعض نواحي هذه الحياة.

كانت المفاسد الظاهرة والمستورة أقل بكثير مما في العصر الحاضر، وكانت التقاليد والغيرة على الأعراض واضحة في كل أسرة فرفضت حماية المرأة من شتى البواعث على الاستهتار أو التفريط أو مخالفة العادات والتقاليد. كان للبغاء حي ضيق محدود، وللبغاء السري بيوت قليلة متباعدة عن بعضها، وكان في القاهرة عدد قليل من قهاوي الغناء والرقص الخليع المبتذل منتشرة في الأزبكية لا يزيد عددها عن ستة، وكل من فيها من الراقصات ذوات الخلاعة لا يزيد عددهن عن دستتين امرأة من النساء، يتنافس في التودد إليهن الفاسقون من أنحاء القطر كلها.

يبيع القروي الثري قطنه فتتحول جهوده ودخله إلى كمية من النقود الذهب فينطلق إلى حي الأزبكية لينفقها في شرب الخمر وللتودد لامرأة مختارة من هؤلاء الساقطات يغدق عليها ماله في سخاء يبلغ حد الجنون. يشرب الرجل أقداحا من الخمر، ويتناول عشاءه في مطعم مع رفاق له من نوعه، ثم يقصد إلى قهوة الغناء لا ليسمع الغناء إنما ليجلس مع المرأة المختارة ويطلب لها ما تأمر به من زجاجات البيرة.

وصاحب هذه القهوة يكون عادة سوريا أو يونانيا، وكلاهما يطلب الكسب بجميع الوسائل منها فرض عملية طلب الخمر بالجملة على كل راقصة تعمل عنده، وتزيد مجاملته لكل من تسرف في هذه العملية لسلب النقود من يلقيه غرامه الطائش في شركها، فتندفع النساء بدون رحمة في تنفيذ رغبة الخواجة لنيل رضا منه.

ولا تكتفي المرأة برجل واحد في السهرة لابتزاز ماله إنما تنتقل من الجمهور لتصطاد من المغفلين من يسهل عليه تنفيذ مطامعها، وبهذه الوسيلة يزيد دخل الخواجة

مما يدفع ثمنا للخمر.

وكان من أشهر الراقصات في ذلك الزمن شفيقة القبطية، لم تكن جميلة ولا رشيقة إنما كانت خليعة وراقصة مقتدرة فكونت لنفسها شهرة، والشهرة على الدوام من أسباب الإقبال على البضاعة المعلن عنها، ولهذا انصرف الأغنياء من المغفلين لناحية هذه الخليعة، وتنافسوا في التودد إليها، وأسرفت هي في سلب أموالهم فخربت بيوتا وبددت ثروات وصلت في النهاية إلى جيوب أصحاب تلك القهاوي عن طريقها.

غالت هذه الراقصة في جميع المظاهر التي تلفت النظر، فصارت لها أملاك من العقار وعربة فخمة وخيول وخدم سخت في الإنفاق عليهم، ولكن هذا العز لم يدم إلى الأبد، فانتهت حالها إلى الفقر بعد زوال شبابها، ولجأت إلى قهوة قذرة في أحط أحياء الدعارة لتعمل فيها خادمة ومتسولة، ثم ماتت بائسة ومحرومة من جميع ضروريات الحياة.

مثلت هذه المرأة دورها المألوف معي كما مثلته مع مئات من أبناء الذوات والعمد والأعيان، واستمرت على الجلوس معنا نحن الثلاثة طول السهرة في المقهى وأكثرت من طلب زجاجات البيرة في الأقفاص ومن الكونياك للشرب، لاسترضاء الخواجة.

أما البيت فكانت نفقاته بدون حساب، ويزيد عليها من آن لآخر حساب تجار الأقمشة، كانت تشتري لنفسها الأنواع بالعشرات وتبتاع أيضا لكل الذين في خدمتها من النساء والرجال والأهل والحاشية، وتحول هذه المبالغ علي لأدفعها.

وحدث مرة أننا خرجنا بعد السهرة إلى نزهة بشارع الهرم في عربتها وعدنا مع طلوع النهار، فصادفنا بين كوبري قصر النيل والكوبري الأعمى (كوبري الإنجليز الآن) قطيعا من الخراف يسوقه صاحبه لناحية المدينة، فاستوقفت الرجلين واختارت من القطيع ثمانية رؤوس من الغنم مرة واحدة، ووكلت إلى سائق العربة نقلها إلى البيت ثم حلت هي مكان السائق لقيادة العربة.

خطرت لها عند رؤية الخراف فكرة عمل زار فاشترت نصف القطيع لتنفيذ هذه

الفكرة، ولما استيقظت من النوم بعد ظهر ذلك النهار أرسلت في طلب الكودية "شيخة الزار" وكتبت بيانا بما تحتاج له الحفلة من المعدات ثم بدأت عملية التنفيذ وبدأت أدفع أثمان هذه الحاجات.

وجمعت الحفلة صنوفا من النساء الراقصات والخليعات وحتى من ربات البيوت والفتيات، وتولى عملية الطهي لهذا الجيش بعض الطهاة، وجلست وصاحباي في النوافذ المطلة على فناء البيت لمشاهدة ما دار في الحفلة من حركات رقصات الزار على نغمات "الذار" المزعجة.

ظنت هذه المخربة أنني مغفل وأنني بسبب غفلتي أدفع ما تحاول سلبه بدون وعي ولا حساب، والحقيقة أنني لم أتأثر إطلاقا بأنوثة هذه المرأة ولا بخلاعتها، وكنت أعرف يقينا أنها تمثل دور عاشقة في الظاهر ودور سلابة في الواقع، وكنت أدفع المال الكثير لا بتأثير سلطانها علي، ولا بسبب ضعف الإرادة، إنما كنت أدفع ثمن التسلية في هذا الجو المضطرب لأن لكل شيء من الرغبات ثمنه فكذلك التسلية.

لم تدم طبعا على هذا الحال لأن النفس تسأم الاستمرار على وتيرة واحدة لا تبدل فيها ولا جديد عليها، فتحول الملل إلى رغبة في التجديد، وإلى تنقل إلى دور جديدة للغناء والرقص للبحث عن وجه جديد.

والحياة على هذه الصورة سهر طول الليل ونوم طول النهار تؤدي حتما إلى عدم العناية بالعمل، فكنت أذهب إلى مكتبي وأقضي به أقل من ساعة، وكذلك كان يفعل الوكيلان حسن حلمي ومحمد ربيع ثم نخرج نحن الثلاثة للترويح عن النفس بسهرة جديدة في بؤر الفساد.

كنت أدفع للأثنين مرتبات تزيد كثيرا عما كانا يحصلان عليه في عملهما السابق، وكنت أدفع نفقات البيتين في سخاء لأن الموظف الذي يتولى شراء حاجات بيتي يشتري ثلاث كميات متساوية من كل نوع ويوزعها على البيوت الثلاثة.

كذلك الثياب وشتى حاجات الستر يتم الحصول عليها على هذا النظام، أما

نفقات السهر والسفر إلى الإسكندرية للتريض ولتنويع المروحات فكانت تدفع من جيبي مباشرة، فيتوفر مرتب الرجلين لأنهما لا ينفقان منه شيئا.

بدأ دخل المكتب من الأرباح يقل بسبب إهمال العمل، ولكن الرصيد السابق للحصول عليه كان كبيرا، وحانت فرصة لشراء عقار فاشتريت مدرسة الفرير على ناصيتي شارعي الساحة وأبو السباع، واشتريت أيضا عمارة كورونيل المجاورة لها عمارة البرنس باتنبرج مدير شركة قناة السويس التالية لها في نفس شارع أبو السباع.

ورغم حياة الشطط والسفه كنت أحتفظ بالنظام المفروض على علاقتي بالأميرة فيزنسكي، أقابلها كل أسبوع في الإسكندرية وتقابلني في القاهرة، ولكنني كنت أشعر بانقباض الصدر في تلك المقابلات الطويلة، بسبب ظهور الهرم على المرأة وبسبب ملذات اللهو التي ألفتها وانحصرت فيها رغباتي.

حميدة الراقصة

عرف جميع الراقصات العلاقة التي بيني وبين شفيقة القبطية، ووصل إلى علمهن مقدار سفهي وتبذيري في الإنفاق، وقد تجاوزت شفيقة حينذاك الحلقة الرابعة من عمرها وفقدت المغريات التي تجذب إليها الطامعين في الأنوثة الجذابة، ولم يبق لها من أسباب الشهرة الماضية سوى الرقص والتبذير والقدرة على الابتزاز والسلب.

وفي ذلك الجو الذي تعيش فيه الراقصات للإتجار بالأنوثة والخلاعة تتجه رغبة كل واحدة منهن لصيد أضخم سمكة أو أشهر سفيه مغفل، وكنت وقتذاك المغفل الكبير المطموع في الحصول عليه بسبب مميزاتي المغرية: الشباب والمال والسفه.

وغمزت سنارة راقصة تدعى حميدة، وجذبتها وفيها السمكة المشتهاة، حافظ صديق شفيقة، فكان انتصارا عظيما للراقصة على منافستها القديرة، ولكنها خافت شر شفيقة الجريئة فامتنعت عن العمل ولزمت البيت.

وظلت الحياة في هذا البيت شهورا على وتيرة واحدة كانت مسلية في أول الأمر ثم تدرجت إلى الملل منها.. نستيقظ عند منتصف النهار، ونشرب البيرة مع تناول الغداء، ونفرط في الشرب حتى تدور رؤوسنا فنعود للنوم، وننتبه في المساء لنتريض في شارع الهرم.

وكان في الجيزة في مكان كوبري عباس حانة داخلة في النيل قائمة على أعمدة، غرفة واحدة كبيرة ولكنها منظمة وتطل نوافذها العريضة على مجرى النهر، فصرنا نقضي بعض السهرة في هذا المكان نشرب الخمر ونسمر، ثم نتمم السكر في البيت حتى يغلبنا النوم.

والذي يتولى الخدمة في هذا عجوز ظهر بعد حين أنها أم حميدة، وصبية اتضح أنها أخت الست، وخادم "فتوة" عرفت بعد فوات الأوان أنه شقيق حميدة!

السهر في قهاوي الغناء سهرات مكشوفة تمكن العيون من رؤية السفهاء وما يفعلون، وبين الناس متطرفون ينتهزون الفرص للتعرف بالسفهاء ثم يتظرفون معهم لاكتساب الود، ويجدون لتوثيق هذا التعارف ليتحول إلى صداقة ترتفع بعدها الحواجز وتزول الكلفة فيعيش الطفيلي على أكتاف السفيه كما تعيش الطفيليات على غيرها من النبات.

تعرف إلينا شاب سوري من هذا النوع يدعى جورج طنوس، كان لبقا وأنيسا ومتظرف، ومكنت له صفاته تأثيرها في نفس حتى صار ضرورة من ضروريات مجالس السهرات، بل صرت أؤثره على زميلي التابعين لي، وعرفت أنه يعمل كمحرر في جريدة الوطن لصاحبها جندي بك إبراهيم.

ولما بلغت الثقة بهذا الشاب حدها الأقصى صارت له قدرة على الاختيار وعلى التوجيه، فحملني على التسلل مرات من ملازمة حسن حلمي وربيع أفندي لنضل في الظلمات وفي أعماق عوالم جديدة، كان يصفها بأنها تجديد في المروحات عن النفس، وكانت في الواقع سهرات خاصة ممتعة ترتاح لها النفس وتصبو إلى غيرها.

وفاجأني مرة في بيت حميدة مفاجأة سارة أثناء غياب الست عند الخياطة، وقال لي إنه يستطيع إعداد سهرة نادرة المثال في مجلس تركية فاتنة لا تزال عذراء ولكن والدتها تشترط أن تنال مائة جنيه لتمكننا من هذه السهرة مع الفتاة.

ظن أن دفع هذا المبلغ مرة واحدة صفقة تحتاج للإلحاح ليتيسر الدفع فجعل يصف محاسن التركية العذراء وصف الخيالي في الروايات، وكانت الإجابة على هذا العرض قصيرة جدا، وضعت في يده ورقة ذات مائة جنيه.

وفي مساء هذا النهار نفسه تسللت من الجميع وقابلت جورج في مقهى عينه لي في الفجالة، فأخذني إلى بيت في أحد الشوارع المتفرعة من الشارع العمومي، فقابلني أهله بالترحيب ...

وأشار جورج إلى عجوز وقال: إنها أمه، وإلى شاب صرح لي بأنه أخوه وصناعته خياط، وإلى صبي آخر وعرفت أنه أخوه الصغير، ثم قال: هذه عائلتي وأنا عائلها المفرد ومرتبي لا يكفي النفقات الضرورية فلابد لي من عمل جديد إضافي أفيد منه ربحا لاستكمال النقص في دخلي ..

وقد اختلقت القصة التي قصصتها عليك لأجرك إلى هذا البيت فترى بعينك أهلي ولتعرف أمري، وها هي الورقة التي أخذتها منك بالحيلة أردها إليك، فإذا اقتنعت بأنك ترتاح لمعاونتي تصير هذه الورقة رأس المال الذي يمكنني من إظهار مجلة أدبية باسم "الأقلام" فأربح منها ما يكفي حاجات هذه العائلة الشريفة.

وقال: إن هذا المبلغ تنفق أضعافه في سهرات تزول مؤثراتها مع طلوع النهار، أما إنفاقها للمعاونة في عمل شريف لمعاونة رب عائلة شريفة فإنه من الخير بدافع من الإنسانية.

أعجبتني الوسيلة التي اختارها جورج لإقناعي بضرورة معاونته، وأثرت صراحته في نفسي تأثيرا ارتحت له، وأدركت في تلك البرهة الفارق العظيم بين البؤر التي أبذر فيها المال وهذه الحياة الشريفة المحترمة، وقدرت الباعث على طلب المعاونة حق قدره، ولكنني أخذت الورقة ورددتها إلى جيبي وأخذته وانصرفت.

ظن الجميع أنني بخلت بإعطاء هذا المبلغ.. ولكنني حين بلغت الشارع قدمت للشاب الذي أرغمني على احترامه ورقتين، وصارحته بأن هذا أحسن عمل ارتاحت له نفسي وملأها ابتهاجا ومسرة، وصارحته بأنني لم أشأ أن أقدم له هذه المعاونة أمام الحاضرين حتى لا أغمر بعبارات الشكر، فترقرق الدمع في عيني الصديق وعانقني .. فصرنا من تلك البرهة في مثل آصرة أخين ..

الكسندرا أفير ينو

اعتدت للسفر إلى الإسكندرية مرة كل أسبوع خضوعا لنظام البرنسيس فيزنسكي فقابلت عندها مصادفة سيدة سورية أديبة لها جمال هادئ وجاذبية صامتة ووداعة وعرفت أنها الكسندرا أفير ينو صاحبة مجلة أنيس الجليس.

كنت في نشوة الصبا وفورة الغريزة في الشباب، فلم يكن وزن المرأة في نظري بمواهبها ولا بأدبها ولا بأخلاقها إنما بأنوثتها وبالمغريات التي تلفت النظر إليها وتنبه الشوق الحار. وقد أحدثت النظرة الأولى للسيدة أفير ينو التفاعل العاطفي في

فؤادي، بدأ المر بارتياح لمحاسنها، فالإصغاء لحديثها، ثم اجترأ النظر على تحديد وزن تلك المحاسن وفحص المغريات، فانتهى الأمر إلى رغبة قوية وإلى شوق حار زلزلني بحالة لم أشعر بمثلها مع من رأيت من النساء، فعقدت العزم على الاحتيال لتحويل هذه المصادفة إلى معرفة وثيقة.

لم يكن الأمر صعبا لأن المرأة صحافية ويسرها أن تجد لمجلتها مشتركين، ومن هذا الباب أستطيع الاتصال بها، فوضعت الخطة في الليل ونفذتها في النهار بدون تردد.

كان حسن حلمي معي في الإسكندرية ويقيم في فندق "أبات" أعظم الفنادق في ذلك الزمن، فقابلته هناك في الضحى وحجزت لنفسي غرفة لأنتقل إليها عقب الإذن لي بالعودة إلى القاهرة.

وحدثت السيدة أفير ينو بالتليفون أرجو منها تحديد وقت لزيارتها، لأنني أعجبت بأنيس الجليس وجمعت لها بعض المشتركين من ذوي الثقافة المنصرفين إلى الأدب، فلم تتردد في إجابة الالتماس وحددت الساعة الرابعة للزيارة.

كانت جالسة في شرفة تطل على الشارع، فوقفت العربة أمام الباب ونزلت ومعي حسن أفندي، وجاءت الحسناء بعد جلوسنا في قاعة الاستقبال في اتزان أكثر مما عرفته

لها في بيت الأميرة، وزادت عليه كبرا يلطف من مظهره دلال لا تريد أن يكون في وضوح.

حصرنا الحديث في الأدب والصحافة لأنه السبب الأساسي للزيارة، وأعطيت قريبا لها عناوين من معارفي ودفعت قيمة الاشتراك حفنة من الذهب، فلم يفت المرأة كثيرة الاختبار والتجارب أنني انتحلت السبب للزيارة، وأن الباعث الحقيقي اختفى وراء الظاهر، وقام الدليل عندها على صدق ظنها من حفنة الذهب التي تركتها في يد الوكيل.

لم تظهر المرأة النفور مما اهتدت إليه ولم تبد ما يدل على ارتياحها، فاستمرت في اتزانها وكبرها مع ظرف في الحديث تتخلله ابتسامات خفيفة تكشف للعين جزءا من ثناياها، ولما حان وقت الانصراف ودعتني بهذه العبارة:

– من عادة إدارة المجلة دفع ٢٠٪ مكافأة للمندوب الذي يحصل قيمة الاشتراكات، فمن حقك طلب هذا النصيب في أي وقت تشاء ..

أدركت أن هذه العبارة لم ترسل اعتباطا، قيلت تعمدا لتؤدي معناها الظاهر للتظرف في الشكر، ولتشير إلى معنى آخر يدل على عدم نفورها من تكرار الزيارة مدعمة بسبب ..

شربت في تلك الليلة خمرا وأفرطت ولكن تأثيره في رأسي كان أضعف من اشتغال بالشوق لتلك الحسناء ذات الجاذبية القوية، فلم تقو الخمر على الأرق حتى أشرقت الشمس.

ولما عدت إلى الإسكندرية في الأسبوع الثاني حدثت السيدة بالتليفون أنذرها بأنني لا أتخلى عن نصيبي في قيمة الاشتراكات التي جمعتها، ولمت الإدارة على إهمالها رد الحق إلى صاحبه .. وانتهى الأمر بتحديد وقت للزيارة الجديدة.

فذهبت لهذه المقابلة وحدي ..

استمر هذا التعارف أربعة أعوام فقط .. تتخللها الزيارات كلما ذهبت إلى الإسكندرية، وكنت أرجو أن تدوم إلى نهاية الحياة، ولكن الحظ العاثر تدخل في الأمر وحوله إلى خصومة وعداء في ضجة عالية.

من وسائل التودد اختيار هدايا للإهداء في مناسبات ففعلت وأسرفت.وعرضت علي في إحدى الزيارات مجموعة صور شمسية لها وسألتني أيهما الأقرب للطبيعة فاخترت صورة منها ودللتلها عليها، فانتزعتها من المجموعة وأهدتها لي .. فوضعتها في البيت في أقرب مكان يقع عليه نظري على الدوام.

لم يكن في مقدوري أن أهدى إليها صورتي لأنها متزوجة، فعهدت إلى أشهر رسام في القاهرة عمل صورة زيتية في الحجم الطبيعي نقلا عن هذه الهدية، وأجاد الرجل عمله، ثم اخترت يوم عيد ميلادها لتصل إليها الصورة فيه.

وقد عرفت من كثيرين أن لهذه السيدة الحسناء علاقة تعارف بشخصيات كبيرة وجهات عالية، ونالت من السلطان عبد الحميد نيشان الشفقة وثلاثة نياشين أخرى من دول لا أعرفها، وأشاعوا أن أميرا إيطاليا أوصى لها بوراثة لقبه بعد موته فمات وحملت بعده لقب برنسيس ..

كان من عادة البرنسيس فيزنسكي قضاء شهور من الصيف في أوروبا، فكنت أرافقها في رحلاتها طوعا أو كرها ثم أعود إلى القاهرة وإلى حياة الترف والسفه والسهرات الحمراء، واليومان اللذان أقضيهما في الإسكندرية كل أسبوع هما فترة الراحة والاستجمام من تأثير مرهقات الحياة المضطربة.

وحدث في مارس ١٩٠٥ أن السيدة أفير ينو أرسلت لي بواسطة البريد صندوقا صغيرا به النياشين الأربعة لتنظيفها عند تاجر جواهر يدعى لاتس، فسلمته النياشين ثم استرددتها بعد أسبوع، وذهبت بالصندوق إلى المنزل الذي أعددته لحميدة الراقصة لتناول طعام الغداء ومعي حسن حلمي ومحمد ربيع.

وفتحت حميدة الصندوق لمشاهدة ما فيه ثم أودعته خزانة ثيابها وهي على الدوام

غير موصده بالمفتاح، أكثرنا في ذلك النهار من شرب البيرة، ثم نمنا جميعا في ذلك البيت لأنني وزميلاي على موعد لسهرة في فندق الكونتيننتال مع فتيات فرنسيات.

وبارحنا البيت عند هبوط الليل وذهبنا إلى المكتب ثم خرجنا منه إلى الفندق فاجتمعنا بالمدعوات وقضينا وقتا طويلا في تناول العشاء والسمر، وكان القمر ساطعا يغمر الكون بأشعته الفضية فاقترحنا على الصاحبات نزهة إلى الهرم فابتهجن لهذه الفكرة الطارئة ونفذن الاقتراح في ارتياح .. وفي مينا هاوس حلا للجميع ختم السهرة بأقداح من الشمبانيا، ونبه الجو الساحر الشهية فأفرطنا في السهر والشرب وعدنا إلى المدينة في وقت السحر تقريبا.

سمعت من كثيرين في قهاوي الغناء أن لحميدة معشوقا تتفانى في حبه وتدفع له جميع نفقاته، ولكني لم أراه إطلاقا طول مدة معاشرتي لتلك الراقصة، ولم أسمع أية كلمة عنه في بيتها، فظننت ما ينقل لي من الحديث عنه دسا للتفريق بيني وبين حميدة بدافع من الغيرة أو رغبة في الكيد ليتم الفراق ولتعود الراقصة إلى عملها.

عدت بعد تلك السهرة الطويلة إلى البيت ومعي مفتاح الباب الخارجي للمسكن الخاص بنا فدخلت والقوم نيام وأنا في أقصى درجات السكر، حاولت فتح باب غرفة النوم فوجدته موصدا من الداخل، فقصدت إلى الغرفة المجاورة غرفة الاستقبال لأن لها بابا آخر يؤدي إلى غرفة النوم فوجدته موصدا هو الآخر .. فعدت إلى الباب الأول وجعلت أدقه لأنبه النائمة لتفتح الباب، ولكنها لزمت الصمت برهة طويلة.

كان رأسي يدور من تأثير الخمر وطول السهر وكنت في حاجة شديدة للنوم في الحال، فزدت الطرق شدة وعنفا، فأظهرت المرأة الغضب والعناد وجعلت تؤنب بصوت مرتفع جدا بسبب سهري الطويل خارج البيت وتركها وحدها.

ألحفت لتفتح الباب وزادت هي في الغضب و "الردح" وقالت: روح نام مطرح ما سهرت ..

وأيقظت هذه الضجة العالية أمها وأختها فجعلتا تلحان عليها في لطف لطلب المغفرة وللسماح لي بالمبيت في البيت، ولم تلن العنيدة للتوسلات بسهولة، فانقضى وقت طويل بين وصولي إلى البيت وبين فتح الباب.

لم ينتهي تصرف المرأة الخبيثة لوجوب الشك في الباعث الحقيقي عليه، فاكتفيت بالدخول وتجردت من ثيابي بسرعة وانطرحت على السرير وغططت في النوم إلى عصر النهار الثاني.

جاء حسن حلمي كالعادة فارتديت ثوبي ونزلت معه، وتذكرنا صندوق النياشين ونحن على السلم فطلبته، فأرسلته إلي حميدة مع أختها، وأراد حسن أفندي الاطمئنان على النياشين أنها موجودة في الصندوق ففتحه وعد الموجود فيه فظهر أن نيشان الشفقة قد اختفى منه ...

عدنا إلى المسكن وبحثنا عن النيشان المفقود في كل مكان فلم نجده بالرغم من دقة التفتيش الذي تم في كل ناحية من المسكن جميعه حتى ثياب الذين فيه، وأنكر الجميع عليهم بوجود الصندوق في خزانة الثياب.

قطعت هذه الحادثة الصلة بيني وبين حميدة، ولم أستطع التبليغ عن ضياع النيشان لأن من الفضيحة أن أودع في بيت راقصة محترفة نياشين سيدة محترمة لها مركزها البارز في الهيئة الاجتماعية.

غلبت على أمري وظهرت لي نتيجة الاستهتار والاطمئنان لامرأة في أحط دركات الرذيلة والانحطاط، ولم أجد بدا من الكتابة إلى السيدة أفير ينو فرددت لها النياشين الباقية ونبأتها بضياع النيشان الرابع، وعرضت عليها دفع كل ما تطلبه للتعويض عن الخسارة.

وظهرت السيدة المحترمة كريمة الخلق واضحة النبل لأنها كتبت إلي تهون الأمر علي، وأكدت أن في مقدورها الحصول على النيشان من مصدره لأنه ثابت لها حق حمله، وأن المسألة لا تعدو دفع ثمن الحلية لا أكثر.

انتهى الأمر عند هذا الحد ولكنني لم أحتفظ بالخطاب لعظم ثقتي بصاحبته، ولأنني لا أجد باعثا يحدوني للاحتراس منها في المستقبل بسبب الاطمئنان إليها والاستخفاف بجميع أحداث العالم.

وجاء أوان السفر إلى أوروبا فسافرت قبل البرنسيس ولحقت بي في روما، ثم انتقلنا إلى باريس ومنها إلى سويسرا فقضينا فيها إلى ٢٠ يوليو ١٩٠٥، ثم عدنا إلى مصر وتابعت سفري إلى القاهرة آمنا مطمئنا.

حدثت أحداث أثناء هذه الغيبة أدت إلى مصادمات كلامية بين جورج طنوس صديقي العزيز وبين حسن حلمي يسنده زميله ربيع أفندي، ووصلت الخصومة إلى حد طرده من المكتب والتنبيه على الخادم بعدم السماح له بالدخول مرة ثانية.

وأظهر جورج العدد الجديد من مجلة الأقلام وبها رسالة تحت عنوان "إفساد الأخلق" وصف فيها حياتي الخاصة ونوع استهتاري وسفهي وتبذيري، نسب ذلك إلى وقوعي في شرك رجلين من فاسدي الأخلاق يتصرفان في عملي وينحدران بي إلى أعماق هوى الرذيلة بسبب طيبة قلبي وسذاجتي وثقتي بالزميلين .. ثم أرسل الرسالة مؤشرا عليها بالحبر الأحمر

إلى البرنسيس فيزنسكي وإلى السيدة أفير ينو.

غضبت طبعا لهذه الجرأة وسندت زميلي في حنقهما على الصديق الخائن، وزاد هذا التصرف في شر جورج طنوس فنشر في العدد الثاني نبأ ضياع نيشان الشفقة، وأكد أن النيشان لم يفقد كما أدعيت ولكنني أهديته لراقصة من الساقطات، وأنها زينت صردها به كحلية ورقصت به على المسرح أمام الجمهور .. وأرسل المجلة إلى السيدتين مؤشرا على قصة النياشين بالأحمر.

حين كنا أصدقاء ذهبت مع حميدة وجورج إلى الهرم، وجلسنا على حجر وأخذت لي صورة وحميدة تسند رأسها إلى صدري، فأرسل جورج هذه الصورة أيضا إلى الأميرة وإلى الكسندرا أفير ينو ..

لم يصل قبل الآن إلى علم البرنسي أي نبأ عن حياة الاستهتار والتهتك التي انطلقت للانحدار عليها، ففوجئت مفاجأة بأنباء هذه الحياة القذرة في الرسائل التي أرسلت إليها، ولكنها لم تتعجل في الغضب علي فأرسلت سرا تستدعي حسن حلمي وربيع أفندي ووعدهما بالمكافأة وبإسناد أعمال المكتب إليهما إذا صدقا في وصف الحياة التي أحياها في القاهرة.

وطمع الرجلان في المركز الذي أغرهما به الأميرة فقصا عليها قصتي كاملة، وزاد عليها ما يؤيد دعوى جورج طنوس بأنني أهديت النيشان إلى الراقصة حميدة بدافع من ولعي بها وبسبب إلحاحها للحصول على تلك الحيلة.

قرر حسن حلمي أنه دخل مرة بيت حميدة بعد إذاعة نبأ ضياع النيشان بأيام كثيرة فرآني جالسا أطالع جريدة ورأى النيشان على صدر الراقصة.

وقرر مُحَمَّد ربيع أنه رأى الراقصة بعد انفصالي عنها ترقص على المسرح والنيشان المرصع على صدرها والناس يظنونه حلية، وزاد على هذا الافتراء أنه أراد شراء النيشان من حميدة ليمكنني من رده إلى صاحبته فرفضت الراقصة بيعه بأي ثمن وصرحت بأنها سترقص به على الدوام نكاية في ..

سببت هذه الاعترافات الكاذبة في موضوع النيشان هياج الأميرة وغضبها وقصت ما ظنته الحقيقة على السيدة أفير ينو وحرضتها على تبليغ النيابة لتتهمني بتبديد النيشان، فاستشاطت الأخرى غضبا وقدمت البلاغ، فألقي القبض علي في مصر.

ونقلت إلى الإسكندرية وعرضت على رئيس النيابة مُحَمَّد بك محفوظ، فأمر بحبسي احتياطيا وأرسلني إلى سجن الحضرة.

في السجن

ذهبت إلى السجن في عربة مع جاويش يحرسني فسلمني لحارس الباب ومعي أمر النيابة بالحبس الاحتياطي، فبقيت واقفا خلف الباب حتى دق الجرس يعلن انتهاء الراحة وقت الغداء، فنشطت الحركة داخل السجن وظهر السجانون والموظفون نشيطين لمباشرة أعمالهم.

ورأيت وراء الباب فريقا كبيرا من الفلاحين جيء بهم لتنفيذ الأحكام التي صدرت ضدهم ولكنهم كانوا جلوسا على الأرض لأنهم يلبسون الجلاليب، أما أنا فاستندت إلى الحائط للارتكاز بسبب طول الوقوف.

وظهر في الفناء الخارجي للسجن موظف شاب وخلفه سجان في يده كيس من القماش السميك، وصدر الأمر للجميع بالوقوف فأطاعوا، فصفوهم صفا واحدا ثم رفع الموظف صوته يقول لهم:

– كل واحد معاه ممنوعات سجاير أو دخان أو كبريت أو طعام يلقيه على الأرض أمامه، وكل واحد معه نقود يسلمها لي لتوضع في الأمانات لحسابه وسترد إليه وقت الإفراج عنه ...

ثم قال: وسنفتش الجميع بعد ذلك فإذا وجدنا مع أحد شيئا فإنه يعاقب عقابا شديدا.

وألقى الرجال ما كان معهم على الأرض، ثم مر الموظف الأول في الصف فسلمه ما معه من النقود فتناولها السجان ووضعها في الكيس وسجلها الكاتب في ورقة بيده، ثم تمطى وصفع الرجل صفعة رنانة قبل الانتقال إلى الذي يليه ..

وتكرر العمل والصفع إلى النهاية، وأصررت في سري على ضرب الكاتب إذا خطر له أن يودعني بصفعة كما فعل مع غيري، ولكنه تلطف معي وسألني عن التهمة

المنسوبة إلي ثم هز رأسه أسفا.

لم تكن معي نقودا إطلاقا لأن ما كان في جيبي أخذه البوليس مني بعد القبض علي وأرسله إلى النيابة مع ما كنت أتزين به من الماس، ونفذ في نظام السجون القاسي فخلعت ثوبي وارتديت ثوب السجن، وجاء مسجون بآلة قص الشعر فأجراها على رأسي، ودخلت الحمام فصب الماء على جسدي لتطهيري من الأقذار، ثم قادوني إلى زنزانة بها حصير وبطانية وأغلق علي الباب.

ومن نظام السجن تبخير جميع ثياب الذين يدخلون السجن اتقاء العدوى من الأمراض، ولكن الكاتب حمى ثوبي من التبخير لأنه يتلفه ثم رده إلي ضحى النهار الثاني سليما فحمدت له هذا المعروف.

لم أكن أدري حكاية استدعاء وكيلي حسن حلمي ومُحَمَّد ربيع لمقابلة البرنسيس في الإسكندرية، ولم أعرف ما حدثاها به عني، وكان إيجار مكتبي مكتوبا باسم رئيس خدم الأميرة لأنه استأجره لي في غيابي، فلما تم القبض علي سافر إلى مصر وأغلق المكتب.لم يصل إلى علمي شيء من هذه التصرفات لأنني عزلت عزلا تاما عن العالم، فكتبت إلى المكتب أطلب إرسال نقود باسمي للسجن لتوكيل محام للدفاع عني.

أرسل الخطاب إلى قسم البوليس بعابدين ولكن الإجابة لم تصل إلي.

صرحوا لي بكتابة خطاب ثان في الأسبوع الجديد كنظام السجن، فلحق أخاه في عالم الظلام، ورجوت من الشاب الكاتب إرسال رسالة برقية بعنوان حسن حلمي بالمكتب ففعل ولكن الإجابة عليها لم تصل.

وكان من الإجراءات القانونية معارضتي في أمر الحبس الاحتياطي الصادر من النيابة ولكنني لم أفعل، وانقطعت عن الناس جميعا ولم أتصل بأي إنسان سوى رئيس النيابة حين يدعوني للتحقيق معي.

قررت الحقيقة الكاملة في التحقيق، وكنت أظن أن حميدة وأهلها سيقررونها أيضا فيثبت ضياع النيشان من خزانة الثياب في بيتها فتهدم تهمة التبديد، ولكن المرأة جيء

بها إلى الإسكندرية مقبوضا عليها فأنكرت حادثة النيشان في بيتها، وأكدت أنني أخذت منها الصندوق بعد فحصه ووثوقي من النياشين جميعها أنها فيه، ولكن النيابة أبقتها في السجن مقبوضا عليها حتى يوم جلسة المحاكمة.

وانتقل رئيس النيابة وكاتبه إلى القاهرة وفتش البيت والمكتب فوجد في أحد الأدراج بيانات من المحلات التجارية بالحلي التي اشتريها للهدايا، فأمر بنقلي إلي القاهرة وعرضي في موكب على أصحاب تلك المحلات ليسألهم عن النيشان هل عرضته عليهم للبيع، فكانت الإجابة سلبية.

ووجد في مكتبي خطابات أو بطاقات زيارة بأسماء سيدات من عائلات شريفة، فقادني إلي بيوتهن ليسألهن عن علاقاتهن بي وعن النيشان هل رأينه معي، قضينا في القاهرة أياما لتتم هذه الفضيحة في ركب له ضجة وأما مقيد بالحديد.

يتكون الركب من ثلاث عربات، الأولى بها يوزباشي من البوليس السري وثلاثة من رجاله، والثانية بها رئيس النيابة وكاتبه الحاجب، والثالثة بها المقبوض عليه بين اثنين من الجنود.

انتهى بحث النيابة في القاهرة بدون نتيجة، فردوني إلى سجن الحضرة، وبعد يومين ساقوني إلى غرفة رئيس النيابة، فوجدت بها البرنسيس فيزنسكي جالسة وحميدة واقفة يستجوبها المحقق، ثم أعدنا للسجن قبل انصراف الأميرة الجريئة.

التهمة ضدي جريمة تبديد النيشان، وهي أولى التهم فهي جريمة عادية لا تستحق الضجة التي أحدثتها النيابة والصحافة، فلما جاء اليوم المحدد للجلسة أمام المحكمة الجزئية، وضعت في قفص المتهمين إلى جانب حميدة، فرأيت القاعة حاشدة بالجالسين وحولهم زحام من الواقفين.

ورأيت وكيل نظارة الحقانية جالسا في الجلسة إلى جانب رئيس النيابة، وسألني القاضي فقصصت ضياع النيشان كما حدثت ولم أتهم أحدا، وسألني القاضي باهتمام عن علاقتي بالسيدة أفير ينو، ولم يكن الغرض معرفة الواقع، إنما الحصول على اعتراف

مني بأن المعرفة كانت بعيدة عن المظان، ولم يكن في وسعي سوى التصريح على هذه الصورة.

وجاء دور الشهود حسن حلمي ومحمد ربيع فشهدا ضدي بما قرراه أمام البرنسيس فيزنسكي فتولتني الدهشة ...

وسألني القاضي لماذا يشهد هذان الرجلان هذه الشهادة ضدي وهما موظفان في مكتبي وصديقان يلازماني في سهراتي طول الليل، يريد أن الشهادة صادقة لا يتناولها الشك ولا الطعن فيها، فكان جوابي:

– تأبى النفس الخبيثة أن تخرج من الدنيا قبل أن تسيء إلى من أحسن إليها.

لم أستطع إثبات سرقة النيشان مني، لأن الشاهدين قررا أنهما رأيا النيشان على صدر حميدة بعد ذيوع نبأ ضياعته، فثبتت ضدي تهمة التبديد لأنني استلمته باعترافي ولم أرده، وتولى رئيس النيابة شرح القضية وإثبات التهمة، فصدر الحكم ضدي بالحبس ثلاثة أعوام ..

الجريمة جنحة تبديد وهي الأولى ضدي وليست لي سوابق، وكل جريمة من هذا النوع يحكم فيها عادة بالحبس شهرا أو أثنين أو ثلاثة، ولكن المجني عليها هي السيدة أفير ينو، والجاني شاب أحدث اتهامه ضجة عالية بواسطة الصحف ..

ووراء هذه الضجة نفوذ البرنسيس فيزنسكي .. ثم حظي السيء ...

استأنفت الحكم فعدلت المحكمة الحكم إلى ستة شهور مع الشغل ...

كان مأمور السجن إنجليزي يدعى المستر بوب وهو رجل طيب القلب نشيط في عمله، سمع عن قصتي من الضجة التي أثيرت حولها وصيرتها حديثا في المجالس، فأظهر عطفه علي بسبب هذه المأساة ولاقتناعه بأنني ضحية ...

وحدث مفاجأة أنه مر على السجن في الليل ثم فتح زنزانتي التي انعزلت فيها عن بقية زملائي المسجونين، وأيقظني من النوم وقال: ستحضر البرنسيس فيزنسكي غدا

قبل الظهر لزيارة السجن فيحسن أن تغيب عن نظرها، والوسيلة لذلك هي ادعاؤك المرض فتعرض على الطبيب فتوفر على نفسك التألم من شماتتها بك ...

وكان الطبيب رجلا صالحا كثير التقوى طيب القلب، فلما عرضت عليه أمر لي بالمعالجة في مستشفى السجن مع عزلي في غرفة انفرادية، ونفذ الأمر في الحال.

وحضرت الأميرة ومعها زميلان لها من الأجانب، فرافقها المأمور في الزيارة فمر بها على المصانع والمغسل والمطبخ، وعاد بها إلى الفناء متجها إلى مكتبه، ولكنها طلبت رؤية بقية المسجونين فجمعوا الذين يخدمون في عنابر السجن وعرضهم المأمور عليها ثم صرفوهم.

فطلبت زيارة المستشفى فنفذت رغبتها، فسألت المأمور في جرأة: لماذا لم تر حافظ نجيب بين الذين عرضوا عليها؟ .. فكانت الإجابة: إنه مريض وقد عزل في غرفة انفرادية بسبب شك الطبيب في مرضه، فسألت: ومتى ظهر المرض ومتى عوله الطبيب؟

وأدرك المأمور أنها جريئة متحدية ولا تحاول إخفاء رغبتها في رؤية المسجون للشماتة به، فقادها إلى الغرفة التي عزلت فيها وفتحها ثم قال:

- ها هو حافظ نجيب! ...

كانت الغرفة صغيرة فوقفت في فتحة الباب وأنا جالس على السرير، وجعلت تمعن النظر في وتفحصني من قمة الرأس إلى القدمين ثم سألتني:

- ما مقدرا مدة الحكم الصدر ضدك؟

ونظام السجن يحتم علي التأدب مع الجميع، فقلت مرغما: ستة شهور.

فقالت: هذه الخطوة الأولى .. ولكن أبرئ أنت أم ارتكبت الجريمة التي نسبت إليك؟

قلت: لقد صدر الحكم ضدي لأن المحكمة اقتنعت بإدانتي، والقانون يفرض على كل إنسان احترام هذا الحكم ولو كان خاطئا.

قالت: وهل أنت ممن يحترمون القانون؟

قلت: مفروض علي عدم مخالفة بحالة يقوم عليها دليل.

قالت: ولكن الذي يسقط ويحكم ضده ويدخل السجن يعتاد الإجرام.

قلت: لازلت أجهل ما سيجيئ به المستقبل.

قالت: وهل في نيتك التوبة؟

قلت: لا .. إنني لم أتعمد الاعتداء على أحد .. فلم أفعل ما يجب الندم عليه والتوبة ، لأنهما نوع من الاعتراف بالخطأ.

قالت: ألم تكن خائنا؟ ألا يندم الإنسان على الخيانة؟ ..

قلت: قال المسيح" من كان منكم بدون خطيئة فليتقدم أولا ويرجمها "..

فنظرت إلي نظرة عميقة أدركت منها أنها للتهديد ولكنني لم أغض من نظري، فهزت رأسها وانصرفت يتبعها الجميع.

قضية ثانية

انتهت الشهور الستة وحان يوم الإفراج عني، وقد جرت العادة أن يفتح الباب السجن للمفرج عنهم في الظهر تماما، ففتح لي الباب وخرجت إلى الفضاء الواسع ...

إلى الحرية .. إلى الحياة.

قطعت الشارع المؤدي من السجن إلى وبوار المياه، ومررت بعربة كانت واقفة هناك بها امرأتان إحداهما عجوز تركية، وإلى جانب العربة جندي من رجال البوليس السري وأفندي آخر ناداني باسمي وتقدم لناحيتي فوقفت، فقال:

– حضرتك مطلوب للقسم ..

فسألته عن السبب فأنكر معرفته وصرح لي بأنه منوط به إحضاري للقسم بأمر حضرة المأمور، فسرت مع الرجلين، وتحركت العربة وانطلقت بنا.

ولما وصلت إلى القسم وضعوني في سجنه إلى المساء، ثم نقلت منه إلى المحافظة أمام مأمور الضبط ..

رأيت العجوز التركية وزميلتها جالستين في ذلك المكتب، فسألهما المأمور هل هذا هو الرجل الذي تشكوان منه، فقالت العجوز: نعم ...

ودق الجرس فدخل الجندي حارس باب المكتب، فقال له: هات العربجي اللي واقف بره.

ودخل الرجل، فسأله المأمور: هل هذا هو الرجل التي تشكو منه؟ فقال: نعم هو بعينه.

فاستدعى المأمور كاتبا وفتح محضرا أثبت فيه شكوى الشاكين .. وبدأ التحقيق الجديد ..

ادعت المرأة أنني دخلت بيتها في إحدى الليالي منذ شهور، وطلبت منها شراء خمر وفاكهة فشربت وسكرت ونمت في البيت مع زميلتها، وهربت قبل طلوع النهار بدون أن يشعر بي أحد ...

وقال الشاكي الثاني: إنني ركبت عربته منذ شهور وعطلتها معي ساعات، وطلبت منه شراء علبة سجاير فدفع ثمنها، ثم أوقفته أمام باب منزل وهربت من الباب الثاني.

وسئلت فأنكرت التهمتين، وأكدت أنني لم أر هذه الوجوه إلا في هذه اللحظة، ولم يفد الإنكار فألقوني في سجن المحافظة تلك الليلة، وأرسلت في الصباح، إلى النيابة فحولتني إلى سجن الحضرة من جديد، وصدر حكمان في القضيتين بأمر حبس احتياطي، ولما تحددت جلسة المحاكمة صدر الحكم بحبسي سنة ونصفا، وأيد الاستئناف الحكم الابتدائي فقضيت العقوبة في السجن ..

ادعت البرنسيس أن مكتب أعمالي لها خاص بها وأنني وكيل عنها في ذلك المكتب، وأن المكتب مستأجر لحسابها باسم وكيلها، وأنها الضامنة في جميع الأعمال المالية، وصدر الحكم لصالحها في غيابي، واستأنفت الحكم فأيده الاستئناف لأنني لم أجد من يدافع عني أمام المحكمة ... ولم يؤذن لي بالذهاب أمام محكمة مدنية ..

وتمكنت الأميرة من الاستيلاء على المكتب وما فيه، وصفت الحساب كما تريد وطالبتني بدخل المكتب من الأرباح من بداية العمل، وصدر الحكم لصالحها فحجزت على أملاكي وباعتها فجردتني من كل ما وفرت وكونت، ولما انتهت مدة العقوبة وأفرج عني خرجت إلى العالم لا أملك سوى الثوب الذي دخلت به السجن، لأن الكاتب الظريف احتفظ به في المخزن رغم نظام السجن ...

وعرفت في السجن جاويشا كان يعمل مع والدي في دمياط، هو الذي دفع لي أجرة السفر إلى القاهرة، فعدت إليها معدوما وبدون مأوى، ولست أذكر كيف قضيت الأيام الأولى بعد عودتي، إنما أذكر أنني عينت مدرسا للرياضة بالمدرسة التحضيرية بدرب الجماميز بمرتب ٣ جنيهات، وعينت مدرسا بالمدرسة الإسرائيلية بمرتب خمسة

جنيهات لأعمل فيها بعد الظهر.

ووجدت غرفة لسكني بفندق المقطم بحارة شق الثعبان بشارع كلوت بك بأجرة شهرية ١٥٠ قرشا، واشتركت في مطعم سوري بجانب الفندق بمبلغ ١٥٠ قرشا في الشهر، فنظمت حياتي على هذه الصورة ردحا من الزمن، ولكن القدر لم يغفل عني.

اعتبرتني البرنسيس خائنا لأنني تناسيت عطفها علي ورفقها بي ومعاونتها بالمال لتعليمي وتثقيفي ثم لتكويني في الحياة، ظنت أنها لهذه الأسباب القوية قد اشترتني وصرت ملكا خاصا لها، ولكنها نسيت أنني في طور الشباب وأنها وصلت إلى الكهولة...

لم أنكر في أي وقت أفضال تلك السيدة ولا ما غمرتني به من أنواع الإحسان ولكن الاحتفاظ بالمعروف لا يؤدي إطلاقا إلى حال تمنع الهين من رؤية المحاسن ولا من التأثر بالجاذبية، ولا من الانطلاق مع الهوى، فدفعني نزق الشباب إلى كل ناحية ظننت فيها متعة للنفس استجابة لنداء الغريزة.

لقد حطمتني بقوتها وبنفوذها بتأثير الحنق علي، ولكنني لم أقرر للآن بعد انقضاء أربعين عاما على تلك المآسي، هل كان من حقها أن تقسوا علي إلى هذا الحد، أو كان من العقل اللجوء إلى المعاقبة بوسائل أقل قسوة مما فعلت؟ ..

كانت هذه الأفكار تتردد علي كلما خلوت إلى نفسي، وكنت أتألم ألما شديدا كلما تذكرت ما كنت فيه من اليسر وما وصلت إليه من العسر، فكنت أفر من الوحدة إلى عالم الضجة لطرد الأفكار ومؤثراتها العنيفة في النفس.

أن يذهب الشباب الذي فقد الأهل والأصدقاء والثروة والاعتبار؟ إن في المقاهي والحانات متسعا لكل عاطل ولكل محزون، وفي هذه الأماكن يجد معارف بدون أسباب تعارف، ويجد الخمر بأثمان رخيصة، كان ثمن زجاجة الكونياك ١٥ قرشا، وثمن الكأس قرشان، وفي الجيب خمسة جنيهات تزيد على ثمن الطعام وأجرة المسكن فمن السهل إنفاقها للتسلي.

عرفت في المدرسة التحضيرية خليل حداد مدرس اللغة الإنجليزية، كان رجلا طيب القلب عاقلا متزنا فقرب بيننا البؤس، وصرنا نجتمع بعد وقت الدراسة عند حلواني في ميدان الأوبرا، نقضي وقتا في السمر ثم نفترق، فكانت هذه المعاشرة سببا في اتزاني في سهراتي.

وجادت علي الظروف الحسنة بدروس في بيوت عائلات إسرائيلية غنية وزادت علي دخلي الأول ستة جنيهات، فاستأجرت مسكنا به غرفة واحدة ومطبخا صغيرا ودورة مياه نظيفة، فأثثت البيت وجعلته عشا هادئا للطير الحزين.

وجعلت أدخر من القليل قليلا حتى اجتمع لي في درج مكتبي مائة جنيه ذهبا، وفرحت بهذا المال الذي كنت أنفقه في أسبوع بدون أسف عليه، والنظام الذي جعلته أساس تصرفاتي في هذه الحياة الهادئة كان منه أنني أمتع نفسي مرة واحدة في الشهر بعشاء وأقداح من الخمر وسهرة طويلة، بشرط ألا تزيد نفقاتي عن جنيه واحد، ثم أصوم إلى أول الشهر الثاني.

اكتملت في أول الشهر المائة جنيه بعد دفع حساب المطعم وأجرة المسكن وقسط الخياط، فأخذت الجنية الأول بعد المائة وقصدت إلى الأزبكية لأمتع نفسي بسهرة الشهر، فشربت أقداحا من الكونياك، وسمعت الموسيقى في القهوة المصرية، ثم تناولت العشاء، وقضيت بقية السهرة حيث قادتني قدماي، فبقى من الجنيه خمسة قروش وفرتها لدفع أجرة العربة التي تردني إلى البيت.

نزلت من العربة في سكون الليل فوجدت الشارع مغمورا بالمياه، وبحثت عن البيت فوجدته أنقاضا، احترق البيت أثناء غيابي فأحترق معه مسكني وثيابي وضاعت المائة جنيه!

تولاني الذهول أولا ثم الحزن على ما فقدت واحترت في أمري لأنني لا أملك أجرة النوم حتى في فندق رخيص، ولم أجد فائدة من إطالة الوقوف إلى جانب الأنقاض للبكاء فاتجهت ثانيا لناحية الأزبكية.

وطرأ على خاطري خليل حداد، وتذكرت من حديثه أنه يسكن في كنيسة الموارنة بدرب الجنينة، فلم أتردد في البحث عن الكنيسة حتى بلغت إليها بعد جهد، طرقت الباب مرات فلم يسمعني أحد فزدت في الطرق العنيف، فأطل خليل من نافذة فكلمته، فنزل إلي وصعدت معه إلى مسكنه ..

كانت القاعة التي دخلناها فسيحة جدا ينيرها مصباح صغير يضاء بالبترول، وكل ما فيها من الأثاث سرير من الجريد عليه فراش النوم، وكرسي واحد عليه ثياب الرجل، وفي صدر المكان مصطبة مبنية طولها عرض الحجرة، وعليها حصير واحد من اللباد.

ترك لي خليل سريره ولف الحصير حول جسمه مرات فجعل منه حشية وغطاء، ثم غط في النوم، وتركني أتقلب على السرير فريسة للبق، أقاتله وأزهق أروحا كثيرة منه، ولكنه يأبى الانهزام فيجمع كتائب جديدة ويعدو علي من جديد، فدامت المعركة بيننا حتى أشرقت الشمس.

وشكوت إلى خليل ما نالني، فقال إن من عادة هذه الحشرات أنها تكرم الضيف لأنها تجد في دمه غذاء جديدا ينبه الشهية، ثم هبط بجلبابه إلى الشارع وعاد يحمل طعام الفطور فول وزيتا وبصلا، فأكلنا وخرجنا إلى العمل.

وفتح الرجل كيسه في الطريق وأعطاني نصف ما معه، وعزاني على كارثتي بعبارة لطيفة هونت علي التألم منها: قال: لقد نزلت إلى الدنيا من بطن أمك عاريا وضعيفا ليس لك حول ولا قوة، أما الآن فإنك تدخل الحياة الجديدة كاسيا قادرا على العمل وعلى الاحتمال فعلام إذن التألم والأسف؟

لما استيقظت في مسكن خليل وجدت على أرض الغرفة بساطا من التراب تركته الأعوام لأن أحدا لا يتولى كنس الحجرة بسبب عدم الحاجة إليها، وعلل عدم عنايته بكنس ما جمعته السنين بأنه رأى كثيرين ينامون على الأرض فتشبه بهم استعدادا للرقاد الأخير.

لم يكن في مقدوري العمل في ذلك النهار فقصدت إلى فندق المقطم ثانيا واستأجرت فيه غرفتي الأولى فعادت ريمة لحجرتها القديمة ..

اكتسب خليل صداقتي من تلك الليلة بما غمرني به من سخائه لأنه نزل لي عن نصف ماله في ابتهاج ومسرة، كانت النقود لا تزيد عن **١٥٠** قرشا ولكنها إعانة نافعة في وقت الحاجة، فاحتفظت له بالمعروف طول حياته، وشاركته في مالي كما شاركني فيما كان يملك، فدامت الصداقة والإخلاص بيننا إلى **٢٥** يونيو **١٩٠٩** ثم اختفى ولم أعرف مكانه إلى الآن، والمرجح أنه مات.

عودة الشيطان

كتبت رواية تمثيلية ومثلتها جمعية بتياترو فرح بشارع عبدالعزيز، فربحت منها ودخلت حانوتا لأشتري ساعة فخرجت منها بالساعة وبصداقة زوجة التاجر ..

كان زوجها غائبا وكان إسرائيلية فرنسية لعوبا، ولها جمال وجاذبية وكياسة وظرف اسمها فرنسين، وكنت شابا قويا وزوجها شيخ هزيل مريض، فتحدثنا طويلا بدعوى عرض البضاعة ثم للمساومة، وانتهى الأمر إلى موعد فلقاء فسلام فاتفاق على المصادقة.

كنا نجتمع مرتين في الأسبوع في مشرب بيرة خلف بنك الكريدي ليونيه، ولكنها سئمت اللقاء على قارعة الطريق، فاعترفت بأنني بدون مسكن خاص لأنني أقيم في فندق، فانصرفت وقابلتني يوم الأحد مساء كالعادة، ولكنها رفضت الجلوس وأخذتني إلى مسكن صغير في شارع عبدالعزيز به حجرتان للجلوس وللنوم ومطبخ جمعت فيها شتى الحاجات الضرورية، وقالت إنها ستؤجرها لي بالقدر الذي أستطيع دفعه .. فصار لنا مهد غرام نجتمع فيه بدلا من مشرب البيرة أمام الناس.

وشاركتني مرة على ورقة نصيب بقرش، ودفعت لي بعد السحب ٢٠ جنيها ادعت أنها نصف الربح لأن الورقة ربحت ٤٠ جنيها، وأدعت بعد أسبوع أنها ستشاركني في صفقة ساعات جديدة، وأخذت مني كل ما أملكه وكان ٥٠ جنيها ذهبا، ودفعت لي بعد شهر ٢٠٠ جنيه ذهبا قالت إنها نصيبي من الربح لأنها اشترت الكمية وباعتها صفقات.

وأهدت إلى في العيد ساعة من الذهب وسلسلتها، وفي عيد الأضحى خاتما من الماس، فارتحت لظرف هذه الحسناء وأخلصت لها الود، ولكنها كانت تغيب عني على الدوام ليلة السبت والنهار كله فلا أراها إلا في مساء الأحد، فأتألم من الوحدة ويضيق

صدري في البيت فأخرج لترويح النفس.

أردت التلهي والترويح عن النفي، فكنت أقضي سهرة ليلتي السبت والأحد في الالدرادو الجديد لأن شفيقة القبطية رحلت عنه، وكانت السهرة على الدوام بريئة وتسليتي قاصرة على سماع الغناء ومشاهدة الرقص، ثم أعود إلى البيت.

وحدث مرة ... أنني خرجت من باب القهوة الداخلي إلى الدهليز الذي يؤدي للباب الخارجي ففوجئت بطلق ناري أصابت رصاصته الطربوش على بعد قليل من رأسي ..

رأيت الضارب عند الباب المؤدي إلى البار قبيل الباب الخارجي، ورأيته يطلق النار للمرة الثانية .. ورأيت امرأة خلف الضارب خرجت من البار وطوقته بذراعيها القويتين فسقط المسدس من يده إلى الأرض، وتناولته المرأة بسرعة وبقيت ممسكة بالرجل.

كانت المرأة قوية بدينة قوية عرفت بعد ذلك أن اسمها الحصرية، فلم يتمكن الرجل من الإفلات منها، واجتمع الناس في مكان الحادث، جاءوا من الطريق ومن داخل المقهى، وحضر عسكري الدورية من الشارع وقبض على الرجل.

أما الضارب فكان خواجة يلوح عليه أنه من أشقياء الإفرنج يستأجر للأذى، لم أره من قبل فتعمدت أن أركب معه في العربة التي نقلتنا إلى قسم الأزبكية فصار بيني وبين الجندي القابض عليه، أما الحصرية فرفضت تسليم المسدس للعسكري وأصرت على تسليمه بيدها في القسم لأنها هي التي انتزعته من الخواجة ولأنها شاهدة رؤية وإثبات.

حدثت الرجل بالفرنسية أثناء الطريق فظهر لي أنه إيطالي يتكلم الفرنسية برطانة إيطالية، قلت له: لقد أردت قتلي ولكنني سأنقذك بشرط أن تدفع لي الثمن، وعلمته ما يجب أن يقول في المحضر، وقبل الرجل شروطي.

ولما سئلت في التحقيق قررت أنني رأيت الضارب الذي أطلق علي النار وهو شاب يرتدي ثوبا أبيض، ورأيت هذا الخواجة ينتزع المسدس من يد الضارب، وفي نفس

اللحظة طوقته الراقصة بذراعيها وأخذت المسدس بعد سقوطه على الأرض وهي ممسكة به فظنته المجرم الذي أطلق الرصاص، فاستولت الدهشة على الحصرية.

وسئل الخواجة فقرر في إجابته ما ذكرت في إجابتي، فتهدم الاتهام، ولكني عرفت اسم الخواجة وعنوانه، وخرجنا بعد انتهاء التحقيق فتحدثنا كأصدقاء، ثم جلسنا على مقهى بللافيستا في ميدان باب الحديد.

وصرح لي الرجل بأنه مستأجر لقتلي، وأن المحرض رجل ذكر لي اسمه ووصفه لي وصفا دقيقا أدركت منه أنه من أتباع البرنسيس فيزنسكي ...

تركتني المرأة كل ذلك الزمن حرا طليقا آمنا لأنها كانت متغيبة عن مصر، فلما عادت وضعتني تحت مراقبة أحد رجالها ثم دبرت لي هذه الحادثة.

هل البرنسيس فيزنسكي مجرمة؟

لماذا تلجأ إلى الاجرام للانتقام مني؟

البرنسيس امرأة رغم بلوغها سن الكهولة، لها غريزة وعاطفة لأن قلب الإنسان لا يشيخ، والحب في أفئدة الشيوخ أعظم رسوخا وأقوى اشتعالا منه في قلوب الشباب، فكذلك الصدق أو الخيانة أو الغدر تترك أثرها في الشيوخ عميقا حادا يحول العاطفة من الحب الراسخ العنف إلى الكراهية وبغض ورغبة قوية في السحق.

كل خيبة في الحب تبعث في النفس الألم، وفي الأعصاب زلزلة، وفي العقل ما يثير الغضب الشديد والحنق، ولكن هذه الحال يزول تأثيرها عند الشباب بسرعة، وتدوم في الشيوخ كما يدوم الحب.

يحب الشاب حبا خاطفا يتأثر بالحسن أو بالجاذبية، فيندفع إلى حد الولع بالأنثى التي أحدثت في فؤاده هذا التأثير، فإذا ارتوى الظمأ بنيل الأمنية تفتر حرارة الشوق وتقل الرغبة حتى تتلاشى، لأن قوة الحيوية ونشاط العاطفة يبعثان على التوثب لا على الاستقرار، على قياس رعونة الصغار ونشاط الشباب وبطء حركات الكهل أو الشيخ،

فالحالة العاطفية في الشباب والشيوخ تماثل الحالة البدنية في النشاط والهدوء.

وغاية الحب عند الشباب المتعة، ولكنها عند الشيوخ غاية الحياة ونهاية الأمل، لأن الشيخ يركز فيها بقية حياته وكل أمانيه، فإذا صدمته الخيبة تصدم مع عاطفته حياته ذاتها.

والحب الخاطف الذي يجيء مصادفة أو بتأثير رؤية محاسن ليست له قوة الحب الذي تغذيه الرغبة في زمان طويل المعاشرة والعناية والرعاية والاعتياد، لأن جذوره تتغلغل في الفؤاد كتغلغل جذور الشجرة في الأرض مع طول الزمن واطراد نمو النبات ..

وهكذا كان حال البرنسيس، كونت شابا على الصورة التي تريدها، تولته بالرعاية والعناية وألفته بالمعاشرة، وظنت أنها امتلكته خاصة لنفسها فند عنها وهدم أملها المركز أو غاية حياتها الباقية، فأحدثت الصدمة تأثيرها العنيف في نفسها وحولها من الإشفاق والعطف إلى الرغبة ف المعاقبة بكل وسائل الانتقام للسحق.

على هذا الأساس يكون اندفاع البرنسيس فيزنسكي للانتقام مني تصرف له بواعث نفسية، ولست أنكر أن لها الحق في الغضب وفي محاولة معاقبتي على العقوق ونكران المعروف، ولكن من حقي أيضا محاولة الهب من الأذى والدفاع عن نفسي حبا في السلامة بشرط أن لا أقابل الشر بالشر.

فشلت محاولة قتلي بالرصاص، ولكن الحادثة نبهتني لوجوب الاحتراس التام، فامتنعت عن الذهاب إلى المقاهي في مواعيد منظمة زيادة في المحاذرة، ولكن الحذر لا يمنع القدر.

بدلت مكان التسلية بغيره، فإذا نال مني ضيق الصدر أثناء غياب فرنسين الإسرائيلية، أقصد إلى قهوة غناء الخواجة لياس بشارع كلوت بك، فأسمع الغناء وانصرف في هدوء بدون أن أشعر أحدا بوجودي، فلا خمر ولا مجلس سمر ولا محاولة تعارف بالراقصات بالرغم من وجود شفيقة القبطية في تلك القهوة.

وأراد القدر أن يلعب في غفلة مني فهيأ لي في ليلة مقابلة ضابط في الجيش كان من زملائي في المدرسة الحربية، فسررت بهذا اللقاء ودعوته لتناول العشاء معي، وشربنا كثيرا من الخمر، فجره السمر إلى التحدث عن حادثة غرامه بصديقة له تدعى "منتهى الأمريكية" وهي راقصة في قهوة لياس.

تحدث عن حبه ووصف ما يعانيه منه، وذكر أنه حضر من السودان في إجازة لرغبته في قضاء الأيام معها، ولكن بينهما سوء تفاهم لا يريد أن يكون البادئ بمحاولة إزالته، وطلب مني معاونته برأيي ... فاقترحت أن أسبقه إلى القهوة وأطلب "منتهى" لتشرب معي ما تشاء، فلا تستطيع الرفض لأن طلب الخمر هو صناعتها وعملها المفروض عليها، ثم يحضر هو فأناديه كأنني لم أره من قبل، وأحتفي بقدومه بسبب الزمالة القديمة وطول الفراق، وألح عليه للجلوس معنا كأنني أجهل العلاقة التي بينه وبين الراقصة، وفي هذا المجلس تحمل ظروفه الصديقين على الصلح ...

أعجب الاقتراح صديقي وبادرت بالتنفيذ، فقصدت إلى المقهى وجلست قليلا ثم طلبت الراقصة فحضرت، ولم يكن بيننا تعارف، ولكنها علمت من الخادم أنني كنت صديق شفيقة وحميدة، وأنني أنفقت عليهما مالا كثيرا، فاطمأنت للزبون الجديد أنه صيد دسم، فجاءت على فمها ابتسامة عريضة، وفي عزمها محاولة الاقتناص.

طلبت زجاجة كونياك فشربناها في زمن طويل لأنني استرحت لحديث الغانية المعقول، ولكن زميلي لم يحضر فظننت أن طارئا عطله ولكنه سيحضر، ورأيت من الضروري استبقاء الراقصة إلى جانبي حتى لا أضيع الفرصة التي هيأتها لإتمام المصلحة، فطلبت زجاجة ثانية، وشجعتنا الخمر على الانطلاق في المحادثة وتنويع موضوعاتها حتى حان وقت انصراف الجمهور وإغلاق القهوة، فألحت علي "منتهى" لنتمم السهرة في بيتها فقبلت.

نهضت من الفراش في النهار الثاني وعزمت على الانصراف، فوضعت على منضدة شيئا من النقود أجرة البيت، فأظهرت المرأة استياء وأصرت على رفض النقود،

وعبرت عن شعورها بأنها ارتاحت لحديثي وخلقي لأنني لست كسائر من عرفتهم من الرجال الذين يهدفون بالسهر معها إلى غاية حيوانية، وأكدت أن سرورها بمعاشرتي القصيرة في تلك السهرة أعظم من الابتهاج بأي ربح تحصل عليه.

ورأيت من الكياسة أن أقابل ظرفها بمثله، وعزمت على تعويضها ثمن النقود هدية تساوي ما كنت أريد دفعه، فرجوت منها أن تخرج معي للتسلي بنزهة قصيرة، فلبت رجائي وخرجت معي في عربة، ولما وصلنا إلى ميدان العتبة الخضراء (ميدان الملكة فريدة الآن) طلبت من السائق دخول شارع الموسكي، ثم نزلنا أمام محل تجاري اسمه (**La belle jardinière**) لصاحبه الخواجة أسايس ..

رجوت منها أن تختار معطفا أو ثوبا ليكون الهدية الأولى مني، فامتنعت أولا فألححت عليها حتى قبلت، فصعدنا إلى الطابق الأول، وبدأ العمال يعرضون عليها البضاعة وأخذت تختار وتقيس، وتنبهت شهيتها إلى الحد الذي أزعجني، دفعها الطمع إلى أقصى الحدود حتى كومت ركاما من البضائع المختارة ..

كان في عزمي أن أدفع مبلغا لا يزيد عن عشرة جنيهات، فبلغ ما كومته رقما زاد على مائتي جنيه، ولم يكن في مقدوري دفع هذا القدر من المال، فأصررت في سري على عدم الدفع وعلى الهروب من هذا المأزق، فتركتها تختار ما تشاء من كل جديد من المغريات، وبارحت المكان بدعوى أنني ذاهب لاستحضار ساعة لي في دكان قريب.

أبعدت عن الشارع كله وكلمت الخواجة أسايس بالتلفون، ونبهت عليه بعدم تسليم أي شيء للسيدة حتى أحضر وأدفع الثمن، ثم أرسلت له بعد الساعة الخامسة كتابا قلت فيه إنني لن أشتري ما اختارت لأنه كثير دفعها الطمع إلى الرغبة في الحصول عليه، وأرسلت مع الكتاب اثنين جنيه تعويضا عن الوقت الذي ضاع في عملية عرض البضائع.

هذا التصرف يمنع كل الشك ويجعل الحادثة بعيدة كل البعد عن أي فكرة إجرامية، ولكن الخواجة أسايس رفع شكوى إلى النيابة يتهمني بمحاولة الاحتيال عليه.

وقدم الخواجة الياس صاحب المقهى الذي ترقص فيه "منتهى" بلاغا يدعي فيه أنني شربت خمرا مع الراقصة في المقهى حتى سكرت وفقدت صوابها، ثم نزعت من يديها سوارا من الذهب أمام شفيقة القبطية وأمامه وبحضور اثنين من الخدم، وأنني وعدت أمامهم برغبتي في استبدال السوار بآخر مرصع بالماس، وانضم إلى الشهود رجل آخر أدعى أنه كان يجلس معنا في المجلس ويشرب معنا الخمر.

وألقي القبض علي وتولت النيابة التحقيق في البلاغين، فقررت في دفاعي في حادثة أسايس أنها ليست جريمة نصب ولا شروع فيه، لأن عرض البضائع والامتناع عن الشراء عملية عادية تحدث بين كل شاري وبائع، ولأن الخواجة لم يدع أنني

حاولت أخذ البضائع أو نقلها من محله التجاري، ولأنه اعترف بأنني نبهت عليه بعدم تسليم أي شيء لمنتهي قبل حضوري ودفع الثمن ..

ودفعت الاتهام الثاني بأن الادعاء على هذه الصورة غير معقول، لأن الذي يريد سلب سوار من يد امرأة سكرى لا ينفذ رغبته في مقهى مزدحم بالناس ولا أمام الخواجة وخدمه وراقصة أخرى، وأنكرت أن ثالثا كان معنا في مجلسنا وسط المكان ..

ولكن النيابة لم تقتنع بهذا الدفع المنطقي، واعتبرت الحادثة جريمة نصب، وحادثة أسايس شروع في نصب، وأمرت بحبسي احتياطي، فأرسلت إلى السجن.

واستدعيت مرة ثانية للنيابة لتسمع في حضوري شهادة الشاهد الذي أدعى أنه كان في مجلسنا أنا والراقصة، فاستولت علي الدهشة حين رأيت وجه الرجل لأنه من أتباع البرنسيس فيزنسكي، رأيته في الإسكندرية في بيتها مرات ولكنني لم أسمع اسمه لانعدام الصلة بيني وبين أتباعها.

شهد الشاهد بأنه كان في مجلسنا لأنه صديقي، وأكد أنه رآني ألح على الراقصة للإكثار من شرب الخمر، ورآني وأنا أنزع السوار من يدها مع الوعد باستبداله بآخر محلى بالماس.

أدركت في الحال أن اليد الخفية لا زالت تعمل في الخفاء لتحضير وسائل الانتقام، وأيقنت بأن الحكم ضدي سيكون شديدا، لأن الأحكام الأولى التي صدرت ضدي أحدها سنة، وهذه السوابق تحول الاتهام الجديد من جنحة إلى جناية، فيجوز للمحكمة أن تحكم بالأشغال الشاقة لغاية خمسة أعوام ..

لقد رضخت للأحكام الثلاثة الأولى احتراما لها مع أنني المفرد الذي يعرف حقيقة التهم التي أسندت إلي، ولأن القضاء مرغم على تنفيذ حرفية القوانين بعد سماع شهادة الشهود، ولكن الاستمرار في الرضوخ لنظرية احترام الأحكام معناها إضاعة سني عمري بسبب التهم التي تكال لي وصدور أحكام ضدي بسببها.

من حق كل إنسان الدفاع عن حياته والاحتفاظ بالسلامة، ففي مقدوري عدم مخالفة القانون، ولكن ليس في مقدوري دفع اتهام باطل تدبر أسبابه وتجمع اليد الخفية الشهود الزور لإثبات الإدانة، فصار من المحتم علي أن أحمي حياتي من خصومي، والوسيلة المفردة للتمكن من الحماية هي عدم تنفيذ ما يصدر ضدي من الأحكام، وهذه النظرية والوسائل التي لجأت إليها لتنفيذها هي التي خلقت شهرة حافظ نجيب ..

الهروب الأول

لم تتركني فرنسين أثناء هذه المحنة، جازفت بكرامتها وحضرت إلى فناء محكمة الموسكي الجزئية في النهار المحدد للتحقيق الأخير معي، وصلت مبكرة حتى قبل نقلي من السجن إلى بناء المحكمة حيث تحقق النيابة قضيتي، ولما أودعت غرفة السجن هناك رأيت لتلك الغرفة نافذة مفتوحة عليها قضبان الحديد ولكنها نافذة عادية فاستطعت التحدث مع صديقتي ساعتين قبل استدعائي للتحقيق.

أحضرت المرأة المخلصة معها طعاما شهيا، فتناولته من بين القضبان ووضعته على حافة النافذة من الداخل وبدأت عمليتي الأكل والكلام، قلت:

– أنا لا أشك في طيبة قلبك وصدق إخلاصك يا عزيزتي، ولكنني في حاجة لأكثر من الطيبة والإخلاص، فهل في استطاعتي الاعتماد على عقلك وعلى جرأتك؟

قالت: بل اعتمد على كل ما أملك.. الإخلاص والعقل والعاطفة والجرأة والمال، وسأبحث من اليوم عن محام قادر ليتولى الدفاع عنك.

قلت: لا حاجة لي بالمحامي إطلاقا، لأنني قررت العدول نهائيا عن الدفاع عن نفسي أمام القضاء، ولي وسيلة أخرى للخلاص، يتعذر أن تتم بدون معاونتك الجدية ..

قالت: تلكم .. سأنفذ كل ما ترجوه بدون تردد.

قلت: ما سأعرضه عليك مغامرة جريئة جدا، ولكنها السبيل المفرد لنجاتي من الخطر الذي ألقيت فيه، ومن حقي أن أشك في قدرة سيدة على تعريض نفسها للضرر بسبب دقة ما أطلب وصعوبة التنفيذ.

قالت: إذا كنت واثقا من النجاة بدون أي شك تجدني مستعدة للمغامرة مهما بلغت خطورتها.

قلت: أنا على يقين من الخلاص إذا نفذت خطتي حرفيا ..

قالت: سأنفذها حرفيا رغم جميع العقبات والطوارئ .. فتكلم بسرعة قبل فوات الوقت وضياع هذه الفرصة.

قلت: أنت المرأة المفردة التي تستحق الوفاء لها والإعجاب بطيبتها وإخلاصها.

قالت: دع هذه العبارات الجوفاء لا تضيع بها الوقت وهات ما عندك.

طلبت إليها تقريب أذنها مني وتوجيه وجهها للفناء ففعلت، فأسررت إليها إسرار، ورسمت لها الخطة التي أعددتها للهروب، أما هي فكانت تصغي إلي بانتباه تام حتى انتهيت، وطلبت تكرار بعض العبارات فكررتها.

قالت: سأكتب الآن مذكرة موجزة بما سمعت محاذرة من النسيان، وأعدك بتنفيذ رغبتك حرفيا كما رسمها خيالك وكما سمعتها منك فاطمئن.

وتم التحقيق أمام وكيل النيابة ثم أعدت للسجن بعد الظهر، فلما خولت إلي نفسي في الزنزانة، جعلت أفكر في الخطة وما تحتاج إليه من العناية اللازمة ومن الدقة في التنفيذ، ثم تولاني انقباض الصدر والكآبة لأنني رجحت عدم النجاح بسبب الدقة التي يحتاج إليها التنفيذ بينما يكون الاعتماد كله على سيدة ليس لها مران في مثل هذه الأعمال ...

مكثت أكثر من أسبوع وأنا في ضيق شديد لا يفارقني القلق وضيق الصدر.

ولم يكن من الحرص والوجب أن أحاول التحدث إليها في كتاب أسلمه لسجان أعده بأجر كبير، لأنني بهذا التصرف السيء أعرض نفسي وأعرضها للفضيحة، فآثرت الصمت والصبر رغم حالتي النفسية المضطربة.

سمعت في باكورة أحد الأيام جاويش الطابق الذي كنت فيه ينادي اسمي للذهاب إلى نيابة شبرا، فانتفض جسمي من تأثير ما سمعت، أدركت أن الخطوة الأولى من خطتي بدأتها فرنسين في جرأة ونجحت.

كان التدبير الذي رسمته لها: أن تذهب سيدة جميلة أنيقة إلى وكيل نيابة شبرا وتبلغه شفويا هذا البلاغ:

عرفت شابا اسمه إبراهيم أفندي محسن يدعي أنه سمسار ووكيل أشغال، وقد اعتادت أن تكل إليه شراء بعض حاجاتها من المحلات التجارية وفي بعض الأحيان من الصاغة، ولكن ما تساويه هذه الأشياء زهيدا لا يغري بالطمع للحصول عليه، واستمرت هذه العمليات البسيطة أكثر من عام حتى اطمأنت للشاب ووثقت به.

وحدثت مفاجأة أن قرطا لها من البرلنت يساوي ٣٠٠ جنيه انفصل جزؤه الأعلى عن الأسفل، وكانت تحتاج لإصلاحه بسرعة لأنها ستتحلى به في المساء لتذهب إلى حفلة عائلية، فعزمت على الخروج والقصد إلى صائغ ليصلح القرط، يضع له حلقة صغيرة بدلا من التي كسرت أو يلحم المكسورة.

وتقول: إن الصدفة جعلت إبراهيم أفندي محسن يزورها وأعطيته القرط المكسور ليسألها هل تطلب قضاء حاجة؟ قالت: فسررت بهذه الصدفة وأعطيته القرط المكسور وطلبت منه إصلاحه في الحال لأنني في حاجة إليه في نفس النهار، فوعدني برده في عصر اليوم ولكنه طلب "الفردة" الثانية حتى يتم الإصلاح مع حفظ مقياس طول الفردتين، فسلمته القرط كله بدون تردد ولا شك بسبب الثقة التي اكتسبها والتي حملتني على الاطمئنان.

وقالت: ولكن إبراهيم أفندي غاب خمسة شهور ولم يرد لي القرط ولم أر وجهه من تلك الحادثة فأدركت أنه محتال خبيث، حملني بنشاطه وبأمانته على الثقة به ليغتنم فرصة تمكنه من اختلاس شيء له قيمة.

وقالت: وقد سمعت من حكايات الناس أن الحكومة ألقت القبض على محتال مشهور يدعى حافظ نجيب، ورجحت بعض صديقاتي أن يكون هذا الشقي هو الذي سمى نفسه كذبا إبراهيم أفندي محسن وتمكن بالحيلة من أخذ قرطي ..

ثم ختمت السيدة التبليغ بهذه العبارة:

وأنا التمس من النيابة عرض هذا المحتال علي فربما يكون حافظ نجيب هو إبراهيم محسن سالب القرط.

فاستدعاني لنيابة شبرا معناه أن فرنسين نفذت هذه الخطة، وأن سيدة ذهبت إلى وكيل النيابة وبلغت على هذه الصورة فأرغمت نيابة شبرا على طلب حضوري من السجن لعرضي على الشاكين في ذلك النهار ..

كدت أرقص من الفرح لأن بيني وبين الهروب من السجن دقائق قليلة إذا نجحت فرنسين في تنفيذ الجزء الباقي من التدبير وهو الأهم الذي يحتاج للمهارة والجرأة والدقة في التنفيذ.

كان المتبع في ذلك الحين أن كاتب السجن يكتب بيانا بأسماء المسجونين المطلوب نقلهم من السجن إلى النيابات أو إلى الجلسات، ويسلم هذا البيان إلى رئيس السجانين في عصر النهار ليسلم المسجونين في الصباح إلى الحراس الذين يقودنهم فرادى أو أزواجا أو جماعات إلى الجهات التي طلبت إحضارهم.

وترسل إدارة السجن بيانا آخر إلى محافظة مصر لتطلب جنودا من أقسام البوليس يتولون نقل كل مسجون إلى المكان المطلوب إرساله إليه.

وترسل المحافظة هذا البيان إلى المأمور المعين للنوبة من بعد ظهر النهار إلى صباح النهار التالي، ويحول المأمور هذا البيان إلى عامل تليفون المحافظة لينبه على كل قسم بوليس بإرسال الجندي أو الجنود المطلوبين منه مع ذكر عنوان النيابة أو المحكمة المطلوب نقل المسجون إليها.

وكان من النظام المتبع أن يطلب جندي واحد إذا كان المطلوب حراسته مسجونا واحدا أو أثنين فيوضعان في قيد واحد من الحديد ويكفي الجندي للحراسة، ويطلب اثنان من الجنود لما يزيد عن اثنين، أما إذا كان العدد كبيرا فتطلب له عربة السجن.

لم تكن جلسة محكمة شبرا في اليوم الذي استدعاني فيه النيابة لعرضي على السيدة الشاكية، إذن سيطلب جندي واحد لحراستي، ولكن أحدا لا يعلم من هو الجندي ومن أي قسم سيطلب، فيتحتم معرفة الجندي في مساء هذا النهار بالوسيلة الآتية:

يدخل الجاسوس من باب المحافظة فيمر في قبو على يمينه حجرتان، الأولى بها الجنود المعينون للحراسة على مدخل سراي المحافظة، والثانية بها آلة التليفون والعامل الذي يؤدي عمله بها.

فإذا انتهى من القبو ووصل لنهاية الغرفة الثانية يجد أمامه فناء المحافظة وعلى اليمين متسع من الفضاء، يؤدي إلى باب به سلم يصعد إلى الطابق الرابع من بناء سجن الاستئناف، ويسكن ذلك الطابق في ذلك الحين جنود من بلوك النظام.

فإذا انحرف الداخل إلى هذه الجهة من نهاية حجرة التليفون يجد في ضلعها المطل على هذه الناحية نافذة كبيرة مردودة، ووراءها يقع موضع التليفون والعامل الجالس أمام الآلة، فإذا تكلم في الآلة يسمعه الواقف بجانب النافذة من الخارج.

في هذا المكان المحدد وقف الذي اختارته فرنسين لتنفيذ الخطة المرسومة لها، فسمع عامل التليفون يبلغ الأقسام الأمر بإرسال الجنود المطلوبين لحراسة المسجونين الذين سينقلون إلى شتى الجهات في الساعة السابعة من صباح النهار الثاني.

كان المطلوب منه سماع اسم قسم البوليس الذي يناط به إرسال الحرس لنيابة شبرا، فأصغى للأوامر حتى قال العامل:

– يا قسم الدرب الأحمر .. يا قسم الدرب الأحمر .. خذ الإشارة دي.

"مطلوب إرسال عسكري واحد لسجن الاستئناف الساعة ٧ صباحا لتوصيل مسجون واحد لنيابة شبرا .. والإمضاء المأمور النوبتجي".

وتبدأ العملية الثانية بعد ذلك في قسم الدرب الأحمر نفسه وهي مراقبة توزيع

العمل على العساكر، بعضهم للدورية وبعضهم للنوبة، وبعضهم لحراسة القسم أو .. أو ... ثم توزع الأعمال الخارجية ومنها: العسكري عبدالكريم عبدالله (مثلا) لسجن الاستئناف لتوصيل مسجون لنيابة شبرا.

يعرف الجاسوس اسم العسكري المنتدب ويرى وجهه، ويلبث يترقبه حتى يخرج يريد العودة إلى بيته فيسير في أثره حتى يدخل البيت، ويعود إليه في الفجر ويتربص له حتى يخرج من البيت ويذهب إلى القسم، وينتظره حتى يأخذ القيد الحديد من الداخل ويتجه إلى الشارع الذي يوصله إلى المحافظة وبها سجن الاستئناف، فيسير خلفه ..

والغرض من هذا الاحتياط المحاذرة من استبدال الجندي بغيره لسبب طارئ، كالمرض في الليل أو الموت مثلا، فيقتضي الحرص والدقة في التنفيذ مراقبة الجندي حتى ينشط لتأدية المطلوب منه.ويسير المراقب خلف الجندي وعلى قرب منه حتى يصل إلى شارع تحت الربع، وهناك يرى زميلا له آتيا من الجهة المقابلة فيشير إليه بيده يدله على الجندي ثم تنتهي عمليته وينصرف.

أما الزميل الجديد فيكون في ثوب بلدي جبة وقفطان وعباءة وفي يده منديل كبير به طعام، فيقابل الجندي في بشاشة وابتهاج ويقول له:

– أهلا جاويش عبدالكريم ... يا ألف صباح الخير ..

ثم يصافحه كأنه يعرفه، فيظن الجندي أن الرجل رآه في القسم أو مارا أمام محل تجارته وهو في الدورية فعرفه ... ويرغم الجاويش على مقابلة التحية بمثلها.

فيسأله المحتال:

– خير إن شاء الله .. على فين العزم؟

ويقول الجندي – إن شاء الله على سجن الاستئناف.

ويقول المحتال – الحمد لله .. ربنا هونها علينا .. وحياة والدك يا جاويش تسأل عن الجاويش اللي رايح نيابة شبرا وتعطيه النصف ريال ده .. (يعطيه قطعة النقود)

وتوصية على المسجون .. يركبه الترام ويسقيه شاي في النيابة .. أصله قريبي ومطلوب منه كفالة اثنين جنيه .. وأنا رايح أفتح الدكان ثم أروح النيابة أدفع له الكفالة ..

تم تنفيذ هذه الخطة حرفيا .. وفرح الجندي بقطعة النقود لأنه سيدفع منها قرش صاغ واحد للترام والشاي ويصير الباقي حلالا له .. فابتسم للتاجر وقال:

- ده أنا نفسي اللي رايح نيابة شبرا مع المسجون بتاعك ..

فضحك المحتال وقال: الحمد لله .. تعالى .. خد وياك فطوركم ... والله يا جاويش عبدالكريم حماتك تحبك .. أصل عمتي تعز ابنها وعاملة فطور عال بتاع بهوات ..

وتأبط ذراع الجندي وسار به إلى قهوة بلدي على الطريق، وفتح المنديل أمامه وأخرج من جيبه جريدة نشرها على الدكة، وتناول مما في المنديل فطيرا شهيا وجبنا وحلوى وضعها على الجريدة، وألح على العسكري ليفطر، فتنبهت شهيته للطعام اللذيذ وجعل يأكل والتاجر يحدثه عن المسجون.

قال: عمتي خائفة على ابنها مع إن المسألة بسيطة جدا .. والنيابة مادام طلبت ٢ جنيه كفالة يعني رأيها إن حكايته فالصو، ويمكن تحفظ الشكوى وتفرج عنه النهاردة، ولكن لابد من الاحتراس والذهاب للنيابة لدفع المبلغ المطلوب ...

فقال العسكري: الحرص واجب على كل حال .. وأنت سيد العارفين.

وتناول المحتال كمية ثانية من الفطير وضعها أمام الجندي وألح عليه ليأكل، واستطاب الرجل الطعام الشهي فأطاع بدون تردد بل باشتهاء ...

وفكر المحتال لحظة ثم قال: والله يا جاويش عبدالكريم أنا مشغول النهاردة قوي .. ووراي دفع كمبيالتين للتجار .. فإذا كنت تعمل معروف تأخذ معاك الأثنين جنيه، ولما تروحوا النيابة تخلي ابن عمتي يدفع الكفالة ويوفر علي المشوار ..

وفتح المحتال كيسه بسرعة ووضع في يد العسكري ٢ جنيه من الذهب ومعهما نصف ريال آخر .. وقال:

– الحتة أم عشرة دي كنت حاصرفها في المشوار وأضيع النهار على نفسي .. فأتفضل اصرفها أنت بدالي ..

وزاد ابتهاج العسكري بالرزق الحلال الذي ساقه الله إليه بدون عناء وبدون أن يطلب منه شيء يظنه مخالفة تضره .. وطلب المحتال لسي عبدالكريم قهوة وتعميرة ..

وقال له: الوقت لسه بدري .. النيابة ما بتشتغلشي قبل الساعة ٩ .. وحكاية الجدع كلها يروح يدفع الكفالة ويفرج عنه ..

اطمأن العسكري لأن في جيبه مقدار الكفالة، وريال كامل رزق من عند الله، وحكاية المسجون سهلة، دفع الكفالة للإفراج عنه، فجعل يأكل بتمهل، وشرب القهوة وحبس بالتعميرة .. ثم استأذن من التاجر الكريم ليذهب إلى السجن، فصافحه المحتال وانصرف.

من باكورة النهار يصف السجان المسجونين المطلوبين للنيابات أو الجلسات المحاكم في فناء السجن، يجلسون القرفصاء بجانب الحائط وينادي عليهم بالأسماء من البيان المكتوب: فلان جلسة عابدين .. وفلان نيابة الموسكي .. وحافظ نجيب نيابة شبرا ..

ويصل المنتدبون للحراسة فرادى في فترات متقطعة، يدق القادم جرس الباب فيفتح جاويش البوابة نافذة صغيرة في الباب يطل منها ليرى الطارق، ثم يفتح الباب ويدخل العسكري ويقول: نيابة عابدين مثلا .. ويكرر الجاويش العبارة بصوت مرتفع، فينهض المسجون ويقترب من الجاويش البوابة والجندي الذي حضر لاستلامه.

يقدم المسجون يديه للقيد الحديد فيقيده الحارس، وهو يجيب على أسئلة جاويش البوابة:

– اسمك إيه؟ – محمد عمر .. – نمرتك كام؟ .. – ١١٥ .. – من أي قسم؟ .. – من الجمالية ..

يسجل الجاويش هذه البيانات في سجل الباب ثم يطلب ختم العسكري ليختم به في السجل اعترافا منه باستلام المسجون، ويفتح له بابا السجن فيخرج ومعه المقبوض عليه.

دق جرس الباب ودخل عسكري وقال: نيابة شبرا .. فحضرت ووضعت يداي في القيد .. وسئل الجندي عن اسمه كالعادة المتبعة فقال: مرسي مُحَمَّد .. نمرة ٢٧٤ (مثلا) – قسم عابدين .. وسلم ختمه للجاويش فختم به في السجل، ثم فتح باب السجن فخرجنا منه إلى فناء المحافظة! .. وقطعنا الفناء وأنا أتوهم أن الثواني التي تمر أعوام طويلة .. واجتزنا القبو ووصلنا إلى ميدان باب الخلق، ثم اتجهنا في شارع مُحَمَّد علي حتى بلغنا دار الكتب، وإلى جانب الرصيف رأيت عربة في الانتظار وفيها فرنسين، فركبت إلى جانبها وناولت الجندي الذي لعب دوره ١٠ جنيه ذهبا فانصرف، وانطلقت بنا العربة إلى المسكن الذي أعدته لي للاختباء فيه!

كانت فرنسين في ثياب الحداد، وعرفت منها أن زوجها مات لأنه كان يشكو من ربو مزمن زمن علة في القلب، فعزيتها فقالت:

المصيبة فادحة فلم يعد لي في الدنيا صديق سواك .. وأنت عاجز عن معاونتي لأنك هارب تطاردك الحكومة ..

قلت: لا تتوهمي أن المطاردة ستكون سببا في عجزي عن التمتع بكل حريتي إنهم سيطاردون حافظ نجيب ولكنني سأترك لهم الاسم الذي يلوثونه والصورة التي خلقها الله وسأتحول إلى إنسان جديد يحمل اسما نكرة ووجها كاذبا فأختفي عن العيون في ظلام التنكر، ولكنني سأعيش بين الناس وأبصارهم وأمتع نفسي بكل ما على ظهر الأرض من الملذات.

وقلت هوني عليك الأمر فلن تكتشف الحكومة نبأ هروبي إلا بعد أسبوع، وقبيل الظهر في مثل هذا اليوم من الأسبوع الجديد، وحينذاك تبدأ المطاردة ..

إذن أمامنا سبعة أيام كاملة تكفي لخلق الإنسان الجديد والاسم الكاذب ولإيجاد

المسكن الظاهر الذي يمكنني من الاختفاء فيه ظاهرا للعيون بدون أن تكشف أمرى أو تهتدي إلى سري.

قالت: أظنك تمزح؟

قلت: بل هي الحقيقة، وهي الوسيلة التي تربك خصمي العنيد فيعجز عن تدبير وسائل الانتقام مني بالكيد أو بالقتل لأنه لن يعرف مكاني.

لم يصل حافظ نجيب إلى نيابة شبرا، ولم تحضر أيضا السيدة التي شكته، فلم يعبأ وكيل النيابة بالأمر وأجل التحقيق أسبوعا لأنني في اعتباره مسجون لسبب آخر، وأمر بإعلان الشاكية بالعنوان الذي ذكرته في محضر التحقيق لتحضر هي الأخرى في نفس اليوم الجديد الذي حدده لاستحضاري من السجن لعرضي عليها.

ووصل كتاب من النيابة لإدارة السجن يأمر بإرسالي لنيابة شبرا في ذلك التاريخ، فأودع الكتاب في درج الكاتب المختص لينفذه في الموعد المحدد.

أما جاويش الطابق الذي فيه محبسي فإنه تمم على المسجونين الذين في عهدته، وثبت له أنني أرسلت في الصباح إلى نيابة شبرا ولم أرد ثانيا للسجن، فبلغ الأمر إلى الباش سجان عند النداء عليه، وقال:

- تمام يا أفندم ماعدا واحد مسجون في نيابة شبرا.

- واستمرت عملية "التمام" على هذه الصورة طول الأسبوع: السجن ناقص واحد على ذمة نيابة شبرا ..

وجاء عصر يوم الأثنين الذي يسبق الثلاثاء المحدد لإرسالي للنيابة، فسجل الكاتب اسمي مع المطلوبين للنيابات أو الجلسات، واستلمه الباش سجان كالنظام المتبع وأبقاه في مكتبه إلى صباح يوم الثلاثاء ثم أعطاه لجاويش الطابق الذي أحبس فيه فنادى على الأسماء وأشر أمام اسمي بأنني غير موجود في السجن وأنني في نيابة شبرا من أسبوع ..

وجاء دوري أمام وكيل النيابة، فسأل عن الشاكية ونودي عليها وأثبتت أنها لم تحضر، وطلب المدعي عليه فقيل له إن السجن لم يرسله كما حدث في المرة السابقة فاستاء من تعطيل العمل، وطلب مأمور السجن بالتليفون وسأله عن سبب عدم إرسال حافظ نجيب لنيابة شبرا في هذا النهار ولا في الأسبوع الماضي مع وصول خطاب من النيابة للسجن بإرسال المتهم لإتمام التحقيق.

وطلب مأمور السجن الباش سجان وسأله بدوره عن سبب عدم إرسالي للنيابة، فأظهر الرجل التعجب وأكد للمأمور أنني أرسلت مع عسكري حارس إلى النيابة شبرا منذ أسبوع ولكن النيابة لم تردني ثانيا للسجن ...

ونبأ المأمور وكيل النيابة بإجابة الباش سجان، وأنكرت النيابة وصول المسجون إليها، فانكشفت الحقيقة بالتحقيق .. رجعوا إلى سجل باب السجن الذي يسجل فيه الوارد والصدار من المسجونين والجهات التي يرسلون إليها أو العائدين منها، فثبت أنني سلمت في التاريخ الأول للعسكري مرسي مُحَمَّد نمرة ٢٧٤ من قوة قسم عابدين وطلبت نيابة مصر (التي تولت التحقيق في حادثة اختفائي) من قسم عابدين إرسال العسكري المذكور للمثول بين يدي المحقق، فكانت إجابة القسم أن هذا الاسم غير موجود بين عساكر القسم وكذلك النمرة .. فحدث الارتباك .. وبلغ نبأ هروبي لمحافظة مصر، وهذه بلغته إلى رجال البوليس السري وإلى أقسام البوليس، ثم نشر نبأ الهروب في النشرة الإدارية التي تظهرها نظارة الداخلية، وانطلق رجال البوليس السري يبحثون عن الهارب .

مداعبة البوليس

لم يعجبني المسكن الذي اختارته فرنسين لأختبئ فيه، لأنها تعمدت أن يكون في درب داخل حارة يصل إليها من أزقة ملتوية مضللة، ظنت أن مثل هذا المكان يدعو للاطمئنان فنبهتها للخطأ، لأن حصري على هذه الصورة مثال حصر الفأر في المصيدة، ولأن أسلم وسيلة للاختفاء هي الظهور بين الناس وعدم الاختفاء.

ولم تتردد السيدة طيبة القلب المخلصة في تنفيذ رغبتي، وبحثت بجد حتى اهتدت لبيت يطل على ميدان الظاهر بابه من شارع فرعي، به مسكنان خاليان في طابق واحد، فاستأجرت لنفسها أحدهما واستأجرت الثاني باسمي المستعار، فكنا منفصلين أمام السكان متصلين على الدوام في غفلة من الجميع.

تنكرت في زي رجل تجاوز الحلقة الرابعة من العمر، وكان العصر عصر اللحى والشوارب فعاونتني الشعور الصناعية على إبدال ملامح الوجه بغيرها غريبة عن صورتي الأولى، واتخذت لنفسي قميصا ذا طبقتين من القماش بينهما كيس من المطاط يملأ بالنفخ فيه الهواء فيرتفع في شكل كرش من ذوي الجاه العظيم.

يصل الهواء إلى جوف الكيس بواسطة أنبوبة طويلة من المطاط ترتفع إلى الكتف ثم تثنى لناحية الذارع وتمتد على طوله وتختفي تحت سرار حابس شديد الضغط عليها وعلى الذارع نفسه، فيمنع هذا الضغط الشديد تسرب الهواء فإذا خلعت الأنبوبة من مكانها وزال الضغط الذي كان عليها، وإذا أزيلت الصمامة التي على فوهتها ينطلق الهواء من جوف الكيس إلى الفضاء بصوت يسمع.

كنت نحيفا لا يزيد وزني عن ٦٠ كيلو فضخمت بالهواء المحبوس بطني وفخذاي، فصار لي مظهر رجل بدين قصرت البدانة من طوله، فأصبح من العسير على النظر التقريب بين هذا الجسم الضخم وجسمي النحيل الطويل، حتى فرنسيس لم تعرفني

عندما فاجأتها لأول مرة بهذا التنكر.

كانت الكافية أجبسيين أرقى مقهى في القاهرة، وهي قاعة مستطيلة فسيحة نظيفة مرتبة أحسن ترتيب، يقوم المسرح الصغير في الناحية القبلية منها، وبعده فرقة بنات للموسيقى الوترية تتكون من ١٢ عذراء من ذوات الجمال الصادق، يوردون لهذا المقهى لزمن معين، ويعشن جميعا في منزل واحد تحت رقابة حكيمة ويحضرن للعمل جماعة ثم يعدن إلى البيت على هذه الصورة.

ولم يكن من المانع من جلوس فتاة منهن إلى مائدة رجل إذا دعاها بواسطة "الندل" الجرسون، فتشرب قدحا واحدا تختاره وتنصرف حين يبدأ العمل من جديد بعد فترة الراحة.

ويلي فرقة الموسيقى في القاعة منضدتان للبلياردو، ثم طريق أمام أحد الأبواب الكبيرة، ويليه مباشرة صفوف المناضد، ومن النظام الدقيق في هذا المقهى الراقي الرقابة على الوافدين عليه فلا يسمح بالبقاء فيه إلا لمن لهم مظهر الوجاهة والعقل والأدب.

جلست في إحدى الليالي في الصف الأول الذي يلي البلياردو أسامر فتاة من فرقة الموسيقى، فرأيت رئيس البوليس السري المسيو كارتييه يدخل المقهى ويجلس إلى منضدة على يميني ومعه يوز باشي إيطالي يدعى رنده، جلسا يتحدثان بصوت وصل إلى سمعي واضحا.

تحدثا في شئون شتى ثم انتقل الحديث إلى حافظ نجيب .. فسأل كارتييه زميله هل نفذ أوامره، فقال نعم .. وذكر أسماء رجال البوليس السري الذين وزعهم على أماكن الغناء والرقص، ثم قال: الليلة يبدأ العام الجديد ولحافظ ولع بالمقامرة في هذه الليلة، ومن المرجح أنه سيذهب إلى الترو كاديرو لتجربة حظه، وسنذهب معا إلى هذا النادي قبيل نصف الليل عسى أن يساعدنا الحظ فنلقي القبض عليه.

نبهني هذا الحديث إلى الجهد الذي يبذله رجال البوليس السري للتمكن من القبض علي بسبب غرابة هروبي من السجن، وخطر لي في تلك اللحظة أن أداعب

رئيس البوليس مداعبة تثبت له أنه ساذج قصير النظر، ونفذت الفكرة في الحال.

أمرت الجرسون باستدعاء سائق عربة فحضر، فقلت له: إنني سأركب معه وقتا طويلا ولكنني سأدفع الأجرة بحساب أجرة ساعة، وقبل الرجل وتم الاتفاق على دفع ١٢ قرشا لكل ساعة.

وانتظرت حتى انصرفت الفتاة لعملها ودفعت ثمن ما شربت وخرجت من القهوة وركبت العربة إلى ميدان الأوبرا فقط، ودخلت مقهى هناك، وطلبت ورقا وكتبت بالفرنسية كتابا إلى رئيس البوليس السري هذه ترجمته:

كنت إلى جانبك الآن في الكافية إجيسين ومعي فتاة من فرقة الموسيقى، وسمعتك تتحدث مع اليوز باشي رنده عن الوسائل التي لجأتما إليها للبحث عني وآخرها ذهابكما إلى الترو كاديرو ... فكنت يا سيدي على مثال العالم الذي كان يبحث في السماء عن كوكب جديد بمنظاره الكبير وهو ذاهب عن طفله الذي يحبو عند قداميه فداسه ...

وعجزك عن معرفتي وأنا إلى جانبك وقتا طويلا يبعث في نفسي الاطمئنان لهذا العجز، ويجعلني أرتاح لتهنئتك بحلول العام الجديد.

حافظ نجيب

غلفت الكتاب وكتبت عنوان رئيس البوليس السري، واستدعيت سائق العربة فذكرته بالمكان الذي رآني جالسا فيه، ووصفت له المنضدة التي كانت إلى يميني وقلت:

– هناك ستجد اثنين خواجات أحدهما يدعى المسيو كارتييه تسلمه هذا الخطاب ثم تعود إلي بالإجابة عليه.

ودفعت له ريال من الحساب فاطمأن وعاد إلى المقهى، وسلم الخطاب إلى رئيس البوليس، ولست أدري كيف كان تأثير المداعبة في نفسه ولكني تخيلتها.

المداعبة الثانية

بلغت البوليس شفويا بأنني حضرت إلى مسكني في منتصف النهار فوجدت الباب مفتوحا ولكنه مردود، ووجدت خزانة الثياب مفتوحة تحطم قفلها، وضاع منها ثوبان وقمصان ومناديل وصندوق صغير به ساعة وسلسلة من الذهب، ودبوس به حجر من البرلنت وزنه ٦ قيراط، وخاتم به حجر من البرلنت وزنه ٤ قيراط، و٤٥ جنيها من الذهب.

أثبت أقوالي في المحضر وانتقل المأمور إلى المسكن ومعه كارتييه رئيس البوليس السري للمعاينة ولإثبات الحالة، ثم قيدت القضية ضد مجهول، وقد عاونت المسيو كارتييه في تعليل كيفية دخول اللص المسكن أثناء غيابي .. ونصح لي بوضع مزلاق من داخل الباب يثبته فلا يتمكن أحد من فتحه من الخارج زيادة في الحرص والاطمئنان ليلا ما دامت أعيش وحدي.

واطمأننت أنا لهذا المسكن وصاحبه أنهما سيكونان بعيدا عن مظان رئيس البوليس السري وعن أبحاثه الخاصة بحافظ نجيب، فعشت فيه في هدوء تام لا تبدله سوى سهرات ممتعة كل ليلة في المسكن المقابل للترويح عن نفس فرنسين بعد عودتها من عملها في الدكان ..

وتكهربت مفاجأة الجو الهادئ بمرض خطير فاجأ هذه السيدة المخلصة الوفية، وأمر الطبيب بنقلها إلى المستشفى ففعلت، ثم أجريت لها عملية بدأت خطيرة جدا ولكنها آلت إلى الشفاء، بعد قضاء أكثر من شهر في المستشفى الفرنساوى.

وقرأت يوما في الصحف نبأ جديد عن اتهام حافظ نجيب بالاحتيال على رجل إسرائيلي لسلب ساعته، وأن التحقيق تم وأحيلت القضية إلى قاضي الإحالة لتحويلها إلى محكمة الجنايات .. فأدركت أن اليد الخفية لا تزال في غيابي تكدس القضايا لتصدر

فيها أحكام ستنفذ إذا تمكن البوليس من القبض علي.

وتحدد للمحاكمة تاريخ معين فحضرت الجلسة مع الحاضرين لأتمكن من رؤية الرجل الذي وجه إلي هذه التهمة، فحلف اليمين وشهد بأنه صديق قديم لي، وأنه غاب عن مصر زمنا طويلا فلم يسمع شيئا من حوادثي التي وقعت أثناء هذه الغيبة ...

وقال: إنه رآني ليلة في بار فدعاني للجلوس معه وشربنا أقداحا من الكونياك، وطلبت منه رؤية ساعته الذهب فأعطاها لي ففحصتها ثم أبقيتها في يدي، ثم نهضت لقضاء حاجة وتركت الطربوش في مكانه على المقعد واختفيت.

وصدر الحكم بحبسي ٣ سنوات ...

كان خليل حداد معي في هذه الجلسة فثار وسألني لماذا أصبر على هذا الرجل؟

ولماذا لا أعاقبه؟ وقال: مادامت المحاكم تقتنع بقضايا من هذا النوع بمجرد سماع شهادة المدعي وتصدر فيها أحكاما بالإدانة وبالعقوبة فمن السهل على ملفق هذه القضية تكرار عمليات الكيد فيجمع ضدي أحكاما تستنفد كل عمري ..

ولكنني خالفت رأي صديقي وطمأنته بشرح ما في نفسي وما عقدت العزم عليه قلت له: لن أنفذ أي حكم من الأحكام التي ستصدر ضدي، سأترك لهم اسم حافظ نجيب يكيلون له التهم ويصدرون عليه الأحكام كما يشاء خصومي، سأختفي من العالم بجسمي وأترك لهم اسمي، وسأحمل أسماء كثيرة أختارها للظروف المتنوعة والمناسبات، فيعجزون عن الاهتداء إلي ويتعذر عليهم تنفيذ الأحكام.

ونشرت في الصحف المصرية رسالة شرحت فيها ما شاهدته في جلسة المحاكمة، وأكدت عزمي على عدم تنفيذ أي حكم يصدر ضد حافظ نجيب.

حادثة الحمام

جعلت لي مقرا ثانيا في قصر الشوق بين حي الجمالية وكفر الطماعين، غرفة واحدة أرضية يسكنها عم دؤدؤ، رجل تجاوز الأربعين يرتدي جلبابا أزرق يشد وسطه حزام من الجلد القديم، وينتعل بلغة، وله لحية محنية خفيفة، وعلى رأسه طاقية يلف حولها شد أحمر (نوع من القماش) وصناعته تاجر للأطفال.

وإلى جانب مسكنه الأرضي المظلم المحروم من الهواء ومن نور الشمس مصطبة منخفضة من الطيب يضع عليها مقاطف مملؤة بالتبن يغطيه الخيش، ويضع فوق هذا السطح في كل مقطف بضاعته من الحمص والفول السوداني واللب والفشار، ويعلق في حبل مثبت في الحائط حلوى تسمى خد البنت وهي شريط من الورق الملون لاصقة به سلسلة من قطع الحلوى خفيفة الوزن.

يعرض بضاعته في الأوقات التي يكثر فيها لعب الأطفال في الحارة، ويبيع لهم ما يشاؤون بالملاليم وأنصافها مع محاولة إرضاء كل زبون، ولكن طبع عم دؤدؤ يجعله قليل الثقة بالزبائن فلا يبيع لهم إلا نقدا، وله مزاج مضطرب فتارة يعرض بضاعته كل يوم وتارة أخرى يتغيب أياما يدعي أنه يقضيها في زيارة شيخه السيد البدوي وغيره من أولياء الله الصالحين.

كنت أتسلى بهذه العملية حين لا يدعوني العمل إلى مبارحة هذا المكان، فليس في مقدوري الانحباس طول اليوم في غرفة مظلمة يضيق فيها الصدر، فجعلت البيع للصغار تسلية ومظهر عمل يرغمني على البقاء داخل البيت المزدحم بالسكان.

وكنت أترك هذا المقر إلى غيره في شارع الشنواني، وهو مسكن أرضي في بيت له بابان واحد منهما في حارة تؤدي إلى الشارع، والثاني يؤدي إلى حارة ملتوية توصل إلى قرب الأزهر، وفي هذا المسكن جارية خرساء أتولى الإنفاق عليها.

فإذا رغبت في التنكر بصورة جديدة أتحول في هذا المسكن إلى زي مناسب أخرج به إلى مسكني في ميدان الظاهر، وهناك أتحول إلى التنكر الذي أغشي به المجالس العامة والمقاهي أو المكاتب التي يستدعي الأمر اللجوء إليها، ويقتضي الحال المرور على هذه المساكن بالتوالي لتعود لي شخصية عم دؤدؤ الهادئ الوديع.

وفوجئت يوما بدعوة لمقابلة المرحوم إسماعيل بك الشيمي في مكتبه، فكان من الضروري الوصول أولا إلى سكني بشارع الشنواني، ولكن الطريق من نهاية شارع أم الغلام إلى ميدان سيدنا الحسين كان مزدحما جدا في تلك الأيام بسبب المولد، فلابد إذن من شيء جديد يغطي عم دؤدؤ زيادة في التحصن.

أحضرت طبلية (صينية من الخشب) وضعت عليها حلوى المولد: مآذن من الحلوى وخيول وعرائس وسفن، وكلها حمراء وبيضاء كما يفعل باعة هذه الأنواع من الحلوى، فغطت الطبلية رأسي ودائرة كبيرة حوله، فاطمأننت وانطلقت في الطريق وأنا واثق من العيون أنها ستستقر على الحلوى الملونة لا على وجهي.

وصلت من قصر الشوق إلى شارع أم الغلام الضيق الطويل، وتجاوزت انحناء في الطريق ثم اعتدل الشارع مفاجأة فإذا بي أرى على بعد أمتار قليلة مني كارتييه رئيس البوليس السري ومأمور القسم وعسكري واثنين من البوليس السري في ثياب بديلة ...

أثرت المفاجأة ولم يكن في مقدوري العودة لأن أنظارهم كانت متجهة إلى ناحيتي، وكانوا على رأس حارة يعاينون منزلا على ناصيتها حدثت فيه حادثة هامة.

كان من الفروض علي أن أستقر بسرعة على رأي بدون الكف عن المشي في الاتجاه الذي كنت أسير فيه ..

وجدت مفاجأة جديدة مزعجة لم أكن أنتظرها، سقطت اللحية المستعارة والشارب على صدري وتدحرجا إلى الأرض، وثبت لي أن كارتييه رأى الحادثة لأنه ابتسم وحول رأسه إلى ناحية أخرى ليوهمني بعكس الواقع وليزيد في اطمئناني. وكان غرضه أن يصبر علي حتى أصل إليه فيطوقني بذراعيه ويلقي القبض علي ليكشف

شخصية هذا التنكر العبيط الذي تسقط منه لحيته بدون مبرر في الشارع ...

لم يبق بيني وبين هؤلاء الناس سوى خطوات، ولكن كارتيبه لم ينبه الذين معه لأمري، عقد العزم على مفاجأتنا جميعا بتطويقي، أدركت كل هذا وأصررت على عدم تمكينه من تنفيذ خطته ...

حول رأسه لناحيتي ليقيس مقدار بعدي عن ذراعيه، فاغتنمت هذه الفرصة السانحة وقذفت الطبلية لناحية وجهه بشدة فأصابت وجهه وصدمت حافتها أنفه فصرخ من الألم، وفوجئ الجميع بهذه الحادثة وتولاهم الذهول لحظة ولكنها كانت كافية للتخلص من البلغة التي تثقل خطواتي والانطلاق بأقصى سرعتي في الشارع الضيق كثير الالتواء.

وانطلق ورائي العسكري بحذائه الثقيل ورجال البوليس السري والمأمور، ولكنني أبعدت عنهم كثيرا وصار البعد بيننا يزيد عن خمسين مترا، وكنت أخشى الانعطاف لناحية الزحام فيرى الناس الهارب والمطاردين فيسدون في وجهي طريق النجاة ويلقون القبض علي.

وجاءت الصدفة بالفرج القريب ... رأيت أمامي باب حمام أعرفه منذ الطفولة لأن له باب يؤدي إلى طريق ضيق جدا يلتوي مرات ثم يصل إلى صحن الحمام، فإذا تجاوزته أصل إلى باب آخر للحمام ومنه إلى حارة توصل إلى شارع الشنواني.

لم أتردد طبعا في الاندفاع من الباب إلى السرداب، وفي قدمي شراب من الصوف البلدي (شغل يد) يقيني خشونة الأرض، ووصلت إلى صحن الحمام مندفعا بأقصى سرعتي، وإذا بي أفاجأ بنساء عاريات .. صرخن عند رؤيتي .. غلبهن الحياء في أول الأمر فجلس بعضهن القرفصاء وحجبن العورات بأيديهن، واختبأ بعضهن وراء الفسقية (النافورة) ليستترن وصياحهن يتعالى، فاغتنمت فرصة الارتباك وقطعت الصحن ووصلت إلى الباب الثاني للحمام في الوقت الذي وصل فيه المطاردون إلى المدخل المؤدي للصحن الحاشد بالنساء ..

فوجئ رجال البوليس بمشهد أبدان النساء العاريات فتولاهم الارتباك لحظة، وصرخ فيهم المأمور بالانطلاق في أثري، ولكن النساء غضبن أشد الغضب من جرأة الرجال الوقحاء فعمدن إلى القباقيب يضربن بها رؤوس الجماعة، وأسرع بعضهن إلى ماء النافورة يحملن منه في الطاسات ويرشن بها المهاجمين، وعلا الصراخ وارتفعت الأصوات .. فاستولى الرعب على المطاردين وانهزموا أمام كتائب النساء العاريات المهاجمات، وعادوا أدراجهم ساخطين ..

ونشرت بعض الصحف في النهار الثاني كلمة اعتذار لمن كن في صحن الحمام وعبارات شكر لدفعهن المطاردين وتعطيلهم عن اقتفاء أثري، فصارت الحادثة حديث الناس يتفكهون بها في المجالس، ولكنها صارت أيضا سبب يزيد في حنق رئيس البوليس السري علي وفي نشاطه للقبض علي.

رئيس النيابة

كان رجلا تقيا صالحا ولكن ذكاءه كان محدودا، وكان عنيدا في تصرفاته معي، اعتقد أنني مجرم خطير على الأمن العام، فيجب تطهير الهيئة الاجتماعية من وجودي فيها، وكان رأيي أنه غبي ومخطئ في اعتقاده فلا يجوز تمكينه من تنفيذ رغبته، وبقدر إلحاحه على البوليس السري لتنشيطه للبحث عني كان نشاطي يزداد لمداعبة هؤلاء الناس، وخطر لي أخيرا أن أداعب رئيس النيابة نفسه مداعبة لطيفة مبتكرة.

قررت أن أعمل خادما في بيته، فوسطت خليل صديقي ليتفق مع المخدم على إغراء دسوقي خادم رئيس النيابة ليخرج من بيت سيده ويخدم عند إفرنجية بأجرة مضاعفة، فنجحت الحيلة وخرج الخادم وأسند إليه عمله الجديد، وسخا خليل على المخدم وأعطاه جنيها، فصار له مركز ممتاز عنده.

واستدعاه في يوم آخر وعرض عليه خادما أسمر البشرة يقرب لونه من الزنوج ورجا منه أن يركزه في بيت محترم لأنه يعرفه من زمن طويل في خدمة صديق له مات، وزاد في قوة تأثير التوصية جنيه من الذهب انتقل من جيب خليل إلى يد المخدم.

وسر الرجل من تصرفات الزبون الكريم، وأخذني معه إلى دكانه بشارع محمد علي ليتولى أمري، فجلست هناك أياما أنتظر فرج الإله الكريم، فإذا جاء الليل أنصرف لأعود في النهار الثاني، وأرسلني المخدم مرتين إلى بيتين لأخدم، ولكنني رفضت الاستمرار في كل بيت منهما لأسباب اختلقتها.

ولم يطق الخادم الجديد البقاء في منزل رئيس النيابة فتركه وخرج، وألح الرئيس على المخدم ليبحث له عن خادم عاقل يستمر في خدمته، فلما حضرت للدكان في صباح أحد الأيام جرني إلى البيت العامر، وهو قريب من الدكان.

دخلنا من فجوة على شكل بوابة كبيرة إلى فناء رحب به عدة بيوت، والأول منها

ليمين الداخل، وهو بيت رئيس النيابة، ويلي الباب الخارجي ردهة كبيرة بها غرفتان متقابلتان إحداهما لاستقبال الزائرين والثانية لخادم المنزل.

وعرضني المخدم على الست الهانم فقالت ممتعضة: كل الخدامين زي الزفت، دايما يدلعوا زي العيال، وأحنا غيرنا اثنين وده الثالث في ١٨ يوم ..

وقال المخدم: الخدام الجديد ده على ضمانتي أنا، أصله كان خدام بهوات تقال عاش عندهم طول عمره، وهو جدع وأمين ولسه ما تمرمطش .. أهو ده اللي حيعمر وينفع بإذن الله ..

وقالت الست: بكرة نشوف .. قالوا الخبر بفلوس قلنا بكرة يبقى ببلاش ... وكرر المخدم عبارات الثناء علي ثم تركني للبيت وانصرف، وبدأت الست تسألني فقالت:

– اسمك إيه يا شاطر؟

قلت: اسمي مبروك ..

قالت: إن شاء الله تبقى مبروك علينا .. دخل هدومك في المندرة اللي على الشمال، واغسل بلاط الحوش أحسن المنيل اللي قبلك مارضيش يمسحه ..

فدخلت الغرفة المخصصة لسكني. فوجدت أثاثها من البلاط القديم، وفراشي حصير ولحاف ومخدة، وخزانة الثياب حبل مثبت في زاوية من الركن الداخلي، ينشر عليه ثوب الخادم إذا كان يملك أكثر مما يستر جسده.

كان ثوبي صوف فريسكا كحلي وبه خطوط رفيعة بيضاء، فخلعت الجلباب وطرحته على الحبل ونزعت النعل واستعددت للمسح، دخلت الفناء الداخلي فوجدته مربعا فسيحا أرضه من البلاط القديم السميك، ورأيت في أحد الأركان بئرا، فنشلت منه ماء، ثم صفقت وطلبت مكنسة وقطعة من الخيش، فأسعفتني بهما زينب ..

وزينب خادمة صبية لها لمحة جمال ولها دلال، لأنها ربيت في هذا البيت من صغرها، فشملها حنان الست وعطفها وصارت يدها ورجلها .. فحصتني الصبية من رأسي إلى

قدمي بنظرات جريئة ثم سألتني:

هي – هل أنت بربري؟

أنا – لا يا ست .. أنا مولد أمي سودانية وأبوي فلاح ..

هي – طيب يا مبروك .. اتجدعن وامسح الحوش كويس علشان البيه ينبسط منك لما يرجع من الديوان.

أنا – حاضر يا ست زينب.

وتناولت المكنسة، كنست بها الحوش ثم غسلت البلاط ثلاث مرات والرؤوس تطل علي من النوافذ، واسترحت قليلا ثم غسلت الردهة الخارجية، وتحولت إلى غرفتي فعنيت بنظافتها، ثم انتعلت نعلي ولبست ثوبي وجلست أستريح خلف الباب.

وصفقت زينب تدعوني فلبيت النداء في أدب، فأعطتني قطعة نقود ذات عشرة قروش لأشتري ثلاثة أرطال بلح أمهات وحاجات للسلطة وجعلت توصيني ..

قالت:

هي – أوع تجيب البلح حامض وإلا مفقع، والطماطم نقيها حمرة، وحاسب أحسن البياع يزق لك الطماطم معفنة، والبقدونس يكون مرعرع .. و .. و ..

أنا – حاضر يا ست زينب.

وتناولت مقطفا صغيرا أعطته لي وخرجت لأشتري هذه الحاجات قبل عودة البيه الكبير .. فاستقبلتني زينب بعد عودتي وجلست على السلم وفحصت كل ما أحضرت ثم ابتسمت وقالت:

هي – أنت جدع وشاطر يا مبروك، وباين عليك ابن حلال ومتمرن على الخدمة في بيوت الذوات.

وسمعتها تقول للست هان بصوت مرتفع:

زينب – أما يا ستي جاب بلح عال العال منقي بالواحدة .. وشوفي يا ستي الطماطم حاجة عال صحيح .. وشوفي يا ستي جايب إيه في السلطة: بقدونس وجرجير وخس وكمان بنجر .. وكل ده بقرش واحد ..

وقالت الست:– هاتي الميزان يا زينب.

وزنت البلح فزادت الأرطال الثلاثة ربع رطل، فارتاحت الست وقالت من النافذة:

أنت شاطر يا مبروك .. بس أوع تكسل بعدين .. أنا عاوزة الحاجة اللي تشتريها تنقيها كويس خالص ذي النهاردة ..

أنا – حاضر يا ست .. إن شاء الله تكوني دايما راضية عني ..

وعاد البيه الكبير من الديوان وسمع من الست عبارات الثناء على الخادم الجديد، كان الرجل رب أسرة كبيرة غنية بالصغار فاعتاد ملازمة بيته عقب عودته من العمل إلى صباح النهار الثاني، فصادفني في طريقه وهو خارج فقال: الست مبسوطة من شغلك .. فخليك نشيط على طول ..

فقلت أتملقه:

– بنفسك يا بيه أخلي الست راضية عني ..

أرسلت للسوق لشراء اللحم والخضار وبطيخة، فلم أتغيب في السوق وعدت بسرعة، وكررت الست عملية وزن اللحم فاطمأنت لأنه زاد عن الوزن المطلوب قليلا، وأعجبت بالخضار لأنه طازج وبالبطيخة لأنها كبيرة وحمراء وكثيرة الحلاوة ورخيصة ..

قالت – أنا مش قلت لك يا زينب دسوقي كان بيسرق من ثمن الحاجة؟ ..

شوفي أهي البطيخة دي بخمسة قروش ودسوقي كان بيجبها على الأقل بستة! ..

وأطلت الست هانم من النافذة فرأت الفناء الداخل يغسل ويمسح بعناية، فأرسلت طعام الفطور وزادت عليه قدحا من الشاي.

دام الحال على هذه الصورة المرضية شهورا، نشاط في تأدية العمل المطلوب مني، وأمانة في كل ما أشتريه من السوق مع الزيادة في وزن اللحم والسمك والفاكهة، وعناية بالصغار بعد عودتهم من المدرسة، فنالني الرضا عني من جميع أفراد البيت، وخاصة لأنني أتوضأ عند البئر لأؤدي الصلاة في غرفتي.

وكنت أشتري الصابون والزهرة وأغسل ثيابي بنفسي، وأنشرها على الحبل في الغرفة وأحافظ دوما على نظافة بدني وثوبي، فزاد هذا في اطمئنان ربة البيت وصارت ترسل إلي صغيرها المفطوم حديثا لأداعبه وأمنعه من الصراخ فجعلته لعبة أتسلى بها في الوحدة.

وفي كثير من الليالي كانت زينب تأتي به لأنهم عجزوا عن إسكاته فأحمله وأدور به في الغرفة، بينما ترقد الخادم الظريفة على فراشي مستسلمة للنعاس.

اكتسبت ثقة الجميع بسلوكي المرضى عنه وبالوداعة والحلم والأمانة، وبلغ العطف علي إلى الحد الذي سوغ للست هانم التفكير في تزويجي من زينب لتضمن بقائي معها في خدمة الأسرة.

ولم تتهيب مكاشفتي برغبتها، قالت إن زينب تربت في البيت من الصغر، وأنها مؤدبة وعاقلة وأمينة، فهي بنت البيت التي لا يمكن التفريط فيها ولا الاستغناء عنها.

وقالت أيضا: وأنت رجل عاقل متدين ومؤدب وأمين، وتصلح زوجا لزينب، فإذا قبلت الزواج منها فمن السهل إقناع البيه الكبير وإتمام الأمر فتعيش في البيت كأنك من أهله.

وقلت: إن رضا الهانم يشرفني، وإن زينب تكون أحسن زوجة، ولكنني لم أفكر في الزواج لأنني خادم وفقير ومرتبي قليل لا يكفي للإنفاق على زوجة.

ودفعت الهانم بأننا لا نحتاج إلى نفقات معيشة لأننا نعيش في البيت كسائر أفراد الأسرة، ولأن مرتبي ومرتب زينب يساوي أجري فيكفينا هذا المبلغ لقضاء ما نشتهيه خاصة.

فقلت: ولكنني لا أستطيع الزواج إلا بعد موافقة والدتي، وسأحاول إقناعها حتى لا تغضب، فاقتنعت الهانم بهذا الاعتراض وسألتني عن والدتي أين مقرها وعرفت مني أنه في مدينة طنطا.

كانت زينب مختبئة وراء نافذة تسمع الحديث راضية مبتهجة، فاعتبرتني من ذلك الوقت خطيبها فبدلت سلوكها معي واندفعت لمعاونتي في عملي، فإذا ذهبت لشراء حاجات البيت من السوق أجدها غسلت فناء البيت بدلا مني.

وإذا رأت على الحبل ثيابا أعدت للغسيل تغسلها قبل طلوع النهار فأراها منشورة نظيفة، وفي كل مرة تحمل إلي الطعام أرى فيه زيادة واضحة، فقطعة الحم صارت قطعتين، وزادت كمية الفاكهة وكذلك المقدار المعين من الخبز ..

وكنت من حين لآخر أشتري لها منديلا للرأس، أو شرابا رخيصا، أو شيئا من الحلوى أهديه لها فتسر وتفرح ويظهر الارتياح في نظراتها والحنان في ابتسامتها، ولم أعد غريبا عنها في نزرها فجعلت العطف علي في وضوح تريد أن تؤثر في نفسي تأثيرا يحملني على التعجل لإتمام عقد الزواج.

ليس من حق أي إنسان أن يعيب عليها هذه الرغبة، لأنها صبية بلغت العشرين من عمرها، وهي ممتلئة صحة وعافية، ولأن الغريزة قوة طبيعية في الشباب تحفزه لطلب الاقتران، يستوي في الأمر الذكر والأنثى، لم تجد أمامها رجلا غيري لأنها نشأت في هذا البيت الشريف معزولة عن الخارج وعن جميع الرجال، فلا سبيل للتنفس عن عاطفتها إلا بالزواج، وقد اختاروا لها الزوج، فلا غرابة إذن إذا نظرت إليه على هذا الاعتبار، وإذا فعلت ما يحفزه إلا الإسراع بالتعاقد الشرعي ليتم الاقتران الفعلي.

كنت أشفق على الفتاة لأنني على يقين من الأمر أنه لن يتم، وأن استرسالها في الأمل ستعقبه حسرة وألم حين أهرب منها ومن البيت، لأنني لم أخدم هناك بقصد الزواج والإشفاق على عاطفة متنبهة تثب للتنفيس عن الغريزة المكبوتة، فصار من الضروري وقف هذا التعذيب بالخروج من البيت.

قلت للست هانم يوما: أريد الذهاب إلى طنطا لرؤية والدتي وأرجو الإذن لي بالسفر.

وقالت: هل تريد أن تنال رضاها في موضوع زواجك بزينب؟

قلت: نعم .. بإذن الله .. فأرجو الإذن لي بالتغيب ١٥ يوما.

فظهر عليها الارتباك، وقالت: ولكن البيت لا يستغني عن خدمتك مثل هذه المدة.

فأظهرت استعدادي إحضار خادم من مكتب المخدم وأمرنه على العمل المطلوب منه ثم أسافر، ولكنها أصرت على أن الزمن الذي أريد قضاءه في طنطا طويل.

وهكذا كان رأي رئيس النيابة، ولكنني أصررت على رأيي وزدت عليه أنني طلبت شهادة من المخدوم .. فانتهى الأمر بقبول رغبتي، وكتب لي الرئيس الشهادة وعدد فيها صفاتي من حسن الخلق والنشاط والأمانة.

وأحضر المخدم الخادم الجديد وقضيت معه ثلاثة أيام أرشده إلى ما يجب عمله، ثم استأذنت للسفر، فشددت الهانم التوصية حتى لا أزيد في الغياب عن الأسبوعين.

أما زينب فناولتني ما أعدته لي من الطعام ودموعها تجري على خديها في هدوء، وكاد قلبي ينفطر لهذا التألم الصامت بتأثير الحياء، فشجعتها على الصبر وودعتها وانصرفت في أسف وتألم لأن جميع أهل هذا البيت الشريف غمروني بالعطف البريء جزاء ارتياحهم لخدمتي.

قلت إنني خدمت في بيت رئيس النيابة لأداعبه فيجب أن أسبق الزمن (هنا) وأثب أعواما لأظهر نوع هذه الدعابة وتأثيرها في الرجل.

أسلمت نفسي للقضاء في ١٩١٣ لتصفية الحساب بيني وبين الحكومة لأسباب هامة طرأت علي وبدلت إصراري الأول بغيره.والعقوبات الصادرة بأحكام غيابية من محاكم الجنايات تسقط بمجرد القبض على المحكوم عليه، فأعيدت الإجراءات من جديد وقدمت لمحكمة الجنايات في إحدى القضايا.

وجلس رئيس النيابة في كرسي الاتهام، ولما جاء دوره حمل علي حملة قاسية، ومن

أقواله: إنني مجرم بالطبيعة، فاسد الأخلاق، وخطر على الأمن العام وعلى الهيئة الاجتماعية.

وسألت في هدوء المرحوم توفيق رفعت باشا رئيس الجلسة قلت له:

– من الذي يصفه حضرة رئيس النيابة هذا الوصف؟

قال: طبعا .. أنت!.

قلت: هل لهذا الرئيس رأيان أحجهما شفوي يعلن أمام المحكمة، والآخر كتابي ينكره بعد اعترافه فيه؟

قال: لم أدرك قصدك مما تذكر! ..

فأخرجت من حذائي ورقة أعطيتها للحاجب فسلمها لرئيس المحكمة، فتناولها وقرأها في دهشة، ثم نظر إلي نزرة استفهام ..

قلت: هل يعترف حضرة رئيس النيابة بأن هذه الورقة بخطه وتوقيعه؟

ووصلت الورقة إلى يد الرجل فقرأها ثم قال:

– نعم هذه الورقة بخطي، ولكني أعطيتها لخادم كان في بيتي اسمه مبروك.

قلت: أنا يا سيدي خادمك مبروك.

تنبه جميع الحاضرين لهذه المفاجأة، وسألني المرحوم محمود أبو النصر المحامي عن علاقة هذه الورقة بالقضية، وكذلك رئيس المحكمة، فقلت:

– علي أن أثبت أني مبروك الذي حرر له حضرة رئيس النيابة هذه الشهادة، فيثبت أن ما وصفني به في شهادته الكتابية يخالف كل المخالفة ما ذكره الأن للمحكمة عن أخلاقي وخطري على المجتمع.

وقال رئيس النيابة: كان مبروك أسمر اللون من أم زنجية ووالد ريفي .. فمن المستحيل أن نصدق أنك أنت مبروك!.

قلت للمحكمة – هل ينكر حضرة رئيس النيابة أنه عرض علي الاقتران بفتاة من بيته؟

فاستولت الدهشة على الجميع، وظن رئيس المحكمة أنني أريد النيل من رئيس النيابة، فقال بحدة:

- ما هي العلاقة بين ما تذكر وموضوع هذه القضية؟

قلت: إن رئيس النيابة يطعن في أخلاقي، ومن حقي هدم جميع ما تذكره النيابة في الاتهام، وهذه الشهادة تهدم ما ذكره عن أخلاقي .. فمن حقي أن أثبت أن هذه الشهادة كتبت لي بالذات وأنا متنكر باسم مبروك وأخدم في بيته.

قالت المحكمة: ورينا تثبت أزاي أنك مبروك!.

فقصصت على الجميع نوع حياتي في بيت رئيس النيابة، واطمئنان الجميع لأمانتي وأخلاقي حتى بلغ الارتياح إلى الرغبة في استبقائي بإتمام الاقتران بربيبتهم "زينب".

وسألت المحكمة رئيس النيابة: هل هذا صحيح؟

قال: نعم.

قلت: لا يستطيع أي إنسان غير مبروك أن يذكر ما ذكرت عما حدث داخل هذا البيت، وهذا يثبت أنني خدعت حضرة رئيس النيابة لأختبئ في بيته أكثر من ستة شهور، ولأقنعه عمليا بنوع أخلاقي وصفاتي فلا يلجأ إلى الخيال لوصفي أمام المحكمة بمثل ما ذكره اليوم.

وحدثت ضجة عالية من الحاضرين، ورفعت الجلسة للاستراحة ليتمكن رئيس النيابة من إسكات غضبه وتهدئة نفسه .. فلما أعيدت الجلسة لم يظهر رئيس النيابة وحل مكانه غيره .. تعمدت حضور هذه المحاكمة وعرضت نفسي لحكم حضوري لمجرد الغربة في مداعبة ذلك الرجل، فلما تم ما أردت لم أعد إلى السجن وهربت.

الكونتس سجريس

انقلبت العلاقة بيني وبين فرنسين إلى صداقة متينة بل إلى أخوة وزالت جميع الحواجز التي تفصل إنسانا عن آخر، وكنت في حاجة إلى المال للمضاربة فلم تتردد في تعريض كل ما أدخرت، ووثبت لهذه المجازفة راضية مطمئنة في غير مبالاة بالنتائج، وقبلت أن تكون العملية باسمها، وأن يكون لي نصف الربح إذا نجحنا، وشاء الحظ الحسن أن ننجح ففرحت وصفت تجارتها الأولى وقصرت عملها على المضاربة وتسليف النقود، وكان نصيبي من الربح كبيرا في العام الأول، فاستطعت بقوة المال تنفيذ جميع رغباتي. وفي صدري غل من الهيئة الاجتماعية بسبب حملات الصحف علي اعتباطا لتلويث اسمي واعتقاد الناس صحة ما ينشر بدون وزنه، ولجوء الجميع إلى التندر بهذا الاسم مع الإسراف في تخيل حكايات ونوادر ينسبونها إلي كما كانوا يفعلون بجحا، فدفعني هذا الغل إلى التنكر للرأي العام وللهيئة الاجتماعية ثم استخففت بالقوانين والأخلاق والعادات والتقاليد وتعمدت أن أعيش في حرية مطلقة بدون تقيد بنظم الاجتماع للتنفيس عن نفسي.

عرف رجال البوليس أنني كنت متنكرا بزي بائع حلوى وأقيم في حي بلدي، وكانت عقيدتهم أنهم بعد الاستيلاء على جميع ما كنت أملك تحولت إلى مفلس فلا يكون في مقدوري سوى المعيشة في جو المفلسين، فاتجه البحث عني في تلك النواحي بواسطة رجال البوليس السري العاديين.

أما أنا فاخترت مسكني في فندق جزيرة بالاس أوتيل باسم المسيو بنفيه وصناعتي التجارة والوساطة بين مصانع أوروبا ومكتب قومسيون مدام فرنسين.

واخترت مسكنا ثانيا في فندق سافوي باسم البارون دي ماسون، وهو رجل سري يهوى البحث عن الآثار ويضطره العمل للغياب أياما كثيرة وللحضور بدون نظام معين.

وحضرت مسكنا ثالثا لخليل صديقي بشارع درب الجماميز على مقربة من شارع مُحَّد علي، وجعلت فيه ملجأ لي للاحتياط من الظروف الحرجة إذا طرأت مفاجأة، واخترت للخدمة في هذا البيت زنجية صماء لتعجز عن سماع أحاديثنا فلا تجد ما تتحدث به عنا.

نظمت وسائل التنكر والوقاية على هذه الصورة وانطلقت في مغامراتي بدون مبالاة بجميع أهل الأرض، وفي عزمي أن أترك كل شخصية لي إذا تعرضت للشك فيها كما تركت شخصية "عم دؤدؤ" بدون أسف عليها.

كنت في مساء أحد الأيام في مينا هاوس ومعي خليل حداد في جلسة هادئة نشرب خمرا، فرأيت سيدة شابة حسناء فاتنة مع ثلاثة من زملائها، امرأتين ورجل، فلفت جمالها نظري ونشطت رغبتي كما لفت أنظار جميع العيون المبصرة.

كل حسن يلفت النظر، ولكن قوة الجاذبية تلهب العاطفة وتجذب الفؤاد وتزلزل الأعصاب، وهكذا فعلت بي تلك الحسناء بتأثير جمالها النادر وبما توفر لها من الفتنة وقوة الجاذبية .. بلغت بي قوة الاشتهاء حدا لم أعرفه من قبل.

ظننت أن رأسي يدور وأن قلبي ينخلع من الصدر ليطير إليها.

قلت لخليل: سأفقد عقلي إذا لم أنل هذه الحسناء ..

قال: لقد فقدت عقلك مرات فلم يبق لك ما تفقده.

قالت: تحقق من محاسن هذه المرأة لتدرك أن لها ميزات لم تتوفر لغيرها.

قال: كل حسناء تلهب العاطفة يظن الإنسان أنها أجمل نساء العالم، فليست العين ميزانا صادقا لأنواع الجمال لأن قوة الشوق تطفف الوزن.

قلت: لقد تولاني الولع سواء أكان الباعث عليه صادقا أو خادعا، فليس لصدق التقدير أهمية إنما هي لنوع المؤثر وقوة التأثير وفعلهما في العاطفة، فليس يهمني شيء سوى الشعور بالواقع ونتيجته في نفسي.

قال: أنت شهواني تندفع بتأثير الاشتهاء إلى كل ما تظنه يرضي الرغبة الجامحة فأنت كالورقة الجافة تطوحها الريح فتلقيها تارة في حديقة وتارة في الوحل.

قلت: الهناء هو إمتاع النفس بما تشتهي، وهذا الهناء لا يوصف بعقل الغير، إنما بشعور الإنسان وحده وبارتياح النفس لما تشتهيه وتحصل عليه.

قال: ستبدد حياتك في الاندفاع بقوة وقع الاشتهاء المتجدد، فكل حسن يبعثك على التمني، وكل حسناء تنشط الرغبة فيها فتكون الحماقة والجنون.

قلت: إن حياتي مبددة بسبب جميع ظروفها، فليس لي ما أحرص عليه أو أحاول حمايته لاستبقائه فمحاولة إمتاع النفس بأي هناء وقتي ربح أنعم به بدلا من الخسارة المستمرة.

قال: هذه فلسفة سفساط.

قلت: المناقشة مضيعة للوقت، وأفضل منها محاولة الاهتداء إلى عنوان هذه الفاتنة، والوسيلة سهلة، نقتفي أثرها إلى أن تستقر لتنام ...

وهكذا فعلنا .. فتنقلت ثم استقرت في جزيرة بالاس أوتيل حيث نزلت، فصار من السهل تحقيق التعارف لأن السائحين والسائحات تجمع بينهم زيارة الآثار ومعالم القاهرة، وموائد الطعام، والسهرات العامة أو الخاصة.

كنت من نزلاء سافوي أوتيل باسم البارون دي ماسون، فعرفتني بهذا الاسم في دار الآثار عند زيارتها، توليت قيادة الجماعة هناك وجعلت أشرح لهم تاريخ الفراعنة عند كل مناسبة فأصغت إلي بانتباه وجعلت توجه إلي الأسئلة لاستكمال الشرح.

واجتمعنا للعشاء في الكونتيننتال وكان موضوع السمر الحديث عن مصر، عن ماضيها وحاضرها ومجدها القديم وأسباب تأخرها، فلحظت الفرق الكبير بين معرفتي وبين ما يتحدث به غيري عن جهل أو عن معرفة سطحية حصل عليها من مطالعة ما كتبه عابروا البلاد.

وأعلنت عن ابتهاجها بمسامرتي وعن رغبتها في زيارة الآثار في صحبتي، وأظهرت استعدادي لخدمتها في ارتياح ومسرة، وحددنا موعد لزيارة الأهرام.

راجعت التاريخ قبل البدء بهذه الزيارة، ورتبت الأمور بنظام يجعلنا ضمن عدد قليل من السائحين والسائحات لكي لا تبعدها الظروف عن ملازمتي، فزرنا الأهرام وفي غرفة الملك سمعت مني تاريخ خوفو باني الهرم الأكبر، وكل ما نسب إليه من المظالم في عملية نقل الأحجار وعملية البناء.

وأغريتها بامتطاء بعير لزيارة بقية المنطقة، وأخذت لها صورا شتى في أوضاع مختلفة، جعلتها تدرك نشاطي في خدمتها بتصرفات تدل على التأدب وعلى الاحترام، فصارحتني ونحن نتناول طعام الغداء بأنها سمعت مني محاضرة في التاريخ في جوف القبر بأسلوب أعجبت به وحملها على الإكبار، وقالت إنها لن تتمم سياحتها في مصر إلا إذا كنت معها طول الرحلة، لتعتمد علي في شرح التاريخ على الآثار بدلا من الاعتماد على المترجمين من الجهلة.

تم التعارف بيننا على أساس سليم يحمل الفريقين على تبادل الاحترام والمودة الهادئة، وتحولت من كبرياء الحسناء الفاتنة إلى أخلاق صديقة ترتاح لأخلاق صديق دل على الإخلاص في جميع تصرفاته، ودل على حسن النية والبراءة من كل رغبة بالابتعاد عن كل حديث عاطفي وباختيار المعاني والألفاظ الواضحة.

وزرنا المساجد التاريخية فشرحت لها تاريخ صاحب كل مسجد، وشرحت طويلا حوادث التاريخ التي سبقت مقتل الإمام الحسين بن الإمام علي، ومناشئ الخلاف والحروب التي قامت بين الخليفة الرابع ومعاوية ثم انتهت إلى مأساة الحين.

لم تكن المرأة في ذلك الزمن في مثل تبرج المرأة العصرية واستهتارها، كانت صورتها بدون مساحيق ولا ألوان، تتأنق في ثيابها إنما في مظاهر تدل على الاحتشام.وكانت أحاديثها متزنة في حدود الأدب الكامل والوقار، تنبو أذنها عن الهنات والسخف، وتوجه الحديث على الدوام إلى النواحي الأدبية أو الاجتماعية أو السياسية، ولا تخلو

مجالس السمر بعد العشاء من الفكاهات ولكنها تكون على الدوام من النوع الراقي المختار بعناية.

وامتازت تلك الحسناء على غيرها بصفات كثيرة، كانت أرملة شابة تدعى الكونتس سيجريس، ترملت ولم تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها، ولدت في إسبانيا ونشأت فيها، فلما صارت في سن الصبا ظهر حسنها ونضج جمالها وبلغ حد الإبهار، فاقترن بها الكونت سيجريس من رجال السلك السياسي الفرنسي، وكان من سلالة عائلة فرنسية نبيلة ورث ثروة ضخمة خلف شطرا كبيرا منها لزوجته بعد وفاته.

عاشت الكونتس الفاتنة في باريس ثلاثة أعوام في قصر زوجها فطارت شهرة حسنها على ألسنة الذين عرفوها، والحسن الباهر وقوة الجاذبية تجذب الأنظار والراغبات إلى المرأة فصارت أمنية عشاق المحاسن، ولكن المطامع وقفت عند حد الاشتهاء والتمني، لأن أخلاق تلك الصبية الإسبانية وآدابها وطهارتها حصنتها من الشهوات ومن شراك الذئاب.

وزاد عدد الطامعين بها بعد وفاة الكونت زوجها، ظنوا أنها لن تقوى على الحياة المنفردة، وأن الشباب والجمال والثروة ستكون سببا من الأسباب التي تدفعها للتمتع بالحرية واستكمال ما ينقص المرأة بتأثير الغريزة، فحامت حولها الأماني والرغبات والشهوات والمحاولات فاستخفت بكل وسائل الإغراء، واحتفظت بحصانتها موفورة وبكرامتها سليمة وبسمعتها بريئة لم تنل منها الظنون ولا الألسن الثرثارة.

ولكن صيادي النساء تدفعهم قوة الاشتهاء إلى الدأب في المطاردة وتحين الفرص للانتهاز، فلما عقدت العزم على قضاء الشتاء في سياحة في مصر خف وراءها بعض هؤلاء الطامعين من ذوي الألقاب الضخمة.كنت أرى بعضهم يقتفون أثرها في كل مكان تقصد إليه، يتوددون كمعارف ويعرضون خدماتهم كأصدقاء ويحاولون نيل رضاها بجميع الوسائل.

عجبوا أشد العجب لارتياحها لزمالة البارون دي ماسون، وهو عجوز حرم من

ضخامة الاسم ومن الشهرة ومن الشباب ومن الثروة الكبيرة، شخصية تكاد تكون نكرة أو عادية ليست لها مميزات تغري الصبية الحسناء بالانحدار إليها.

وفات هؤلاء أن الكونتس كانت تعرف نواياهم وأغراضهم ومطامعهم فعقدت عزمها على التحصن منهم لا على الاطمئنان لهم، ووضعت الصدفة في طريقها البارون دي ماسون وقد وصل إلى الكهولة فحصنته من نزق الشباب وجموح الشوق وتنبه العاطفة الوثابة، ولحظت عليه التأدب والاتزان والوداعة والتواضع مع امتيازه عن غيره بالمعرفة والكياسة، فاطمأنت له في مجلسه في مصاحبته في زيارة آثار مصر ومعالم مدينة القاهرة.

لم تزن ذلك الكهل بميزان الناحية الجنسية، فلم يعد يهمها الشباب ولا اللقب ولا الثروة إنما قدرته بالصفات والأخلاق والأسباب التي تكون تعارفا بريئا وصداقة لا علاقة عاطفية أو غراما.

واطمئنان المرأة للصداقة البريئة يدفعها إلى الثقة بالصديق وإلى الارتياح لمجلسه، وإلى التوقان إليه في غيابه، وإلى تفضيله على غيره في حالات كثيرة، وهذه المؤثرات التي تلوح ناشئة بباعث قوي خفية تقلل من تحفظ المرأة وتزيد في متانة الرابطة التي تربطها بالصديق.

قلت إن الكونتس إسبانية بنشأتها وتعليمها، رأت المحبين في بلادها يدورون في الشوارع يناجون الخيال بالغناء بأصوات مرتفعة، ورأت العاشق يقف في جوف اليل قريبا من شرفة المحبوبة يلحن ألحان الغرام على آلة وترية ينادي هواه هواها وتناجي عاطفته عاطفتها.

ورأت الأبطال من الشباب يصارعون الثيران، ويغامرون بالحياة للتغلب على الثور ابتغاء الحصول على إعجاب المشاهدين وعلى تصفيقة من يد ناعمة مجهولة من الخلق مغمورة بين آلاف من أمثالها.

فالإسبانية تحب الموسيقى والغناء والبطولة وتعجب بالمغامرات والمغامر الجريء،

وتطالع القصص الخيالية التي تكتب عن هذا النوع، فهي من طراز غريب على الرجال في باريس لأنه يخالف ما ألفوه من عقلية المرأة الفرنسية وعاداتها، ولهذا السبب لم يفلح فرنسي في التأثير في عاطفة الحسناء الشاذة.

والمرأة على الدوام وفي كل زمان ومكان لها عاطفة الأنثى وغريزتها، إنما تقتضي الحكمة معرفة الوسائل التي تلفت نظرها وتنبه عاطفتها وتجردها من تحصنها، فتخلع الستر العازل عن طبيعتها وتعود لأنوثتها وتلبي نداء القلب في حنان واستسلام.

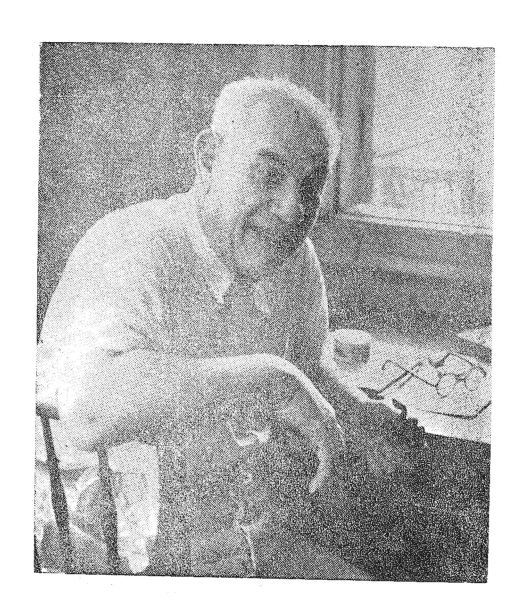
لست أعني عنا المرأة المستهترة ولا المحترفة ولا التي تتاجر بأنوثتها، إنما أتحدث عن ذات المعرفة والثقافة والأدب والكمال، عن ذات الدروع التي تدفع عنها الأهواء والشراك، يظن العقل العادي أنها العصية التي ند فؤادها عن المثرات العاطفية، وكان رأيي من فجر الشاب أنها المرأة ذات العاطفة المتنبهة والإحساس الرقيق، وأنها أكثر شعورا بالمؤثرات العاطفية من تاجرات العواطف، وأنها الطاهرة العفيفة التي تلبي نداء الغريزة في الحالات المشروعة، فإذا أحبت فإنها تفني في الحب وتنسى ملذات العالم ومبهجات الحياة جميعا لتحصر عاطفتها وفؤادها وخيالها في دائرة الحب وحده، به تعيش، وله تحيا وفيه تموت.

ولكن أين هو الرجل الذي يستحق هذه المرأة الطاهرة وذلك النوع من الحب الجارف العفيف؟

لم تبد مني نظرة عميقة في محاسن الكونتس الفاتنة، كنت أكتفي بلمحة خاطفة تصورها في ذهني ثم يخلو خيالي بهذه الصورة الذهنية ليتمتع بكل جزء من أجزاء الجمال، فتزيده فتنة بالمحاسن في خفاء عن العيون والمشاعر الأجنبية.

وكنت أسمع صوت الحسناء فيخيل إلي أنني أصغي لموسيقى روحية تصل إلى من عالم الأرواح، فأغمض عيني لأستوعب كل لفظ وكل عبارة ولأدرك كل معنى واضح أو مستور.

الفقيد حافظ نجيب



هنا نقف لحظة حداد .. فقد سطا الموت على والدي المرحوم الأستاذ حافظ نجيب .. إلى هنا أفل نجم تلك الشخصية الجبارة، والعقل الفذ المكتمل، وكسر ذلك اليراع الذي طالما سطر ما قد تجود به قراح المفكرين والعلماء، في يوم الخميس ٢١ نوفمبر ١٩٤٦ فارق الفقيد الحياة وهو في كامل قواه العقلية.

ومن أحكام القدر أن يموت أثناء طبع هذا الجزء من اعترافاته وهو كيف دفن وعاد إلى الحياة، والآن .. كيف يعود وقد ود لو يعيش حتى يظهر الكتاب ويناقشه القراء والمعارضون كما ذكر في أول كتابه.

ولكن سدد القدر سهمه ونفذت مشيئة الله، والآخرة خير وأبقى.

سعدية الجبالي

إن خليل أفندي حضر في الليل مرتين لاستدعائه لعيادة الشيخ صالح، فلم يعبأ السكران بالمريض لأنه مخمور فقد الاتزان وصار في حاجة إلى النوم والراحة فآوى إلى الفراش والشمس ترسل أشعتها على الكون.

وفي هذه الظروف التي قست على أعصاب الطبيب وعلى عقله حضر خليل أفندي وبلغه نبأ حضوره مرتين بالليل للسؤال عنه، ثم نبأ وفاة الشيخ .. كان الطبيب مقتنعا بأن المرض في القلب، وأن الشفاء متعذر فصار من رأيه أن الموت نتيجة طبيعية لتلك الحال، فكتب شهادة الوفاة التي تمكن من دفن الميت، وهو تحت تأثير اعتقاده، وتحت تأثير الخمر والسهر الطويل والضعف والرغبة القوية في النوم.

تيسرت الأمور وثبت موت الشيخ صالح وبدأت عملية تجهيزه للدفن، فتمت هذه العملية بمباشرة خليل أفندي حتى وضعت الجثة في النعش وسارت الجنازة في طريقها إلى القبر.

ولكن الغرض الأساس لم يتم لأن المراد إثبات موت حافظ نجيب لا الشيخ صالح عبدالجواد، فنبأت شخصية مجهولة محافظة مصر بموت حافظ ، وهو متنكر باسم الشيخ صالح وبأن الجثة ستدفن في مقبرة بالمجاورين.

واهتمت المحافظة بهذا النبأ السار وأرسلت رجالها إلى المقبرة قبل وصول الجنازة البطيئة السير، وكشفوا وجه الميت قبل دفنه وتحققوا منه فاقتنعوا بأنه الشقي حافظ الذي يطاردونه، وثبتت لهم الوفاة بأمر الصحة الذي يأذن بالدفن، وتم دفن الجثة أمامهم في القبر الذي أعد لها من قبل، وانصرف المشيعون الدين جمعوا للسير في الجنازة.

وبلغ هؤلاء الشهود المحافظة بموت الشقي ودفنه مع إتمام جميع الإجراءات القانونية التي تفرضها مصلحة الصحة، ولقى هذا الموت ارتياحا من جميع الجهات الحكومية، وتمموا واجبهم بإثبات هذا الموت في النشرة الإدارية لإعلان الجميع بالكف عن البحث عن حافظ نجيب بسبب وفاته.

العودة إلى الحياة

يقتضي الحال وصف المقبرة التي هيئت لدفن حافظ نجيب لأنها لعبت دورا هاما في إثبات موته ودفنه ثم العودة إلى الحياة وإلى ظهر الأرض، ومكنته من الحرية ومن السعي لتحقيق غرضه.

المقبرة فناء به قبران متجاوران وغرفة للانتظار ودورة مياه، ويحيط بالجميع سور مرتفع له باب من قضبان الحديد يوصل من الشارع إلى داخل المقبرة.

تم بناء المقبرة بسرعة وتم إعداد القبر الأول لاستقبال الميت الذي رجح أهله أنه في خطر الموت، ولم يتم بناء القبر الثاني الملاصق له إنما بقيت فيه وعلى حافته مواد البناء لإتمام القبر في الوقت المناسب.

ودفنت جثة الميت في القبر الأول بعد عصر يوم الخميس وانصرف المشيعون، أما رجال البوليس فقصدوا إلى المسكن الذي كان مأوى لهذا الشقي المطارد فتشوه فلم يهتدوا إلى شيء يهمهم، وسألوا الجارية الصماء في محضر تحقيق فثبت فيه أنها لا تعرف شيئا عن سيدها سوى أن اسمه الشيخ صالح، وأنها لم تلاحظ شيئا سوى غيابه الطويل عن البيت "وأنه لزم البيت والفراش في النهاية بسبب مرضه، وأن الطبيب كان يعالجه، وكانت الحال أحيانا تقتضي استدعاءه، وبقى على تلك الحال حتى مات ثم نقلوه للدفن، وكان هذا المحضر خاتمة إجراءات البوليس.

أما الميت ، فبقى في القبر جثة لا حراك بها، وكان حافظ تحت تأثير مخدر قوي جعله في جمود يشبه جمود الموت، وزال تأثير المخدر بعد ساعات وأخذت الأعضاء تعود إلى الحركة الظاهرة، تحرك الذراع أولا وغير وضعه ثم استقر وسكن وقتا غير قصير.

وجعلت الأعضاء الأخرى تتحرك من حين إلى حين، تحرك القدم وسكن، وتحرك الذراع ثانيا واستقر، وتحرك الرأس ليستريح في وضع جديد، فساعدت هذه الحركات

على نشاط الدورة الدموية ثم علا التنبه قليلا قليلا وعلا التنفس بصوت يسمع.

وتحرك جسم الميت كله بعد ذلك، انقلب إلى اليمين برهة، وتحول إلى اليسار واستراح، ثم زادت حركة الذارعين، وأخيرا حاول الجسم النهوض فبذل جهدا حتى تمكن من الجلوس، ولكنه لم يحتمل هذه الحركة العنيفة فسقط ثانيا على الأرض برهة طويلة.

ولما زاد نشاط الحركة الدموية عادت للجسم بعض قوته فاستطاع الجلوس إنما في إعياء شديد، وحرك حافظ ذراعيه حركة اختبارية كأنه يدفع عنه سبب هذا الضعف، فبدأ عقله يستيقظ وينبه الشعور.

أحس صداعا شديدا فقبض على رأسه بيديه وقال:

– ما هذا الصداع الشديد؟

وقال بعد برهة – وأين أنا؟

وتنبهت الذاكرة قليلا فقال:– تذكرت .. أنا في القبر .. لقد دفنوني .. ولكن هل نفذ خليل جميع توصياتي؟ ..

ومد يده إلى جانبه يبحث فاهتدت اليد إلى الشيء الذي يبحث عنه فتناوله وضغط على زر فيه فسطع النور من مصباح كهربائي صغير ..

ومد يده إلى الناحية الثانية وبحث فوجد زجاجة صغيرة تركت إلى جانبه، فتناولها ورفع سدادتها بأسنانه، ثم رفعها إلى فمه وصب ما فيها من السائل المنبه.

أخطأ حافظ في هذه العملية، كان من الواجب أن يتناول المنبه جرعات على مرات بينها فترات راحة، فسبب له الخطأ سرعة في الدورة الدموية ودوارا لم يحتمله فسقط على الأرض وسكن عليها وقتا غير قصير حتى زالت قوة المؤثر فتلاشى الدوار.

ونهض فجلس برهة يستجمع شتات أفكاره، ثم انتصب واقفا ومشى في قبره خطوات حتى وصل إلى ركن فيه فركع وجعل يزيح عنه الرمل حتى كشف عن صندوق

من الخشب كان مخبأ في فجوة في الأرض، فرفع غطاء الصندوق وأخرج منه مطرقة متوسطة الحجم وأجنة وكيسا فيه ثوب كامل.

واتجه إلى الحائط الذي يفصل بين قبره والقبر المجاور الذي لم يتم بناؤه، فثقب فيه بالمطرقة والأجنة ثقبا جعل يوسعه إلى الحد الذي يمكنه من الخروج منه، وهكذا تمكن من مبارحة جوف القبر والوصول إلى فناء المقبرة، ثم استتر بجانب السور بعيدا إلى جانب الباب وارتدى ثيابه، وكان في الثوب مفتاح يفتح باب المقبرة ففتحه وخرج، ثم أغلقه بالمفتاح وسار في الطريق المؤدي إلى المدينة وصوت المؤذن ينبه الناس لصلاة الفجر.

الكونتس سيجريس

طال غياب حافظ وانقطع عن الاتصال بالكونتس، فرحلت إلى الوجه القبلي وزارات آثاره وقضت أياما للتسلية في الأقصر وأسوان ثم عادت إلى القاهرة وسألت إدارة فندق الجزيرة عن المسيو دي بنفيه ، فقيل لها إنه لا يزال غائبا في أعماله كعادته.

وعلمت في المساء أثناء السهرة مع بعض أصدقائها نبأ موت حافظ نجيب ودفنه وما نشرته الصحف عن هذا الحادث، ولم تصدق ما سمعته أولا ثم ثبتت لها الوفاة حين قرأت الخبر في جريدة عرضها عليها أحد الحاضرين.ولم يكن في مقدور الحسناء إظهار حقيقة شعورها أمام الحاضرين فكتمت نفسها، وسمعت ما قيل عن ذلك المغامر بعد موته صاغية إلى الأقوال بدون الاشتراك في الحديث.

من المحقق أن المغامرات الجريئة التي حدثت أمامها لم تزل من ذاكرتها بل تركت في نفسها أثرها، وطغى على شعورها نبأ موت المغامر فسبب على أقل تقدير الأسف على وفاته.ولما انتهت السهرة صعدت إلى غرفتها منقبضة الصدر بسبب ذلك الحادث.

عدت إلى الدير محزونا وقضيت النهار أؤدي بقية واجباتي مع الزملاء، ثم آويت إلى غرفتي بعد تناول طعام العشاء، أوصدت الباب من الداخل واستسلمت للانفعالات النفسية التي سببها موت ذلك الوطني الوثاب، ودفعتني هذه الانفعالات إلى الكتابة لتصويرها، فنظمت قصيدة في الرثاء لست أذكر شيئا منها الآن.

ونظمت في الليلة الثانية قصيدة أخرى، وخبأت القصيدتين في الكتاب المقدس وهو الكتاب المفرد الذي عندي أطالعه في أوقات الفراغ لأدفع عن نفسي ضيق الصدر والسآمة في ذلك القبر الفسيح، لست أنكر أنه كان يلزمني فيه جماعة من الرهبان، ولكنهم بدون معرفة وبدون قدرة على الفهم وعلى وزن أي شيء من أمور الجماعة في الهيئة الاجتماعية، وكل معرفتهم محدودة في تلاوة عبارات الصلاة، وحفظ مزامير داوود،

والتحدث في شئون العمل اليومي في الدير.

كنت إذن وحدي في خلوة مع نفسي وفكري، فكنت أضني البدن بالعمل الشاق المتنوع في النهار ليرغمني الإجهاد والتعب على النوم ليلا بدلا من الأرق والملل من هذه الوحدة الدائمة.

وحدث في أحد الأيام وصول رئيس الدير "القمص بطرس" لزيارة ديره، جاء يحمل إليه الحاجات الضرورية من الزيت والشموع والحبوب والسكر والشاي كعادته من حين إلى حين. كان الرجل مقيما في كفر داوود في منزل ريفي يسميه الرهبان العزبة، وإلى جانبه راهب شاب يعاونه في الأعمال الزراعية وهو في ثياب أهل الريف، ومعه الخادم لذلك الرئيس.

وصل القمص بطرس إلى وادي النطرون في القطار الذي يقوم من الخطاطبة في الصباح، وجرت العادة أن يعود هذا القطار نفسه إلى الخطاطبة في نفس النهار، فيتحرك من محطة وادي النطرون بعد عصر النهار، وهذه الظروف تجعل زيارة الرئيس لديرة زيارة خاطفة، لأنه يرغم نفسه على العودة إلى مقره الدائم في نفس القطار الذي جاء فيه.

كان يعلم من القمص عبد الملاك بالمكاتبة نبأ وصول غبريال إبراهيم إلى الدير والبقاء به بسبب رغبته في الترهب، وعلم عنه بعض أوصافه التي كتبت عنه، فلما وصل إلى الدير سأل عن الشاب طالب الترهب ليراه، ولكن غبريال إبراهيم كان غائبا في الصحراء للاحتطاب، ولم يسعده الحظ الحسن بالعودة إلى الدير قبل رجوع الرئيس إلى العزبة بكفر داوود.

وأراد الرئيس الاطمئنان على ما أعده الدير لراحة الشاب المتعلم طالب الترهب، فقصد إلى الغرفة المخصصة له، وكانت تغلق من الخارج بضبة من الخشب من السهل فتحها ففتحت للرئيس الذي يدين له جميع الرهبان بالطاعة العمياء وبالاحترام.

رأي السرير والفراش والسجادة التي تغطيه، ورأي المنضدة التي صنعها غبريال من الخشب الموجود في الدير تغطيها قطعة من القماش الأبيض، ورأى الكتاب المقدس

الموضوع عليها، إنما لفت نظره جزء من ورقة بيضاء بارزة من بين أوراق الكتاب، فتناولها فكانت ورقتين أو قصيدتين في رثاء مصطفى كامل فقيد الأمة.

كان القمص الرئيس يحسن القراءة والفهم، كان كغيره من المصريين في ذلك الحين يعجب بنشاط المرحوم مصطفى كامل لإحياء النهضة الوطنية، فلم يتكدر من اهتدائه إلى القصيدتين في غرفة طالب الترهب واعتزال العالم بقطع جميع الأسباب التي تصله به وبالإحياء فيه. ارتاح لعثوره على القصيدتين فأخذهما، وعاد إلى كفر داوود بعد التوصية الحارة على غبريال إبراهيم"الشاعر" ..

عاصفة

كفر داوود كانت قرية كسائر القرى بها منزل يصلح الاجتماع به وقضاء السهر فيه سوى عزبة الدير، ففي الطابق الأرضي مكان يسهر فيه رئيس الدير ويزوره كل ليلة ضابط بوليس النقطة، وناظر المحطة ووكيل التلغراف لأنهم جميعا من الأقباط.

فلما عاد القمص من زيارة الدير عرض على أصدقائه الزائرين قصيدة طالب الرهبنة غبريال إبراهيم، وأظهر إعجابه بالمرثية وبالشاعر، فشاركه الجماعة في الإعجاب بالشعر وبالفتى الشاعر الذي اختار لنفسه حياة الترهب مع توفر نصيبه من العلم والمعرفة والقدرة على كسب الرزق في الحياة بدلا من طلبه في الأديار كعادة العاجزين والكسالى.

لم تكن الطائفة القبطية في ذلك الحين ١٩٠٧ قد بدأت نهضتها للتعلم في جد ونشاط، كان المتعلمون من الأقباط عددا قليلا لا يتناسب مع الارتقاء الذي نلاحظه الآن وكان جميع الرهبان ورجال الدين منهم ريفيين لجأوا إلى الدير بون علم أو معرفة أو ثقافة، وكان المفروض على هؤلاء جميعا تعلم القراءة والكتابة للتمكن من المطالعة وحفظ المزامير باللغة العربية، وحفظ التراتيل والقداس عن ظهر قلب باللغة القبطية، ومن هؤلاء يتم اختيار البطريرك والمطارنة والأساقفة، فيصير الفارق بين الإكليرس "رجال الدين" والشعب عظيما من الناحيتين العلمية والفكرية.

وكانت رغبة البارزين في الطائفة قوية للارتقاء برجال الكنيسة إلى الحد الذي يتماثل مع معرفة الناس وثقافتهم، ولا يتم هذا الارتقاء إلا بتعليم الشبان الرهبان تعليما يؤدي إلى زيارة المعرفة والثقافة لتكوين الفكر الذي يناسب مؤهلات الشعب وحاجاته، وكان اختلاف الوجهتين سببا في استمرار الخلاف بين رجال الكنيسة "من الرهبان" وبين كبار الرجال في الطائفة القبطية.

فلما وصلت قصيدة غبريال إبراهيم طالب الترهب لسمع هذا الفريق من الأقباط شملهم السرور لانصراف شاب متعلم عن العالم ورغبته في الترهب ليصير يوما ما رجلا من رجال الدين الذين يحتاج إليهم الشعب، فقالوا: إن أول الغيث واقتراح أحد الحاضرين إرسال القصيدة إلى جريدة الوطن لنشرها لتكون دليلا على وجود متعلمين في الأديار، عسى أن ينبه هذا النشر بعض المتعلمين على الرغبة في الترهب والقصد إلى الأديار.

ولم يعترض القمص بطرس على هذا الاقتراح، فأرسلت القصيدة الأولى إلى جريدة الوطن القبطية فنشرتها تحت عنوان: دمعة راهب ..

وأحدث نشر القصيدة ضجة بين الأقباط، عجب البعض لوجود راهب متعلم وشاعر في الدير، وانتقد البعض الآخر جرأة للراهب غبريال إبراهيم على رثاء زعيم سياسي، لأن الرهبنة تقتضي اعتزال الراهب العالم جميعه بما فيه من أحياء وأحداث، فمن المستنكر إذن على الراهب الشاعر اهتمامه بموت مصطفى كامل وتلهيه برثائه بقصيدة ثم بالإجتراء على نشرها.

ونشر واعظ من أسيوط اسمه حبيب رسالة في جريدة الوطن تحت عنوان (من الواعظ إلى الراهب) يذهب فيها مذهب الناقدين لتصرف الراهب.

وذهب بعض أعيان الطائفة إلى البطريرك يسألونه ما يعرفه عن ذلك الراهب الشاعر، وأرسلت جريدة الوطن مندوبا إلى كفر داوود فقابل القمص بطرس رئيس الدير وسأله عن الراهب غبريال إبراهيم هل له وجود حقيقي أم هو رثاء من شاعر متنكر نشره بهذا الاسم المزيف؟

وأكد القمص لمندوب الجريدة وجود غبريال إبراهيم داخل الدير، وأنه هو ذاته الذي نظم الرثاء، وأعطاه القصيدة الثانية للدلالة على وجود الشاعر المترهب في الدير، فعاد المندوب إلى القاهرة ونشرت الجريدة القصيدة فزادت على الدهشة الأولى ضجة وحركة عنيفة في دار البطريرك.

ألح الجميع على غبطته ليأمر باستدعاء الراهب الشاعر إلى القاهرة، وبضرورة إرساله إلى أثينا ليدرس اللاهوت لتكتمل ثقافته الدينية ويصير صالحا لتأدية الرسالة في المحيط الصالح للعمل. وغضب البطريرك لنشر الرثاء في الصحف وأرسل لرئيس الدير رسالة برقية يأمره بإرسال الراهب غبريال إبراهيم إلى دار البطريركية لمقابلته.

حدث كل هذا وأنا في الدير في جوف الصحراء لا يصل إلي شيء من هذه الأنباء، كنت في غفلة تامة عن مجرى الأحوال، وفوجئت في أحد الأيام بوصول راهب العزبة إلى الدير ومعه خطاب من الرئيس إلى القمص عبد الملاك يطلب فيه إرسالي مع الرسول إلى العزبة بكفر داوود، فاستولت على الدهشة والخوف من نتائج هذا الاستدعاء المفاجئ بدون سبب معروف.

ولكن الخطاب له قوة الأمر العسكري يجب أن يخضع له المأمور، فسافرت في نفس النهار مع الراهب الرسول إلى مقر الرئيس في تلك القرية، وكنت مضطربا خشية من افتضاح سري ومعرفة شخصيتي الحقيقية.

وجدت القمص بطرس في العزبة ومعه أصدقاءه الثلاثة، فحدثني عن نشر القصيدتين في جريدة الوطن وعما أوجدا من الضجة في الجرائد القبطية بين كبار رجال الطائفة وعن الرسائل التي نشرت عني للإعجاب بالروح الوطنية أو لنقد تصرفاتي بسبب وجودي في الدير.

وزاد على هذا الشرح قوله: وقد أرسل صاحب الغبطة سيدنا البطريرك رسالة برقية يطلب مني إرسالك إلى القاهرة لمقابلته، وليس في مقدوري عدم تنفيذ هذا الأمر، فيجب أن تسافر لمقابلة غبطته، وسيعرضون عليك هناك فكرة إبقائك في مصر أو إرسالك إلى أثينا لإتمام الدراسة الدينية، فتذكر أن جميع الذين عادوا من أثينا اختلفوا مع الكنيسة الأرثوذكسية، وخرجوا على نظمها ومبادئها وتقاليدها فاعتبرتهم مهرطقين وجردتهم من رتبهم الدينية وعزلتهم عن الكنيسة.

وقال: ولهذه الأسباب ومحاذرة عليك من مثل الحال التي انحدر إليها أولئك الكهنة

الكبار أنصح لك برفض كل ما يعرض عليك، وبإعلان رغبتك في العودة إلى الدير، وليس في سلطة أي إنسان منعك من البقاء في الدير، وحياتك بين زملائك الرهبان تحميك من شرور العالم ومن الأخطاء التي تهدد مستقبلك، ومن المحقق أنك ستصل بعدي إلى رياسة الدير أو إلى كرسي المطرانية في أي مكان يخلو من صاحبه.

أصغيت لهذه النصائح وأنا مشتت الفكر وفي اضطراب نفسي، لأنني لا أجرؤ الذهاب إلى دار البطريركية لمقابلة البطريرك كطلبه، ففي تلك الدار سأرغم على مقابلة كثيرين من الأقباط يعرفونني من قبل معرفة تامة، أمثال جندي إبراهيم صاحب جريدة الوطن، والأستاذ ويصا واصف وثد كان أستاذا في مدرسة رأس التين يدرس لي الكيمياء والطبيعة والهندسة والحساب والجبر مدى ثلاثة أعوام، وكذلك كثيرون غيره معرفتهم بي وثيقة، فمن الجنون المجازفة بالذهاب لمقابلة البطريرك، ولكنني تظاهرت بالخضوع وبالإطاعة.

كان ثوبي الإفرنجي باقيا في الدير لم أحتفظ منه إلا بالمعطف والنعل، فأعطاني رئيس الدير جلبابا أسود وطاقية سوداء، وغطاء للرأس من الحرير، وأعطاني جنيها واحدا من الذهب لأجرة السفر، فسافرت في صباح النهار الثاني إلى القاهرة وإلى بيت المرحوم مُحَمَّد بك فريد بدلا من مقابلة البطريرك.

واستاء المرحوم من قصدي إليه، وأنبني في غضب شديد بسبب نشر المرثيتين في الصحف وبسبب ما أحدثتا من الضجة حول الراهب الشاعر، وقال:– لقد ذهبت إلى الدير لتختفي فيه ولتعتزل العالم وقتا طويلا لينساك الناس ولتصل من الدير إلى الهدف الذي تهدف إليه، فمن الحماقة التي لا تغتفر ما فعلت لأنه أحدث ضجة تمنعك من البقاء في الدير ..

وزاد غضبه علي بسبب ما سماه حماقة وطردني من بيته شر طرده بدون أن يصغي إلى لحظة ليسمع دفاعي عن نفسي.

ما هو ذنبي في كل ما وقع ما سموه حماقة؟

تألمت لموت رجل وطني اغتصب احترام الجميع ومحبة الأمة التي قضى شبابه في الدفاع عن حقوقها ضد الغاضب القوي صاحب السلطان، ودللت على التألم وعلى ما شعرت به من الخسارة بقصيدتين خبأتهما عن العالم، وكشفت الصدفة هذا المخبأ لزائر طارئ أثناء غيابي عن غرفتي وعن الدير كله، وتولى هذا الرجل نشر المرثيتين بدون علمي وبدون إرادتي وعمله ضد مصلحتي ولكن جهل الناس الحقيقية والظلم الكامن في النفوس نسبا إلى الخطأ وسمى الكثيرون هذا الخطأ حماقة! ..

انصرفت من بيت ذلك الزعيم الوطني الحكيم مطرودا مهانا بدون سبب، وكان الواجب أن يؤثر فشلي في عزمي فيهدمه، أو تترك الإهانة أثرها في عزة نفسي فتحملني على الذلة وقبول الهوان مع اليأس، ولكنني ألفت انصباب النكبات على رأسي، وقرعتني الكوارث عشرات فعودتني المقارعة في صبر وعناد، وصار من طبيعتي المقاومة في حرارة تدفعني لمحاولة تحقيق غرضي والبلوغ إلى هدفي.

فأبعدت عن دار الغضبان الطارد وفي عزمي العودة إلى الدير باسم جديد، ولكن أي دير؟ من المستحيل عودتي إلى أحد الأديار في برية شيهات لأنها متجاورة وجميع الرهبان فيها يعرفون اسم غبريال إبراهيم ووجهه، وقد بلغت إليهم كافتهم حادثته، فلابد لي من اللجوء إلى دير جديد بعيدا عن تلك الصحراء النائية.

ودفعني الحنق والعناد إلى منزل القمص بطرس بحارة السقاين مرة ثانية لأسأله عن دير جديد، ولم يرحمني هذا الصديق، ولامني على الحماقة التي دفعتني لنشر المراثي في الصحف، فصارت نتيجتها خروجي من الدير مشردا مطاردا.

ولكن القمص كان أرحب صدرا من غيره، فسمع دفاعي، وأدرك أن الحظ السيء هو سبب ما سموه مني حماقة، ورغب في معاونتي مرة ثانية، فدلني على مكان الدير المحرق، وعرفت منه أن القصد إليه يكون من ديروط، فأخطأ في الدلالة على الطريق القصير كما أخطأ في المرة الأولى.

وكتبت في القاهرة ردي على واعظ أسيوط وأرسلته لجريدة الوطن بالبريد، وجعلت

عنوان الرسالة "من الراهب إلى الواعظ" ونشرت الجريدة الرسالة.

إنما بعد وصولي للدير المحرق، والجرائد تصل إلى هذا الدير، فطولعت الرسالة على مسمع مني، وعلقوا عليها بحسب ظنونهم وهم في غفلة عن الكاتب أنه بينهم.

وقصدت في قطار الليل إلى ديروط، وقضيت بقية الليلة في المحطة، وركبت في الصباح الباكر حمارا لأبلغ إلى الدير، فقطعت على ظهر الحمار قريبا من ٢٥ كيلو مترا، ولو وصلت إلى محطة نزالي جانوب لصار بيني وبين الدير هذه المسافة طويلة.

الدير المحرق

وصلت إلى الدير بعد ظهر النهار متعبا محطما، وسألني حارس الباب عن سبب حضوري للدير فصارحته بأنني جئت أبتغي الترهب، فترك الباب وسار معي إلى ما يسمونه الوسية، وهو المبنى الخاص بإدارة الدير ومسكن الأسقف ومخزن المؤنة.

كان الراهب الشيخ في ابتهاج وفرح واضحين، فلما وصل إلى الوسية قابل راهبا قصيرا يدعى القس تادرس وأعلن بصوت مرتفع أنه هو الذي جاء بي للترهب ..

ورأيت في الفناء الداخلي الذي وصلت إليه مقعدا كبيرا من الخشب "دكة" فارتميت عليه لأستريح، وجعل الراهب تادرس يسألني عن بلدي وعن صناعتي وعن سبب رغبتي في الرهبنة.

واجتمع حولي جماعة من الشباب الريفيين في ثياب قذرة حفاة الأقدام، وقالوا إنهم جاءوا إلى الدير مثلي للترهب، وعجبوا للجلباب الذي أرتديه، وللمعطف الثمين، وللنعل الجديدة المتينة، فجعلوا يسلمون بأيديهم ثيابي ليتحققوا من نوعها، كانوا من الجهل وسذاجة البدائيين لا يحجمون عن أي تصرف ..

ودخل الفناء ثلاثة رهبان في ثياب حريرية فاقعة الألوان، وعليها عباءات من الجوخ أو الصوف أو الحرير الأسود تسمى فراجيات، وعلى رؤوسهم عمامات سوداء نظيفة منظمة الوضع والحبك، تقدم الثلاثة واحد منهم يختال في مشيته وفي إيمائه وحتى في حديثه.

لفت نظره معطفي وحذائي .. فسأل القس تادرس وكيل الوسية عني.

قال: من هذا المسيو؟

فانتصب الراهب أمامه في خشوع وأجاب بأنني طارق جئت إلى الدير ابتغي الترهب.

فتحول إلي وسألني:

هو — اسمك أيه يا مسيو؟

أنا اسمي غالي جرجس ..

هو — من أي بلد؟

أنا — من مدينة القاهرة ..

فقال الراهب: التعب واضح على هذا الضيف، وهو جائع بالطبع فأعطه غذاء جيدا ليأكل ..

واتجه إلى الباب المؤدي للسلم وتبعه زميلاه، فعدت إلى مجلسي على المقعد الخشبي، وانصرف القس تادرس ليحضر لي طعام الغذاء كما أمر، فمرت برهة طويلة نزل إلي بعدها خادم شاب اسمه زكي وطلب مني الذهاب معه لمقابلة القس سيداروس فأطعت.

صعدت إلى الطابق الأول فوجدت الرهبان الثلاثة الذين سبقوني مجتمعين على مائدة الطعام، وهي صينية من النحاس فوق منضدة من الصاج، وألوان الطعام، عدس وفول نابت ولفت مخلل.

وعرفت بعد ذلك أن أسماء الرهبان الثلاثة: القس سيداروس وهو المقرب من أسقف الدير، ويتولى رئاسة الدير بصفة غير رسمية ويستمد سلطته غير المحدودة من عطف الأسقف عليه، والثاني اسمه القمص سلامة، وهو الآن وكيل المطرانية في الخرطوم، ورشح نفسه يوما ما لمنصب البطريق في القاهرة ولم ينجح في محاولته، واسم الثالث القمص بطرس وهو الآن مطران سوهاج وأخميم، وكان معهم على المائدة أفندي علمت بعد ذلك أنه وكيل الدير في الأعمال الزراعية واسمه تاوضروس ميخائيل.

وقفت في تأدب أمام الجماعة، فسألني سيداروس:

هو — هل تعرف القراءة والكتابة؟

أنا – نعم ..

فأشار إلى منضدة عليها كتب دينية وقال:

هو – هات كتابا من هذه الكتب.

فتناولت كتابا فإذا به الكتاب المقدس في حجم كبير، فقال:

هو – افتحه .. واقرأ ..

ففتحت الكتاب وقرأت سطورا كثيرة، فقال:

هو – هل فهمت معنى ما قرأت؟

أنا – نعم ..

هو – اشرح لنا ما فهمت ..

وقع حظي عندما فتحت الكتاب على صفحة من رسائل الرسول بولس، وعباراتها بأسلوب فلسفي، فشرحت ما فهمته مما قرأت، وكان القمص سلامة أكثر الجميع معرفة، فهز رأسه وقال:

هو – أنت تعرف أكثر من القراءة والكتابة ..

وقال سيداروس:

هو – أجلس معنا على المائدة ..

فجلست وأكلت، وقصصت عليهم ما قاسيت من التعب في رحلتي من ديروط إلى الدير على ظهر الحمار البطئ الحركة العنيد.

وقال سيداروس لخادمه زكي وهو في طريقه إلى غرفة نومه المجاورة لغرفة المائدة.

هو – خذ هذا الضيف إلى غرفة نوم بها سرير واحد لينام وليستريح فإنه متعب ..

وسرت في أثر الخادم إلى غرفة تقابل غرفة المائدة واستلقيت على السرير فغلبني

النوم ولم أستيقظ إلا وقت الغروب، وكان خادم القس في انتظار تنبهني من النوم ومعه طست وإبريق كبير به ماء ساخن فاغتسلت وذهبت لمقابلة سيداروس كما طلب.

وجدت القس الراهب في حديقة صغيرة خاصة به وفي يده مجرفة ثقيلة من الخشب يهوي بها على ثعبان ليقتله، فما انتهى من عمله حتى سار بي شوطا طويلا حتى خرجنا من باب الدير إلى الخلاء، وجلسنا في مزرعة بطيخ.

قال – سأكون معك صريحا لأنني أريد أن أصطفيك صديقا، لأنني في أشد الحاجة إلى صديق بين زملائي الرهبان.

وقال: قد تعجب لأنني أصارحك هذه المصارحة مع أنك عابر سبيل مجهول جاء يبتغي الرهبنة ، ولكنني لحظت أن تعليمك ومعرفتك وثقافتك أعظم مما يظهره ثوبك هذا المزيف.

قلت مبتسما – ولماذا هو مزيف؟

قال – لأن المعطف الغالي الثمن وهذه النعل المختارة بعناية خبير لا يتفقان مع هذا الجلباب الأسود والطاقية، فأنت إذن من طبق أرقى بكثير من طبق لابسي الجلاليب، أزيد على هذا أن مطالعتك في الكتاب المقدس وتفسيرك فلسفة بولس الرسول جعلتني أدرك أن لك نصيبا كبيرا من التعليم والمعرفة.

ثم قال – لقد استدعيتك إلى هذا الخلاء لنكون بعيدين من آذان الرهبان فقد عزمت على مكاشفتك ببعض أسرار الإدارة في الدير لتبدأ حياتك فيه وأنت في نور ..

في الدير الآن فريقان من الرهبان، الفريق الأول الرهبان الذين عاشوا هنا وترهبوا من زمن بعيد قبل تعيين الأنبا باخوميوس أسقفا للدير، فألفوا الفوضى وعدم التقيد بما يحد من حريتهم كأفراد لا كرهبان.

يقتضي نظام الرهبنة عزل الراهب وراء أسوار الدير عن العالم الخارجي لتقل المؤثرات النفسية في عقله وعاطفته وغريزته، ولكنهم خالفوا زمانا طويلا هذا النظام

فكانوا يخرجون من الدير للاتصال بالعالم الخارجي وبما فيه من مؤثرات مادية وعاطفية، بدون أن تحاسبهم رئاسة الدير على هذه الفوضى الخلقية لأن الرئاسة كانت من نوعهم.

وزاد الطين بلة أن الرئاسة القديمة لم تمنع دخول النساء الدير فتغلغلن بين الرهبان حتى في صوامعهم، وصارت مخازن أولئك النساء تلك الصوامع، تخزن كل واحدة حاجاتها القليلة في صومعة الراهب الصديق، فتدخل الصومعة وتخرج منها كيف تشاء وحين تشاء بدون مبالاة عيانا بيانا، جهارا نهارا، لأن الجميع في الفوضى الخلقية سواء.

وكان هناك مولد تقام ساحته خارج أسوار الدير فتجمع الطبول والزمور الراقصات في القهاوي، وينطلق الجميع الرجال والنساء لشرب الخمر ولعرض شتى أنواع الرذائل في غير تهيب ولا حياء.

فلما تولى الأنبا باخوميوس رئاسة الدير كأسقف منع هذه الفوضى منعا تاما، حبس الرهبان داخل الدير، ومنع خروجهم منه إلا لسبب مشروع، وحرم دخول النساء الدير، ومنع إقامة المولد تحت أسوار الدير وعاقب الرهبان على شرب الخمور عقابا شديدا فحرم الجميع من الفوضى الخلقية التي ألفوها زمانا طويلا، فسبب هذا الحرمان آلاما في النفوس التي اعتادت الانطلاق وراء الأهواء.

لم يعرفوا النظام فأرغموا على احترام النظام، وأكرهوا بالقوة على كبت العاطفة غير المقيدة بحبس البدن والنظر عن المؤثرات فيها، فضاقت الصدور بسبب الحرمان، وثارت النفوس على المنظم والنظام، وتحولت الثورة النفسية إلى تمرد في بعض الأحيان.

والفريق الثاني يتكون من الشبان الذين ترهبوا أثناء وجود الأسقف في الرئاسة فبدأوا حياة الرهبنة خاضعين للنظام الموضوع، خضعوا له في إطاعة واحترام وهؤلاء يريد الأسقف تكوينهم صحيحا بالتعليم والتربية وبالثقافة العصرية التي تتناسب عقلية الشعب وتجاري مؤهلاته العلمية والفكرية، لأن الأساقفة والمطارنة سينتخبون بعد زمان طويل أو قصير من هؤلاء الناشئين.

وقال: أنت شاب متعلم وقد حضرت إلى الدير تطلب الترهب لأسباب لا يصح

أن أسألك عنها، ومصلحتك تقتضي أن نكون أصدقاء، ولهذا حدثتك هذا الحديث لتطمئن إلى صداقتي وإلى الظروف التي سنعيش فيها معا في الدير.

أعجبت بهذه الصراحة وعقدت العزم في سري على الإخلاص لهذا الراهب وتوثيق عرى الصداقة بيننا إلى أقصى الحدود، ونمت بعد السهرة نوما عميقا هادئا بسبب الارتياح الذي شع في النفس من الاهتداء إلى رجل ينشد الصداقة.

وتولاني سيداروس في النهار برعايته، وأرسل لي ثيابا داخلية وخادمه الخاص ليهيئ لي وسائل الاستحمام، فصرنا أصدقاء نلازم بعضنا طول الوقت ولا ننفصل إلا عند النوم.

كان الأسقف غائبا عن الدير فحضر بعد أيام، وخرج الرهبان بالأعلام والدفوف لاستقباله عند وصوله إلى باب الدير، وخرجت معهم طبعا ونبه علي سيداروس بالاشتراك في حفلة الاستقبال بإلقاء كلمة صغيرة بين يدى الأسقف.

ووصل الأنبا باخوميوس إلى باب الدير وإلى جانبه على جواد ضيف من كبار الأعيان في مدينة أسيوط يدعى الخواجة سيدهم إلياس ..

فتولاني الفزع من رؤية الرجل.

كان عمي قاضي تحقيق الجنايات في أسيوط سنة ١٨٩٢، وكان والدي معاون بوليس طهطا ولم تكن بالمدينة مدارس أميرية حينذاك، فأبقاني عند عمي لأتمم الدراسة الابتدائية بمدرسة أسيوط، وكان الخواجة سيدهم إلياس وأخواه ناشد وحبيب زملائي من طلبة السنة الرابعة ..

وقد عرفت الرجل من أول نظرة وسيعرفني طبعا كما عرفته، وقد سمع الضجات العالية التي قامت حول اسم حافظ نجيب، فماذا يفعل حين يراني في الدير باسم غالي جرجس طالب الترهب، ومن المرجح أنه سيعلن الحقيقة للأسقف في مواجهتي أو سرا عند الخلوة به ..

زلزلتني هذه المفاجأة المزعجة وتركتني في اضطراب وخوف فصرت أتحرك وراء صفوف الرهبان تحرك المحكوم عليه بالإعدام وهو يساق إلى المشنقة، وكانت أصوات الدفوف وتراتيل الرهبان عالية ولكنها وصلت إلى أذني كطنين الذباب لأنني فقدت كل قواي ومعها الشعور.

وصل المركب إلى فناء الوسية وهو فناء مكشوف واقع بين بنائين يتصلان في الطابق الثاني بغرفة نوم سيدا روس وبغرفة المائدة، وجلس الأسقف على كرسيه قبل نهاية الفناء وإلى جانبه الخواجة سيدهم إلياس.

وانشطر الرهبان إلى شطرين أحدهما وقف إلى يمين الفناء والثاني إلى يساره، واستمروا في الترتيلة الأخيرة حتى انتهت، فجاء دور خطب الاستقبال والترحيب، فبدأ هذا الدور القمص يوحنا سلامة فألقى خطبته، وتبعه القس سيداروس ثم القمص بطرس، ثم أشار إلى سيداروس يأمرني بإلقاء كلمتي ..

لم يقع على نظر الخواجة سيدهم وأنا بين الرهبان لأننا جميعا في ثياب سوداء، ليس فيها ما يلفت النظر، ولكنه رآني حين خرجت من الصف ووقفت في منتصف الفناء، وسمعت الأسقف يأمرني بالاقتراب منه فأطعت.

رأيت عيني الخواجة سيدهم تحدقان في وجهي، ولحظت علامات الدهشة ترتسم على وجهه، فصرت أترقب صرخة تصدر منه رغم إرادته تفضح سري وتطلق علي نعال أولئك الرهبان، ولكن الصرخة لم تخرج من الرجل إنما انتصب وقال للأسقف.

– لقد تعبت من طول الشوط وأشعر بالحاجة إلى الراحة، وسأصعد إلى الاستراحة لأستريح حتى تنتهي من هذه الحفلة.

واتجه الرجل مستندا إلى البناء الذي على يمين مدخل الوسية ليصعد إلى القسم الخاص بالأسقف، فالتفت الأنبا باخوميوس إلى وقال:

– تكلم ...

عاد إلي بعض الاطمئنان بعد انصراف الضيف الذي أزعجني، فألقيت كلمة رحبت فيها بعودة الأسقف، فصفق لها طويلا ثم استدعاني بالقرب منه وأظهر لي عطفه علي وابتهاجه بحضوري إلى الدير.

فقضيت الليل في اضطراب وقلق لا أدري ما سيفعله الخواجة سيدهم، ثم غلبني النوم فنمت، ومر الليل بسلام وكذلك النهار الثاني، وسافر الخواجة عائدا إلى بلده بدون أن يظهر ما يشير إلى افتضاح أمري، فاطمأننت وعاد لي الهدوء والتفكير في إعداد وسائل راحتي في هذا المكان الذي صار مستقرا لي.

ولكن هل عرفني الخواجة سيدهم إلياس وسكت عن فضح سري؟

هل غاب وجهي عن ذاكرته؟ .. هذا هو الواقع .

الترهب

خصصت لي غرفة في الوسية في الطابق الأرضي تحت القسم الخاص بالأسقف فاستحضرت من محل صيدناوي بساطا، وصنعت مكتبا، واشتريت من مكاتب مصر كتبا، وجمعت من صيدلية ومن مخازن الأدوية في القاهرة ما يحتاج إليه القفر من العقاقير الطبية الضرورية.

وسترت النوافذ بستر من القماش الأبيض، وهيأت فراشي بصورة ترضي العين وتريح البدن، فاكتملت لي الحاجات اللازمة لإقامة طويلة، ونظمت وقتي حتى أفيد منه، تركت الأوقات المخصصة للصلاة في الكنيسة على حالها لأنني لا أملك سلطة لاستبدالها بغيرها، وتصرفت في بقية الوقت كمقتضي الحال.

خصص الأسقف عريفا ضريرا ليعلمني القداس عن ظهر قلب، وآخر ليعلمني مطالعة اللغة القبطية لأتمكن من القراءة، وتعلم هذه اللغة من أسهل الأمور على الذي يعرف لغة إفرنجية لقرب الشبه بين الحروف القبطية والحروف الإفرنجية في الشكل وبعضها في النطق مع تحريف بسيط، فتعلمت القراءة في أيام فساعدتني على حفظ القداس.

وتعجل الأسقف عملية الترهب، فذهبت إلى الكنيسة مع جماعة من الشباب فحضرنا الصلوات العادية حتى تمت، ثم رقدنا على الأرض في ضجعة الأموات وصلى علينا القس سيداروس صلاة الموتى، ومعنى هذا أننا متنا كأفراد بين الناس وانقطعت صلتنا بعالم الأحياء ووقفنا في الدير لنحيا بالروح وحدها.

وما دام المفروض أن الموت قد تم فتكون النتيجة أن يصحب الوفاة الجسدية الاسم الذي كان يحمله في العالم صاحب الجسد الذي ناله الموت، ثم يختار الدير اسما جديدا للراهب الجديد الذي انتقل من عالم إلى آخر ومن حياة إلى حياة جديدة،

فاختاروا لي اسما أطلق علي فصرت به الراهب فيلوثاؤس.

ونظام الدير يقتضي اجتماع الرهبان في الكنيسة كل ليلة عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل للاشتراك في الصلاة، وتنتهي عادة قبيل إشراق الشمس، ثم أعود إلى غرفتي فأنام إلى الساعة التاسعة، فأنتقل إلى المدرسة لأعلم زملائي الجدد في الرهبنة: المطالعة والكتابة والحساب والتاريخ من الكتاب المقدس (التوراة) وكنت المدرس المفرد في تلك المدرسة الصغيرة.

وأتناول طعام الغداء مع القس سيداروس وزملائه في أوقات غير منظمة تنتهي عادة عند الساعة الثانية، وأستريح إلى الرابعة، ثم أذهب إلى حديقة كبيرة مهملة داخل الدير فأصلح فيها جزءا هيأته لزراعة بعض أنواع الخضر: اللوبيا – الفاصوليا – الكوسة – الطماطم – الباذنجان – الفجل – الكرات – البقدونس – الشبت – الفجل الأفرنجي.

عنيت كثيرا بهذه الزراعة لأنني لم أحتمل أكل العدس والفول والبصارة بحال مستمرة، فصرنا نجد على المائدة هذه الخضر مطبوخة بالزيت.

ومكنتني الخلوة بنفسي في أوقات الفراغ الطويلة من المطالعات والإفادة منها، واستحضرت من القاهرة أدوات التصوير بالزيت فصرت أتلهي بها فرسمت صورة للبطريرك الأنبا كراس وأخرى للأب أنطونيوس أبي الرهبان من زمان بعيد.

طابت لي هذه الحياة الهادئة ووجدت أنواع التسلية في مصادقة القس سيداروس والقمص بطرس، وفي المدرسة والحديقة ثم في المطالعة، وكنت دائبا على حفظ القداس في عجلة بسبب رغبة الأسقف في ترقيتي إلى درجة قس.

ولكن هذه الحياة كانت تتخللها مزعجات متنوعة لا يدرك غيري أنها مزعجات تبعثني على الفزع، كان الأسقف فخورا بوجود شاب متعلم من نوعي بين رهبان ديره، فطاب له أن يعرضني على كل زائر وجيه يزور الدير لأتحدث إليه.

زار سيد بك خشبة الدير مرة (المرحوم سيد باشا خشبة بعد ذلك) فحدثه

الأسقف عن وجود رهبان في الدير متعلمين يجيدون اللغة العربية، واستدعاني لمقابلة الزائر الوجيه .. وجعل سيد خشبة يسألني في قواعد اللغة العربية: متى تكسر إن ومتى تفتح همزة القطع فيها، وسألني عن نون التوكيد، وعن حروف العلة وما يطرأ عليها بعد النواصب والجوازم ... و ... و ... و ... فكنت مرغما على الإجابة مع ضيق صدري من هذا التصرف.

وحدث مرة أن حضر إلى الدير باش مهندس التنظيم لمعاينة عملية في بناء القصر الذي يشيده الأسقف في الدير، وناط بي مرافقة الرجل، واستدعى الحال أن أعدل شيئا في ملاحظاته لأنها خاطئة، فحدثت بيننا مناقشة لجأت فيها لعلم الهندسة لإقناعه برأيي فاقتنع، ولكنه حملق في وجهي يتحقق منه ثم قال:

– من المدهش حقا أن تكون راهبا ..

فتذكرت أنني أخطأت لأن مثل هذه المجادلة ربما تكون سببا في كشف سري، ولمت نفسي على اندفاعي في هذا السبيل ونسيان حقيقة أمري والظروف التي تقضي علي بالتحصن من كل مظهر يفضح حالي، المعروف عن الرهبان أنهم في ذلك الزمان من طبق تنقصه المعرفة، فكان الواجب أن أبقى على مثالهم وأحبس لساني في حلقي.

ولم يكتف الرجل بما قاله لي فكرره للأنبا باخوميوس وجعل يسأل عني أين تعلمت؟ وكيف رغبت في دفن نفسي في الدير مع ما لي من المعرفة؟ وألح في السؤال عن الأسباب الهامة التي حدت بي للجوء إلى الدير ..

وحدث مرة أن هيئة محكمة الجنايات انتقلت إلى قرية مجاورة للدير للمعاينة في جريمة قتل، ولم يسمح لها الوقت بالعودة إلى أسيوط بسبب نقص وسائل المواصلات المريحة حينذاك، فأرغمت على المبيت في الدير وهو المكان المفرد الصالح لاستراحة هذه الجماعة، فلجأوا إلى الدير ضيوفا لليلة.

كانت هذه الليلة بالذات ليلة عيد القيامة عند الأقباط، وقضى الرهبان النهار في الكنيسة يتعبدون، ومن هذه العبادة ضرب مطانوات (المطانوة سجدة)، بالمئات في

الجهات الأربع لأن أحدا لا يعرف الجهة التي سيجيئ منها المسيح بعد قيامته من الموت.

وكان بين المستشارين قبطي ينتهي اسمه بلقب سميكة، ورأى الأسقف زيادة في تكريم ضيوفه دعوتهم لزيارة الكنيسة في الليل لمشاهدة كيفية عبادة الرهبان وصلواتهم، فلبوا الدعوة في ارتياح وانتقلوا إلى الكنيسة، وجلسوا بعيدا عن الرهبان على كراسي أعدت لهم.

تولاني القلق منذ وصول هذه الهيئة القضائية إلى الدير محاذرة من أن يكون بينهم من يعرفني، فعقدت العزم على الاحتراس من الظهور أمامهم، لزمت غرفتي وفراشي بدعوى المرض، وهذا العذر يقبله كل عقل سليم مبررا لعدم ترك الفراش والذهاب للكنيسة.

وكان هدف الأسقف من دعوة هيئة المحكمة إلى الكنيسة رغبته في حملهم على سماع وعظ الراهب فليوثاؤس الخطيب القدير ليقتنع المستشار القبطي بأن بين الرهبان متعلمين من نوع ما في الطائفة من المثقفين، ولكنه فوجئ بمرض ذلك الراهب الواعظ.

ولكن المرض في اعتبار الأسقف صاحب السلطة المطلقة ليس عذرا يمنع المريض من تنفيذ رغبته والذهاب إلى الكنيسة والوعظ أمام الضيوف، فأرسل سيداروس ليبلغ إلى أمر الأنبا باخوميوس، وصاحبي هذا الشاب درس في مدرسة الأقباط بالقاهرة حتى كاد يتم الدراسة الثانوية، وكون الاختبار عقله تكوينا يمكنه من الفهم والوزن وصدق الحكم في حدود معينة.

وقلت له إنني مريض أتألم ألما حاد من الكلية، فكيف أقوى على عدم الشعور بالألم لأتمكن من إلقاء موعظة؟ .. هل تريدون مني أن أقطع الوعظ في الكنيسة أمام الضيوف ثم أتلوى من شدة الألم وأصرخ: آه يا كلوتي .. آه يا جنبي! ..

واقتنع القس سيداروس بوجاهة اعتذاري، ولكن الأسقف لم يقتنع فنزل إلي ووقف إلى جانب فراشي وقال:

– سلامتك يا بونا فلتاؤوس ...

واضطررت للجلوس في الفراش احتراما للأسقف الجليل، ومثلت في جلستي دور الموجوع المتألم، ولكنه لم يعبأ بألمي وقال:

– عندنا ضيوف محترمين يا بونا فلتاؤوس. وفيهم مستشار مسيحي زينا، وعاوزين نفهمهم أن الدير عمار، وأن بين الرهبان كهنة متعلمين زي الشعب وأكثر مما في الشعب ... فيجب أن تتولى الوعظ في هذه الليلة ..

قلت – مما يؤسف له ويزعجني أنني مريض والمغص الكلوي سبب لي آلاما لا تطاق، فليسامحني سيدي الأسقف إذا اعتذرت عن تلبية أمره الآن لأن آلامي الشديدة هي التي تمنعني من تأدية هذا الواجب ..

فلم يتحول الرجل عن رأيه وقال:

– المسيح سيباركك ويقويك على احتمال الألم حتى تتم الوعظ ..

قلت – المسيح الحكيم الرحيم لا ينكر نوع تأثير الآلام التي لا تطاق لمجرد الرغبة في إلقاء موعظة أمام ضيوف .. لقد عجز المسيح نفسه عن احتمال الألم وهو يعذب وتأوه وغاب عن صوابه ...

قال في إصرار – آلامك من المغص الكلوي لا تضارع آلام المسيح على خشبة الصليب .. وأنا على يقين من أن المسيح سيقويك على احتمال الألم لأنك ستؤدي عملا لخدمة الكنيسة وخدام يسوع ..

أدركت أنني بين أمرين أحدهما مر، فإما أن أصر على ملازمة الفراش بسبب مرضي فأخالف أمر هذا الرئيس الدكتاتور وأنفره مني.

وإما أن أتحامل على نفسي وأذهب إلى الكنيسة وألقي العظة في مجازفة قد تكون سببا في فضح سري ..

ورأيت الأسقف يتناول فراجيتي من المشجب ويمد يده بها إلي مع ابتسامة حلوة

صادرة من نفس طيبة وقلب نقي ليس فيه من العيوب سوى سلامة النية والصفاء.

خذلت بتأثير هذه الطيبة الصادقة وقبلت يد الكاهن الكبير للدلالة على تأثري بعطفه علي وارتديت ثوبي، ولففت رأسي بلفافة سوداء من الحرير "شال" وسرت إلى جانب الأنبا باخوميوس إلى الكنيسة، فأنحرف هو إلى المكان الذي به الضيوف، وسرت إلى مكان الرهبان وجلست بينهم.

كانت الكنيسة القديمة مفروشة بالحصر فنجلس عليها، وكانت مضاءة بقناديل يغذيها الزيت، فكان ضوؤها ضعيفا في ذلك الفناء الكبير، وكان الرهبان جميعا في ثياب سوداء متماثلة فلا يمكن التمييز بينهم إلا برؤية الوجوه أو سماع الأصوات، فمن المتعذر على العين الغريبة أن تميز حافظ نجيب المتنكر بين زملائه الرهبان، لأن تماثل الثياب في الشكل واللون يجعل المشهد مشهد قطيع تتماثل غنمة في العين.

ولكن تنبه المتهيب الحاذرة يسلط عينه على الوجوه الغريبة ليتحقق منها رغبة في الاطمئنان من ناحيتها إذا تلبث له أنها لا تعرفه، وهكذا فعلت، قضيت برهة تخترق أشعة عيني الظلمة الخفيفة في الركن الذي جلس فيه الضيوف لأفحص وجوههم، فكانت النتيجة: الفزع الأكبر ..

رأيت إلى جانب المستشارين رئيس النيابة مصطفى بك حلمي .. فعرفته رغم مرور أعوام طويلة على آخر مرة تلاقينا فيها ...

كان عمي المرحوم حسن كامل قاضيا في محكمة أسيوط الكلية، وكان مصطفى بك حلمي زميلا له ويسكن بجواره، وكان القضاة في ذلك الزمن من ذوي الأخلاق الحسنة والاتزان ومن المحافظين على الآداب والتقاليد، فكانوا يزورون بعضهم في المساء، ويقضون وقت الزيارة في منادر، وكان مصطفى بك هذا يزور عمي وأجلس معهما طول السهرة في المندرة.

وقد عرفت الرجل من أول نظرة، فهل تعجز ذاكرته عن معرفتي إذا وقع نظره علي؟ ..

والرجل رئيس نيابة من ذوي النزاهة والشرف والأمانة في تأدية واجبات عمله، وقد حلف اليمين، ومن واجبه إلقاء القبض علي إذا رآني وعرفني فهل يتذكر صداقته لعمي ويهمل واجبه إكراما لتلك الصداقة، أو يضحي الصداقة في سبيل الواجب؟

ليس في مقدوري ترجيح أحد الأمرين على الآخر لأن تصرف رئيس النيابة سيكون بتأثير عقله وبتأثير المؤثرات المتباينة في نفسه.

ولا مناص من صعودي إلى المنصة لإلقاء العظة المفروضة علي، والمنصة تنصب عليها أضواء شموع كثيرة تبدد الظلام وتنير كل ما حول الواعظ، وتمكنه من المطالعة إذا شاء الرجوع إلى الكتاب المقدس لقراءة بعض الآيات لتعلن بنصها الثابت في التوراة أو في الإنجيل ..

وكثرة الضوء تمكن عين رئيس النيابة من رؤية وجه الواعظ، وذاكرته لا يمكن أن تخونه فتنسيه الوجه الذي انطبع من زمان على لوحة ذهنه، فموقفي إذن خطير ومهدد بنتائج سيئة، ولكن لا مفر منه ولا وسيلة للإفلات.

وحان وقت الوعظ وصعد الراهب فيلوثاؤس إلى المنصة الموضوعة إلى يسار الحجاب الذي يعزل الهيكل عن فناء الكنيسة حيث يجلس المصلون. صعد الرهب متمهلا وهو تحت تأثير هذه المؤثرات التي تبعث على الرعب، ولكنه استجمع قواه وبدأ خطبته، وتعمد أن يلفت إليه أولئك القضاة فجعل موضوع العظة: مبادئ الدين المسيحي هي مبادئ الثورة الفرنسية "حرية – مساواة – إخاء" وضمن الموضوع بعض آيات من الكتاب المقدس.

تحول نظر رئيس النيابة إلى وجه الواعظ كما فعل غيره من الحاضرين، وسمعه يلقي عظته أو يخطب خطبته بصوت وديع أولا ثم علا هذا الصوت شيئا فشيئا، وانتصب رئيس النيابة ووقف برهة يصغي إلى الخطيب وهو متكئ على ظهر الكرسي، ثم حدث جماعته بصوت خافت وخرج من الكنيسة وعين الواعظ لا تفارقه وتحصي عليه حركاته.

قال حافظ نجيب في سره: من المحقق أن الرجل عرفني، وقد جعلته الدهشة

ينتصب واقفا، وقف بتأثير الارتباك والرغبة في استقرار عقله على حال واحدة:

هل هو رئيس نيابة؟ هل هو صديق المرحوم حسن كامل؟

كان عقل حافظ منصرفا إلى النزاع القائم بين الواجب والصداقة في نفس رئيس النيابة، بينما لسان الواعظ تتدفق منه العبارات بليغه والمعاني واضحة سامية، وبينما الآذان تصغى لنوع جديد من الوعظ العصري يلقي من منصة رجل دين راهب في دير أهله في عزلة عن العالم وعن الأحياء وعن الساسة والسياسة.

زاد فزع حافظ بعد خروج رئيس النيابة، وجعل يعلل الدافع الذي دفعه لترك زملائه ومبارحة الكنيسة أثناء وعظ الواعظ القادر الجاد في خطبته.

هل خرج ليجمع قوة من الخفراء ليلقي القبض على الشقي الهارب من العدالة المتنكر في زي راهب؟

هل يحضر القوة ويحاصر الكنيسة، ثم ينتظر خروج الرهبان بعد إتمام الصلاة ليتمكن من القبض على الشقي خارج الباب؟ ..

هل؟ وهل؟ وهل؟

تتوالى هذه المشاغل على فكر حافظ بينما الواعظ يوالي عظاته وتتدفق معانيه وعباراته حتى انتهى من خطبته ونزل من المنصة يريد الجلوس بين زملائه الرهبان، ولكن خادما انحنى على أذنه وأسر إليه أمرا من الأسقف يدعوه للحضور لمقابلته.

لابد من الإطاعة في الحال وتنفيذ الأمر، فذهب الراهب لمقابلة رئيس الأسقف وهو إلى جانب ضيوفه، فقابلوه مقابلة حسنة، وأظهروا إعجابهم بالنظريات والمبادئ التي ذكرت في العظة التي ألقاها.

نفذ الأسقف رغبته في إسماع ضيوفه عظة الراهب الواعظ، وسمع منهم الثناء عليه، لقد أثبت لهؤلاء المثقفين أن في الأديار متعلمين ومثقفين، فلم يعد هناك حاجة لبقائه معهم في الكنيسة فدعاهم للانتقال إلى مسكنه الخاص.

وأرغمت بالأمر على مرافقتهم لتناول الكعام معهم وظنوا أن هذا تكريم لي، أما أنا فزادت مخاوفي من نتيجة هذا التصرف بسبب وجود رئيس النيابة، لأن الظروف ستجيئ به إلى هذا المجلس وتجمعه به ولو على المائدة.

وسأل المستشارون عن زميلهم فقال لهم الخادم إنه نام بسبب التعب وأوصى بعدم إيقاظه لأي سبب، فاطمأننت وهدأ اضطرابي، وعلمت في الصباح بعد تيقظي من النوم أن الجميع رحلوا عن الدير مبكرين ..

وحدث أن جماعة الرهبان الجزويت زاروا الدير في يوم قائظ فناط بي الأسقف مرافقتهم لمشاهدة الكنيستين والبرج وسائر ما يريدون رؤيته، فسرت معهم كدليل، وكان بينهم من يجيد اللغة العربية فجعل يحدثني بها كلما أرادوا الاستفهام عن شيء.

كانوا يعتقدون أن الرهبان الاقباط لا يوجد بينهم من يعرف لغة من اللغات، فلجأ بعضهم إلى اللغة العربية وهي المفردة التي يجوز أن أفهمها، وصرت أجيب على الأسئلة بنفس اللغة، فسلطوا ألسنتهم في ملاحظات صادقة على ما تقع عليه عيونهم مما لا يوصف بأنه نظافة أو نظام.

وسمعت أحدهم يقول — أنا شديد الظمأ ولكنني أفضل الموت ظمأ على شرب قدح ماء في هذا المكان القذر ..

ولما انتهى الطواف عدت بالجماعة إلى الوسية، وفتحت لهم باب غرفتي الخاصة، فاستولت عليهم الدهشة لأنها كانت عظيمة ومنظمة، واندفعوا إلى آنية الماء المبرد فشربوا منه في أقداح نظيفة.

ولاحت من أحدهم لفتة إلى المكتب فرأى عليه كتابا باللغة الفرنسية مفتوحا ومثبتا بثقل من البللور، فتناول الكتاب وتحقق منه ثم قال لزملائه في تعجب:

هو —كتاب في اللاهوت باللغة الفرنسية.

ثم سألني:

هو – لمن هذا الكتاب؟

قلت – لي ..

قال – وهل تعرف اللغة الفرنسية؟

قلت – نعم ..

قال – وقد سمعت كل ملاحظاتنا عن عدم النظافة! .. إذن نحن نعتذر لأننا كنا نجهل أنك تفهم حديثنا ..

قلت – لقد كانت الملاحظات وصفا صادقا لما وقعت عليه العيون، وقائل الحق لا يفرض عليه الاعتذار ولو كان للحق مرارة ..

فجعلوا ينظرون إلى بعضهم كأنهم يتشاورون، ثم أشار إليهم أحدهم بيده وجلس، فجلسوا جميعا متربصين لما سيكون بيني وبين زميلهم من الحديث ..

كان الرجل في أول الحلقة الخامسة صبوح ذا عينين صافيتين براقتين، وله لحية خفيفة ظللت ذقنه وصدغيه، وله صوت عذب واضح له موسيقى تدل على الرجولة وعلى قوة العزم، نظر إلى وجهي طويلا يتحقق منه ثم قال:

هو – أنت أرثوذكسي؟

قلت – نعم.

قال – هل تأذن لي بأن أوجه إليك سؤالا؟

قلت – نعم.

قال: كيف يتمكن العقل من إدراك ما قررته الديانة المسيحية من أن الأب والابن والروح القدس ثلاثة أقانيم في جوهر واحد هو الله؟

قلت: كان الله موجودا من الأزل قبل وجود الكون والكائنات، وهو الذي خلق، ويدلون على الله في هذه الفترة بكلمة آب .. فآب يقصد بها الإله الخلاق.

وجاء الابن للتفكير عن خطيئة الإنسان ليستحق الغفران والرحمة، فعمل الابن وصفة الرحمة، وصفة الابن أنه الرحيم.

ولما اكتمل خلق الكون والكائنات والقوانين الطبيعية، صار عمل الإله في هذا الكون الحكمة، ووصفه أنه الحكيم.

فللإله الخالق على أساس هذا التوضيح ثلاث صفات لجلاله: هي الخلاق الرحيم الحكيم .. فهذه الصفات للجوهر الواحد لا أجزاء مجتمعة في هذا الجوهر ..

أصغى إلي الرجل في انتباه تام وسكون، فلما انتهيت من الإجابة على سؤاله حملق في وجهي وهز رأسه ثم قال:

- يلوح لي أنك تفكر بعقيدة المسلمين!

قلت – هذا ما يقرره العقل والمنطق ويقرب الذهن إلى فكرة الوحدانية التي يسلم بها الجميع.

وانصرف الزائرون بدون مقابلة الأسقف فحمدت الله، لأن إجابتي المنطقية قد لا ترضي أحدا إذا شرحت لغير ذي معرفة أو حرية في التفكير، وعلمت بعد ذلك أن الذي وجه إلي هذا السؤال هو الأب كرتيه رئيس الجزويت!

مناشئ الحسد

خرجت يوما مع الأسقف إلى الفضاء الواقع أمام باب الدير، فجعل يتحدث عن الرمال التي تجيء بها الرياح من الصحراء فتغطي هذا الفضاء الفسيح وتعطل الانتفاع به.

قال — لو أمكن منع الرمال من تغطية هذه الأرض يكون في المقدور غسلها وإزالة الطبقة الرملية السطحية عنها فتنكشف الأرض وتصلح للزراعة وتستثمر وتحسن مدخل الدير.

قلت — الأمر سهل جدا ..

قال — هل يمكن وقف الرياح التي تحمل الرمال؟

قلت — .. إنما يمكن منع الرمال من الوصول إلى هذا المكان.

فضحك الرجل وقال:

- هل تريد تثبيت الرمال في أماكنها فلا تنقلها الرياح!

قلت — لا .. إنما يمكن منع الرمال المكتسحة من غمر هذا الفضاء من الأرض بعملية بسيطة، يقام سور من الطوب النيء على ارتفاع قليل على طول الضلع الغربي للأرض، فإذا حملت الرياح الرمال تجد أمامها هذا السد فتقف عنده ..

فوقف الرجل يفكر برهة في صمت وسكون ثم عاد إلى الدير، وفي النهار الثالث لهذه الحادثة رأيت كتيبة من العمال والبنائين يتولون بناء السور، فأدركت أن الأسقف الجليل رجل عمل حازم قوي الإرادة.

وسافر القمص سيداروس إلى أسيوط لمعالجة أنفه، ثم انتقل إلى القاهرة، وكتبت إليه مرات لأطمئن على صحته فلم يعن بالإجابة على كتبي، وكتب لغيري، فاستأت من

استخفافه بي.

وعاد بعد أيام من سفره فخرج الرهبان لاستقباله بالأعلام والدفوف والتراتيل كما يفعلون في استقبال الأسقف نفسه، ولم أكن على علم بموعد حضوره للدير، وكنت في الحمام وقت وصوله فلم تتح لي فرصة الخروج معهم لاستقباله، فتوهم أنني قصرت فيما يظنه واجبا علي له.

وحاولت مقابلته في ذلك النهار مرات فلم يمكنني من ذلك حتى جمعتنا الصدفة في النهار الثاني، فاعتذرت وسببت اعتذاري، ولكن الأسباب التي ظننتها معقولة لم تمح من نفسه تألمه مما بعده ترفعا مني وتعاليا عليه، فلم أعبأ به ..

وبدأت المعاكسة في اضطراب مواعيد تناول الطعام على المائدة التي تجمعنا، وأدركت أنه يعتمد ذلك، فنظمت مطبخي ومواعيدي وصرت أتناول غذائي في غرفتي، فزاد هذا التصرف في الحنق علي ..

واستحضرت من العاصمة أجراسا كهربائية لأتمكن من استدعاء خادمي أو الطاهي بدون السعي إليهم، وأرغمتني الكياسة إلى وضع مثلها في حجرات الأسقف والقمص سيداروس والقمص يوحنا سلامة وفي غرفة الكتبة ليدعوهم الأسقف حين يشاء، وجعلت البطاريات في زاوية من غرفتي.

ولم يرض سيداروس عن هذا التصرف وطلب مني أن أضع هذه البطاريات في القسم الخاص به، وصارحني بأنه يخشى أن أعطل أجراسه إذا حدث بيننا خلاف، فكانت هذه المصارحة الوقحة سببا في امتناعي عن تنفيذ رغبته، وزاد الامتناع في حنقه.

ظهرت في تلك الأيام رسالة الشيخ عبدالعزيز جاويش "الإسلام غريب في بلاده" فزلزلت البلد وتركت أثرها السيء في نفوس جميع الأقباط، وانفض شيوخهم وشبابهم عن الحزب الوطني وانقسمت الأمة إلى فريقين يتجافيان بل يتخاصمان، فاشتدت المعركة.

ورأيت من التعقل أن ألطف من غضب الشيخ عبدالعزيز واندفاعه في هذا السبيل الذي يهدم وحدة الأمة، فكتبت إليه بتوقيع الراهب فيلوتاؤس ألطف من ثورة نفسه وأنبهه إلى نتائج هذه الحملة القاسية وفعلت كتبي في نفسه فعل المرطبات، ارتاح للأسلوب اللين اللطيف ووزن الأسباب التي ذكرتها ليكون مقتضاها وقف المخاصمة ونشر الرسائل القاسية التي تفعل فعل النار في الهشيم.

وكتب الرجل وهو لا يدري أنني حافظ نجيب أحد معارفه المعجبين بقلمه وخطبه العاطفيين عليه بعد خروجه من وزارة المعارف مغضوبا عليه، كتب إلي في لين ورفق وتعقل، ورددت عليه مرات فتوثقت مودة جديدة بين الراهب في ديره والكاتب في جريدته، ونشر اللواء مختارات من تلك الكتب التي تدعو للسلام وللائتلاف.

أما السياسة الداخلية في الدير فقد وجهها القمص سيداروس إلي ناحية عدائية.

رأى جماعات من الزائرين يحضرون إلى الدير من نواحي شتى لرؤية الراهب فيلوتاؤس، لأنالشائعات والمبالغات صورته للأذهان في صورة واعظ قادر وناسك متعبد بل قديس له معجزات، قالوا إنه يشفي من الأمراض ..

وسبب هذا الوهم أنني كنت أملك أنواعا من القطرة والمراهم والملينات وبعض العقاقير الطبية الضرورية لأنني معزول عن العالم، فإذا لجأ إلى من يحتاج للقطرة قطرت له في عينيه، أو من يحتاج للملين سهلت له حاجته، أو ... أو ... فضاعت الشائعة هذه الإسعافات البسيطة وحولتها إلى معجزات تشفي المرضى من أدوار مزمنة! ..

وكنت أغلي الماء ثم أرشحه لأشربه، فحولت الشائعة هذه العملية الغريبة على الجهلة والساذجين إلى أعمال كيميائية للحصول على الذهب!

ووجدوا بعد خروجي من الدير كؤوسا مدرجة وأنابيب اختبار ومبردا بردت به بعض المعادن، فقالوا إنني كنت أبرد به ذهبا أخلطه بالرمل ثم أستخرجه منه لأوهم رئاسة الدير بأنني اكتشفت الذهب في الصحراء.

كان الجهل يعلل تصرفاتي الطبيعية في حدود إدراكه الخاطئ، ويطلق هذا التعليل إشاعة، وتولت السذاجة أو الخبث هذهالشائعات فضاعفتها وأرسلتها خرافات لها عند الأغبياء وناقصي المعرفة قوة الحقائق.

أنا رجل متعلم أعرف أن الذهب لا يوجد برادة في الرمل إنما يوجد في بطن الأرض ويستخرج بوسائل علمية معروفة لكل متعلم تثقف، فليس من المعقول أن ألجأ إلى خلط ذرات الذهب في الرمل لأخدع العقول بأنني اكتشفت الذهب ..

كنت أعلم يقينا أن الأسقف على اتصال بالأستاذ توفيق دوس وبجماعة من كبار رجال الأقباط الحاصلين على المعرفة والثقافة، فلو حاولت خدعه بحيلة يتحتم أن أختارها علمية مدعمة بكل ما يؤيد صحتها حتى لا تجد اعتراضا عليها من العقول السليمة يكشفها ويفضح أمرها أنها خدعة أو حيلة.

فالجهل هو الذي خلق شائعة حكاية خلط برادة الذهب بالرمل لاستخراجه للإيهام بأنه اكتشاف، لم يدع الأسقف هذا الادعاء في حياته، كذب تكذيبا قاطعا هذه الخرافة، ونفى عني أية محاولة للحصول على نقود من الدير سوى "الريال" الذي يصرف لي كمرتب شهري، ولكن تكذيب الأسقف للذين سألوه في مجالسه الخاصة لم ينشر أحد في الصحف التي نشرت حكاية الذهب وبالغت فيها وفي غيرها من الاتهامات الباطلة.

وليس يمنعني تقصير الأسقف الأنبا باخوميوس لإعلان الحقيقة عن الدفاع عنه بعد وفاته، فقد كان لذلك الكاهن العظيم خصوم في الدير وفي الخارج ينشرون عنه شائعات كثيرة باطلة للنيل من طهارته ومن كرامته كرجل دين. ولم يظهر

من بين تلاميذه أو مريديه من أدى هذا الواجب دفاعا عن الرجل.

ولو تعمدت نشر الحقيقة التي عرفتها وهو حي لضاع هذا الدفاع بتأثير اتهامي بأنني كتبته مأجورا، أما وقد فارق الرجل الحياة من زمن بعيد فإن ما أعلنه مما عرفته ورأيته بعيني فلن أتهم بالتطوع بباعث مادي.

كان الأنبا باخوميوس أسقف الدير المحرق ككل راهب في زمنه محدود المعرفة، جميع مؤهلاته معرفة القراءة والكتابة وحفظ ما يفرض على الراهب حفظه من الصلوات والتراتيل والمزامير، ولكنها تكون بالاختبار الطويل وكثرة التجارب.

وكان رجلا يرغب في الإصلاح في جميع النواحي؛ فلما تولى رئاسة الدير حول الرهبنة إلى النظام الذي يتحتم أن تجري عليه الأمور، لم يكن في مقدوره تربية الكهول والشيوخ الذين لم يعرفوا أي نوع من التربية، ولكنه حصر تصرفاتهم بالأوامر الإدارية، في حدود النظام المفروض في الرهبنة.

منع خروج الرهبان من الدير إلا لسبب صحيح هام، ومنع دخول النساء الدير، وحدد مواقيت الصلاة (جماعة). وفرض عقوبات على كل مخالف، ونظم عمليات التغذية والكساء والنفقة الضرورية الكمالية للراهب، وأنشأ مدرسة للرهبان الشبان، وحرم الخمر.

وفرض النظام الدقيق على الذين ألفوا الفوضى يحملهم على الاستياء وعلى التذمر، تارة في صمت وتارة أخرى علانية في شبه ثورة، ولكنه لم يعبأ بتلك الأحوال النفسية ونفذ نظامه في حزم على الجميع وحملهم على الاستكانة والخضوع مع استبقاء الغل دفينا في الصدور.

ومن الاتهامات الباطلة التي أذاعتهاالشائعات:

(أ) أنه لا يصلي.

(ب) أنه لا يصوم.

(ت) أنه مترف ويشرب الخمر.

(ث) أن القمص سيداروس ابنه بالجسد ..

وسيكون دفاعي منطقيا يهدم هذه الاتهامات الباطلة.

(أ) وجدت ثعبانا في دورة المياه في الطابق الأرضي فصرت أخشى اللجوء إليها ليلا،

فإذن لي الأسقف باستعمال دورته الخاصة في الطابق الثاني الذي يقيم في قسم منه.

وحدث مرة في إحدى ليالي الشتاء أنني أرغمت على القصد إلى الدورة، وكنت أنتعل نعلا من الصوف لا يسمع صوت وقعها على الأرض، فصعدت إلى مكان دورة المياه، فسمعت تمتمة آنية من فناء مكشوف يقع قبل مدخل مسكن الأسقف، فراني ما سمعت، لأنني سمعت أن للأسقف خصوما في الدير وأن حقدهم عليه ربما يدفعهم إلى الاعتداء عليه.

تذكرت هذا في ذلك الموقف وخيل إلي الوهم أن بعض هؤلاء الخصوم يحاولون السطو عليه وهو نائم غافل عن الناس، فتركت مصباحي في دورة المياه وسرت في محاذرة إلى المكان الذي صدر منه الصوت الهامس، فرأيت الأسقف في جلباب قصير من الصوف الطبيعي، وعلى رأسه طاقية، حافي القدمين واقفا يصلي في الفناء المكشوف، ويؤدي السجدات الكثيرة المفروضة على كل راهب في صومعته ..

كان هذا المشهد مفاجأة لي يكذب ما سمعته عن الأسقف أنه يهمل الصلاة، وكان تأثير الشائعات في عقلي فعللت صلاة الرجل في تلك الليلة تعليلا ينحاز لصحة الشائعات، قلت إن الرجل كان في حالة نفسية هدمت من روحه المعنوية، أو كان في ضيق أرغمه على اللجوء إلى الخالق يتوسل إليه بالصلاة.

ودفعني الفضول إلى محاولة معرفة الحقيقة كاملة، هل كانت تلك الصلاة وقتيه بدافع وقتي أو يؤدي الرجل المفروض عليه كواجب لازم الداء، فتعمدت الذهاب إلى دورة المياه مرات في ليالي متفرقة لأتجسس على الأسقف بعد الساعة الثانية بعد منتصف الليل، فرأيت الرجل في جميع هذه المرات يصلي في خشوع ..

ولم ير أي راهب ذلك الأسقف في كنيسة الدير إطلاقا، ولكنني رأيته أكثر من مرة معنا في الكنيسة أثناء الصلاة، والصدفة وحدها هي التي مكنتني من هذا الاكتشاف الذي لبث إلى الآن سرا يجهله الجميع.

كانت الصلاة (الجماعة) تبدأ عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل فيجتمع الرهبان داخل الكنيسة أمام الهيكل يرتلون تمهيدا لسماع القداس، وكنت أتأخر عن هذا الموعد في بعض الحيان وخاصة في الشتاء، فحدث مرة أنني رأيت في طريقي إلى الكنيسة راهبا في جلباب أسود يتقدمني فلم أعن به لأن في الدير عشرات من الرهبان لا يهمني أمرهم، ولكنني رأيت الرجل يتجاوز باب الكنيسة ويصل إلى باب المدرسة ويفتحه، فشككت في أمره.

لم يكن بالمدرسة سوى مقاعد من الخشب، ومكان تحجبه عن باحة الكنيسة حواجز من الخشب المخروط المصنوع على مثال الصناعة المصرية القديمة؛ وهذا المكان بعد عادة لجلوس النساء اللاتي يحضرن الصلاة، فلماذا دخل الراهب المجهول هذا المكان الخالي من كل ما يبعث على دخوله؟

دخلت الكنيسة وجلست بين المصلين أرتل معهم، ولكنني تعمدت أن أوجه نظري لذلك المكان المرتفع الذي وصل إليه الراهب المجهول ليطل منه على المصلين من وراء حجاب؛ فرأيت إلى جانب ذلك الحاجز كتلة من الظل مستندة إلى عامود وبقيت في هذا الوضع حتى قاربت الصلاة على الانتهاء.

وخشيت أن ينصرف الراهب قبيل انصراف الكنيسة فلا أتمكن من رؤيته ومعرفته؛ فبارحت الكنيسة قبل الجميع واختفيت قريبا من باب المدرسة أترصد لذلك المجهول حتى خرج ورد الباب، ثم انطلق في الطريق لناحية الوسية حيث يقيم الأسقف ونقيم نحن الرهبان المميزون الثلاثة.

وصل إلى باب الوسية فدخل منه مسرعا ولكنني تمكنت من رؤية وجهه فتولتني الدهشة لأنه وجه الأنبا باخوميوس أسقف الدير؛ الذي يتهم بأنه لا يصلي ولا يحضر الصلوات في الكنيسة!

(ب) التهمة الثانية: أنه لا يصوم ..

كان الأسقف الجليل مصابا بمرض في المعدة والأمعاء، وكان مرغما على تناول الغذاء مصنوعا من خضار مسلوق خال من أي دهن .. ولبث على هذا الحرمان طول مدة وجودي في الدير!

وهذا الغذاء القليل هو الذي تتحدث عنه الشائعات وتحوله إلى ترف وامتناع عن الصوم؛ والصوم يكون حرمانا من اللحوم واللبن والبيض والسمن .. والسمك في بعض الأحيان.

فماذا يكون الخضار المسلوق الخالي من الدهون إذا لم يكن طعاما للصوم؟ لقد عاش الأسقف طول زمن إقامتي في الدير صائما رغم إرادته ورغم أنف جميع المتقولين عليه.

(ت) (ج) قالوا أنه مترف ويشرب الخمر.

كانت ثياب الأسقف على الدوام من نوع ما نرتديه: الفراجية والقفطان ونعل رخيصة وعمامة الأسقفية؛ فماذا يريدون أن يلبس الأسقف غير هذا الثوب البسيط المخصص للرهبان؟

وقالوا: إنه يشرب الخمر! ..

كان الأسقف يحرم الخمر، ويمنع دخولها الدير؛ ويعاقب بشدة كل من يثبت أنه شربها. وأؤكد غير مبالغ أن الدير لم تدخله قطرة من الخمر طول مدة وجود الأسقف في الحياة .. وعاش الرجل البريء مريضا أعواما تعجز معدته عن هضم الطعام السهل وأمعاؤه عن احتمال الماء القراح؛ فكيف يحتمل تأثير الخمر فيها؟

يشهد الله أن الأنبا باخوميوس لم يصب في حلقه إلا الماء عند الضرورة القصوى..

(ث) (د) واتهموا الأسقف الطاهر الجليل أنه والد القمص سيداروس بالجسد! .. وهذه الفرية الكبرى لا أساس لها من الصحة، لأن سيداروس وجد من أبيه في منفلوط قبل وصول الأسقف إلى ذلك البلد، ولكنه كان يعطف على القمص سيداروس

عطفا بريئا، لأنه دخل الدير وهو طالب في السنة النهائية من الدراسة الثانوية، ولأن والده كان في خدمة الأسقف في منفلوط، ولأن الأسقف كان يرحب ويفرح، كل شاب له نصيب من المعرفة يترهب ..

وقد عطف من قبل مثل هذا العطف البريء على القمص يوحنا سلامة، وعلى القس بطرس "مطران سوهاج الآن" وعطف على بعدهم مثل عطفه عليهم، بدون أن تكون لذلك الحبر الجليل أية علاقة غريزية بأمهاتنا .. فمنشأ هذه الكذبة الخطيرة وضاعة نفوس الذين كذبوا وأرسلوا الكذبة في ضجة شائعة دنيئة جريئة بتأثير الحقد على الرجل البريء الطاهر، وبدافع من الحنق عليه بسبب نظامه القاسي الذي حرم الرهبان من الفوضى الخلقية والجموح؛ وبسبب إبعاد بعضهم من مباشرة الأعمال الزراعية التي كانت فرصة للاستغلال والانتفاع غير المشروع.

لقد تولى الأسقف إدارة الدير وهو فقير ومدين، ومات وقد ترك للدير ثروة عقارية كبيرة تقدر بنحو ٣٠٠٠ فدان، وقد بنى القصر الضخم الفخم، وحول الصوامع القذرة إلى مبان قوية نظيفة، وهدم جزءا كبيرا من السور العظيم الذي يحيط بالدير، وتمم بناءه على الصورة الموجودة الآن، فحوله إلى شبه قلعة وسط الصحراء وفي سفح الجبل.

لقد كان الأسقف الجليل رجل إصلاح بالمعنى الكامل، وكان حبرا دينيا له طهارته ونزاهته، بل كان راهبا يخضع لنظم الرهبنة وينفذها بدون تفريط في نفسه وفي الجميع.

ويقيني الذي لا أتحول عنه أن ذلك الرجل كان عظيما حقا بجميع صفاته وتصرفاته في الإدارة والإصلاح، ومن النادر أن يوجد بين الأحبار والرهبان من نوعه تكون له عظمته وحسن إدارته وصفاته، فللحبر الجليل كل الرحمة من الإله الخالق المطلع على الأعمال والنوايا وخفايا السرائر .

منغصات

غاب الأسقف عن الدير واستقر في القاهرة أياما طويلة بدار البطريركية بسبب مرضه وحاجته للعلاج، وبدأ القمص سيداروس تصرفات متنوعة لتنغيص حياتي فاستخففت به وبوسائله الريفية المكشوفة، لأنني على يقين من مركزي في الدير أنه قوي لا تؤثر فيه الصبيانيات.

وكنت أتصل بالجهة السياسية التي نصحت لي باللجوء إلى الدير بالمراسلة، أرسل كتبي بعنوان رجل مسيحي كاتب إسماعيل الشيمي المحامي، وكانت الإجابات ترسل إلي وعليها توقيع عمتي المسيحية، ولكن مكتب البريد موجود في القوسية وهي على بعد ١٠ كيلو متر تقريبا من الدير، فيقصد إليه الساعي موفدا من القمص سيداروس ليستلم المراسلات، فتوضع في كيس له مفتاحان أحدهما في الدير والثاني في مكتب البريد، فيتسلم سيداروس جميع الرسائل ويوزعها على الرهبان.

ولو خطر لهذا الخصم الحانق إخفاء رسالة من رسائلي وفضها يكون في مقدوره الاطلاع على أسرار غاية في الخطورة، لأنها في الأيام الأخيرة كانت تلح علي بترك الدير والعودة إلى القاهرة لتنفيذ أغراض سياسية لتلك الجهة ..

اختمرت في رأسي فكرة اختياري مطرانا للحبشة، وكان من الميسور تحقيق هذه الأمنية إذا خلا ذلك الكرسي من صاحبه الشيخ الطاعن في السن وكانت جميع ظروفي تؤهلني لهذا المنصب الديني الكبير، ولي سند قوي من نفوذ الأنبا باخوميوس أسقف الدير المحرق ورغبته في الارتقاء بي إلى أسمى منصب يخلو كرسيه من صاحبه.

وقد شق علي ترك الدير والعودة إلى خضم الحياة المضطربة بعد الهدوء الذي ألفته في عزلتي وراء أسوار الدير، وبعد المجهود التي بذلتها أثناء إقامتي هناك لحمل الجميع على اعتقاد بأنني راهب زاهد في الدنيا على جانب عظيم من التقوى والصلاح، أتعبد حبا في العبادة لاكتساب رضا الإله لا رغبة في الإعلان عن النفس ولا طمعا في المراتب الكهنوتية.

وقد عارضت الجهة التي تطلب مني قطع صلتي بهذه الحياة الهادئة والعودة إلى العالم المضطرب الحافل بشتى الأخطار والمنغصات، وصارحت تلك الجهة بأنني هانئ في عزلتي وقد أفدت منها الاطمئنان والسكون وتحررت من أنواع الضعف الخلقي والغريزي التي كانت تدفعني لشرب الخمر وإلى شتى مزالق الانحدار.

وحدث في أحد تلك الأيام أنني أرسلت خادمي الخاص ليشتري حاجات مطبخي من القرية القريبة فلما عاد من السوق منعه بواب الدير من الدخول بأمر القمص سيداروس، فحرمني من طعام ذلك النهار.

وأرسلت تاوضروس أفندي ميخائيل وكيل الدير الزراعي لسيداروس يسأله عن سبب هذا التصرف، فكان جوابه أنني راهب وليس من حقي أن يكون لي خادم خاص، واعترضت على الإجابة بأنني أدفع نفقات الخادم من جيبي لا من خزانة الدير، فلم يقتنع وأصر على تنفيذ أمره.

وطلبت إليه أن يرجئ هذا التصرف حتى يعود الأسقف إلى الدير ويعرض عليه الأمر فأبى، فصرت أمام حالين، فأما أن أخضع لديكتاتورية راهب ليس له سلطة رسمية يستغل غياب الأسقف لينغص حياتي، وإما أن أثور على سيداروس وأقابل تحديه بمثله وأحدث ثورة في الدير بالاستعانة عليه بخصومه من الرهبان وهو مكروه من الجميع.

كان إلى جانبي في غرفتي في ذلك الوقت القس بطرس (مطران سوهاج الآن) فجعل يلطف من غضبي ويضرب الأمثال بتصرفات سيداروس مع غيري وصبر الجميع على استبداده وغروره وغطرسته، ولكن هذه النصائح لم تكف لإسكات غضبي لأنني كنت في فورة الشباب عصبي المزاج ثائرا على كل تصرف ظالم، فعقدت العزم على ترك الدير في الحال.

أغلقت غرفتي الخاصة وودعت صديقي القس بطرس وقصدت إلى الباب الخارجي للدير، وصادفت في طريقي صبيا من الخدم يدعى مرقص راكبا فرسا، فركبت الفرس وبارحت الدير متجها على الجسر لناحية القوصية.

ولم يعلم أحد من أهل المكان بالمشادة التي حدثت بيني وبين سيداروس، ولو علموا لمنعوني من الخروج مداجاة للمتغطرس، ولكن الخبر وصل إليه بعد انصرافي بوقت قصير، فأرسل في أثري خفيرا يدعى بسل مشهورا بالقوة والفتوة ومعه جماعة من أنصاره يحملون النبابيت.

لحق بي المطاردون وبسل على ظهر فرس سريعة فاعترضت طريقهم على سطح قنطرة فوق الجسر الذي يفصل بين المزارع المنخفضة، سألت الجماعة عما يطلبون.

وتولى الإجابة عنهم الخفير الخطير بسل، قال: إنه بأمر القس سيداروس رئيس الدير يأمرني بالعودة معهم بدون مقاومة، وكان اعتراضي: إن القس المذكور ليس رئيسا للدير، وأنه راهب ككل الرهبان ليس من حقه الأمر وليست علينا الطاعة.

فقال: إذن سنأخذك إليه بالقوة ..

وهم بالهجوم علي وهو يشرع نبوته الطويل، ولكنه فوجئ بمسدسي يصوب لناحيته، وسمع صوتي يحذره من الاقتراب مني أو أطلق عليه النار، فكبح جماح فرسه وارتبك ..

عقدت العزم على إطلاق النار على كل من يحاول الاقتراب مني لأن من عادة أولئك الريفيين الاعتداء بعصيهم الغليظة في كل معركة، ولم يكن في مقدوري احتمال ضربة واحدة من أي نبوت، فإطلاقي النار لحماية النفس تصرف مشروع ..

فقال بسل الشجاع: أنت إذن وشأنك، وإنما يجب أن ترد لنا النفوس لأنها ملك الدير.

قلت: سأركب الفرس حتى أصل إلى نقطة البوليس بالقوصية ثم أتركها هناك فترد إلى الدير، أو ترافقني على فرسك إلى نقطة البوليس فأسلمك الفرس هناك.

ومر بنا في تلك اللحظة الشيخ حنا منصور عمدة السراقنة، فوقف دابته وحاول إقناعي بالعودة إلى الدير فرفضت. فأشار على الخفير بمرافقتي إلى المحطة بنزالي جنوب

واستلام الفرس هناك. وخضع الخفير لهذه المشورة مرغما وصرف جماعته، ولكنني رفضت أن يسير خلفي وأمرته بالسير أمامي لأنفي غدره وأذى نبوئه.

وصلنا إلى القوصية فوجدت ضابط البوليس محمود أفندي الشناوي جالسا مع بعض أصدقائه أمام باب نقطة البوليس، فسلمت الفرس للخفير فعاد بها إلى الدير، وقصصت الأمر على الضابط فأضافني في بيته تلك الليلة، وسافرت نهارا إلى القاهرة.

قصدت إلى دار البطريركية حيث يقيم الأسقف، وكنت أريد أن يعلم السبب الذي حداني إلى ترك الدير محاذرة من تشويه الحقيقة عندما يروى له الحادث، ولكنه عمد إلى منع اتصالي به منفردا، كان يخلو بنفسه في القسم الخاص به ويكتفي باستدعائي وقت تناول الطعام فأجد على مائده غيره من رجال الكنيسة، وكان ينصرف عنا قبل انتهائنا من تناول الطعام، فلا أتمكن من محادثته.

كان غرضه من هذا التصرف انتظار كتاب من سيداروس يشرح فيه سبب نجوعي عن الدير، فحملني هذا التصرف بمكاشفته على المائدة برغبتي في ترك الدير والرهبنة، فقال:

– يحسن أن تنتظر حتى يتم علاجي فنعود معا إلى الدير لأفحص هذه الحادثة بنفسي..

قلت: إنني في ضيق من بقائي كل الوقت محبوسا في غرفة ضيقة في هذه الدار.

قال: في مقدورك الذهاب إلى دير الأنبا أنطونيوس بناحية بوش والبقاء معه، وسأدعوك بكتاب لمرافقتي في السفر يوم عودتي إلى الدير.

وكنت أخشى أن يراني أحد معارفي في دار البطريركية فيفتضح أمري، فارتحت لفكرة الاختفاء في دير بوش بعيدا عن الأنظار، وتعجلت في القصد إلى ذلك الدير، فرحب بي الأنبا مرقص الأسقف وأضافني في القسم الخاص به.

لم تكن للرجل أخلاق الأنبا باخوميوس ولا حزمه إنما كان رجلا طيب القلب إلى

أقصى حدود الطيبة، فترك الرهبان يعيشون في الدير كما يعيش كل قروي في ضيعة من ضياع كبار الملاك في مسكن خاص به جميع حاجات المعيشة الريفية.

وجاء موعد الصلاة في الكنيسة في فجر يوم الأحد، والكنيسة خارج الدير إلى جانبه، وكانت للجميع للرهبان وللأهالي من أبناء الطائفة، فأمرت بأن أتولى الوعظ في ذلك النهار ففعلت، وأدرك السامعون أنني أعظ بأسلوب يغاير ما ألفوه من حافظي الآيات، وأضمن كلمتي شيئا من الأخلاق والفضيلة وأهدف إلى غايته فهرعوا إلى الأسقف يرجون منه استبقائي في الدير.

واندفع الأسقف لتحقيق رغبة الجماهير، فكتب رسالة إلى الأنبا باخوميوس أسقف الدير المحرق ينبئه بعزمه ترقيتي لدرجة قمص، ورجا منه أن يشرف بوش بزيارته ليحضر حفلة رسامتي.

وثار غضب أسقف الدير المحرق لأنه حريص على استبقائي في ديره، فشكا إلى البطريرك من اعتداء الأنبا مرقص عليه ومحاولة اغتصاب الراهب فيلوثاؤس منه، وصاحب الغبطة البطريرك يحترم الأنبا باخوميوس كل الاحترام فأرسل رسالة برقية إلى أسقف بوش يأمره بإرسال الراهب في أول قطار إلى دار البطريركية لمقابلته ..

واستاء الرجل من تصرف زميله أسقف الدير المحرق، ولكن أمر البطريرك يجب أن يطاع فأمروني بالعودة إلى مصر لتتم هذه المقابلة ففعلت مكرها وقابلت البطريق.

رأيته رجلا طاعنا في السن هدمت الشيخوخة بدنه، توجز صفاته في كلمات قليلة: كان رجلا طيب القلب، حسن النية، صالحا، ونسب إليه المعجبون به أنه كان من أصحاب الكرامات ..

أرسل الرجل الصالح بعض الكهنة إلى أثينا لدراسة اللاهوت، وعينهم في مناصب كبيرة بعد عودتهم، ولكن الغرور حدا بأحدهم إلى نشر أفكار وآراء دينية تخالف عقيدة الأرثوذوكس أو ظنها البعض هرطقة، فغضب عليه البطريرك وجرده من رتبه الدينية الكبيرة وفصله من الكنيسة.

وتركت هذه الحادثة أثرها في نفس الأنبا كيرلس فصار حانقا على كل راهب له نصيب من المعرفة والثقافة، لأنه اعتقد أن التعليم يفسد العقيدة ويحول الإنسان المتعلم عن مبادئ الدين المسلم بها، وعن العقيدة التي يتحتم الإيمان بها، بدون بحث ولا فهم ولا إقناع.

وضعني البطريرك في صف الذين يحنق عليهم لأنه سمع أن لي نصيبا من المعرفة والثقافة والقدرة على الوعظ بصورة حملت الجميع على الإعجاب، فقابلني مقابلة خشنة، وفاجأني بهذه العبارة، وقال:

– أنت يا مسيو تعرف فرنساوي وإنجليزي وغلباوي! .. لا يدخل الراهب ملكوت الله بالغلبة إنما بالإيمان والصلاح .. ومن المستحيل أن تنال منصبا دينيا كبيرا وأنا على رأس الكنيسة الأرثوذكسية .. امش يا مسيو .. أخرج من قدامي.

فخرجت من غرفة الرجل، ومن دار البطريركية، وعقدت العزم على التجرد من ثوب الرهبنة في الحال لأن الضجة التي حدثت بسبب مشادة الأسقفين لفتت إلي الأنظار ومركزي الحرج يستدعي الاختفاء والتستر وعدم الظهور.

ظننت أن خلع ثياب الرهبنة واستبدالها بملابس عادية أمر سهل ميسور، فلما صرت في الطريق تولتني الحيرة لأن ثوب الرهبنة يحرمني من الجلوس في القهاوي، ويمنعني من النوم في الفنادق؛ ويلفت إلي النظر إذا تناولت الطعام في مطعم محترم.

وليس في المقدور دخولي محل تجاري لشراء ملابس أفرنجية وخلع ثوب الرهبنة في ذلك المكان؛ لأن العملية تبعث على الشك في صاحب هذا الثوب .. لم تبعثني مطاردات البوليس على الحيرة والارتباك في أي حين ولكن حيرني ذلك الثوب الأسود المفروض له الاحترام وعليه القيود والتقاليد التي تستبقي له هذا الاحترام بين الناس.

وأخيرا ركبت القطار إلى المنيا، فصادفني في عربتي محام شاب من الأقباط اسمه عازر جبران .. وعرفت منه أنه يقيم في مغاغة .. (هو الأستاذ عازر جبران عضو مجلس الشيوخ الآن).

تبادلنا الحديث فأظهر تعجبه من وجود راهب مثقف في الأديرة القبطية، وعجبت

من هذا التعجب، وقلت:

من المستحيل استغناء الطائفة القبطية عن رجال الدين ورؤساء الكنائس، فلماذا لا تنشط الهمة لتعليم هذه الفئة وترقية مداركها والثقافة لتصير يوما ما في مستوى ثقافة الشعب؟

وكان جوابه: هذه أمنية الجميع ولكن الأديرة القبطية مستقلة يتولى إدارتها مطارنة أو أساقفة لا يرون هذا الرأي بسبب نقص المعرفة وعدم إدراك وجوب الارتقاء بالتعليم، فهم العقبة الحقيقية في ترقية رجال الدين بينما الشعب ناهض من نشاط إلى تحصيل العلوم والمعرفة للارتقاء، فنشأ من هذا الخطأ الفارق العظيم بين الإكليروس والشعب.

ولم يخف ارتياحه لاتجاه أمثالي المثقفين إلى الرهبنة، وزال هذا الارتياح عندما صارحته برغبتي في ترك الرهبنة بسبب التصرفات الخلقية التي تغضب حياتي في الدير، وأكدت له أنني قاصد إلى المنيا لخلع ثوب الرهبنة ورده إلى الدير ..

فنزلنا في فندق واحد، وجاء لزيارته هناك سكرتير نيابة المنيا وهو قبطي فاستعنت به على شراء ملابس أفرنجية، وعلى استدعاء شيال من المحطة سلمناه ثوب الرهبنة والعمامة وأرسلناه إلى الدير ليسلم الملابس إلى القمص سيداروس.

وأرسلت رسالة إلى جريدة الوطن شرحت فيها الأسباب الكاذبة التي دفعتني لدخول الدير والأسباب الصحيحة التي أرغمتني على ترك الدير والرهبنة، وذكرت بها أسفي لحرماني من رعاية الأسقف وعطفه ومن الرهبنة التي ظننتها سبيلا لاطمئنان النفس وارتياحها في عزلة عن العالم وعما فيه من المنغصات.

واستغل جندي إبراهيم هذه الرسالة فأعلن عنها قبل نشرها لينال شيئا من مال الأسقف، وظن هذا الرجل الطيب أنني بتأثير تألمي من سيداروس ومن تصرفاته كتبت ما يسوئ سمعة الدير، فساوم صاحب جريدة الوطن للاطلاع على الرسالة قبل نشرها .. وأسف على ما دفعه لأنني كتبت ما ترتاح له كل نفس حتى نفس سيداروس .

الخواجة غالي جرجس

تركت رسائل الشيخ عبدالعزيز جاويش أثرها السيء في رجال الطائفة القبطية فانفصلوا عن الحزب الوطني ..واستاء رئيس الحزب من هذه النتيجة لأن ذلك الزعيم الوطني النزيه كان أول مصري فكر في لم شمل الأقباط والمسلمين في اتحاد لحمته الجنسية المصرية والروح الوطنية، ولم يكن من الحكمة في ذلك الحين معارضة الشيخ عبدالعزيز جاويش لعدة أسباب منها:

أنه كان المحرر الأول في جريدة اللواء.

وأنه أشد الناس سخطا على وزارة المعارف بسبب فصله من عمله فيها.

وأنه بسبب حملاته الشديدة على الحكومة تمكن من اكتساب ثقة الرجال وإعجاب الشباب فصار معبود الجماهير والوطني الأول في اعتبار الجميع.

فالمعارضة التي تسبب غضب الشيخ تؤدي إلى خروجه من الحزب الوطني ونفور أنصاره فتكون النتيجة انقسام الحزب وضعفه بدلا من تقويته بجمع الشطر الأعظم من الأمة إلى صفوفه.

أراد الزعيم الرشيد تفادي هذه النتيجة، وتلطيف ثورة الشيخ جاويش بالملاينة واكتساب مودة الأقباط وثقتهم بالحزب الوطني والرضا عن أهدافه، فعمد إلى الحيلة.

طغى علي اسم راهب الدير المحرق، فحماني من السؤال عن عائلتي وبلدي، وكانت الصحف القبطية تهاجم في عنف الأديرة القبطية بسبب خروجي من الدير فصار اسم الراهب حديث الجميع.واستغل مُحَمَّد بك فريد هذه الضجة فدفع لي مالا لأنفق منه لتحضير حفلة عشاء أدعو إليها جماعة من عظماء الطائفة القبطية ورئيس الحزب الوطني والشيخ عبدالعزيز جاويش، فتمت الحفلة في فندق ناسيونال بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٩٠٨، وكان من بين المدعوين المرحومين الأستاذين حنا وويصا واصف.

خطبت أرحب بالزعيم الكبير وبالشيخ جاويش الكاتب القدير، ولفت نظر الجميع إلى التضحية في سبيل الوطن، تضحية الأنانية والمنافع الشخصية مع تبادل الاحترام الواجب للجميع على الجميع، فالواجب يقتضي التآلف والمؤازرة وهما لا يتوفران إلا في الجو الهادئ وفي إخلاص النفوس الطيبة المطهرة من كل بواعث الاستياء والتذمر.

ووضعت أمام الشيخ جاويش قدرا كبيرا من المال، وصارحت بأنه إعانة مني كقبطي للمعاونة في مشروعي عين زمزم وتقوية الجيش العثماني، وكان يتولى جمع الإعانات للمشروعين ..

كان الشيخ جاويش سريع الغضب ولكنه طيب القلب، فأثرت فيه هذه المجاملة وانطلق يخطب بدافع الانفعال النفسي، فذكر الأسباب التي أرغمته على كتابة رسالته "الإسلام غريب في بلاده" دفاعا عن الدين الإسلامي الذي عدا على كرامته كاتب صحفي من الأقباط، ثم قال: إن سكوت الغضب وهدوء الأعصاب جعله يعتبر ذلك الاعتداء قد وقع من فرد واحد كاتب نكرة لم يشاركه في حماقته غيره من أبناء الطائفة الشقيقة، فهو إذن يعتذر للأبرياء من ذلك الجرم ويصافح الراهب فيلوثاؤس أو الخواجة غالي جرجس دلالة على التسامح والرغبة في تقوية المودة بين شطري الأمة.

ونشر الشيخ المحترم في جريدة اللواء بتاريخ ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٠٨ تحت عنوان "الرجال بالأعمال" كلمة عن الخواجة غالي جرجس وعن روح التسامح التي دفعته كقبطي للاشتراك في معاونة مشروعي عين زبيدة والجيش العثماني.

نجح مُحَمَّد فريد في خطته وبدأت علاقات ودية جديدة بين بعض إخواننا الأقباط والمثقفين والحزب الوطني، وهدأت الأفكار الثائرة والأقلام الجامحة على صفحات الجرائد.

لقد مات مُحَمَّد فريد العظيم مشردا بعيدا عن وطنه، ولست أعرف أحدا من أهله، ومن حق ذلك الوطني الصادق الوطنية أن أعلن عن رأيي فيه بأعلى صوت:

عشت بعد الإدراك التام والتمييز نصف قرن تمر بي الأحداث ويزن ميزاني المستقل تصرفات الذين ظهروا في عالم السياسة طول ذلك الزمن، ولكنني لم أجد بينهم من تصح مقارنته بمحمد فريد، لا في الأخلاق، ولا في الرجولة، ولا في النبل ولا في الوطنية البريئة، فالمقارنة بينه وبين أي إنسان آخر فيها غبن على ذلك الوطني العظيم، من الله عليه برحمته ..

كان جندي إبراهيم صاحب جريدة الوطن صحفيا يكاد يكون أميا، ولكنه كان جريئا ومغامرا، فشق عليه أن يتبرع الخواجة غالي جرجس ببعض المال لمشروعي عين زبيدة والجيش العثماني، وتوهم أنني سفينة يمكن استدرار المال منه بسهولة كما يستدره من رؤساء الأديار، فعقد العزم على الاتصال بي بدافع من الغباء والطمع.

كان يعرف أن خليل حداد صديقي ويتصل بي فحاول الوصول إلى عن طريقه، وخليل على يقين من استحالة الأمر لأن جندي إبراهيم يعرفني معرفة شخصية دامت طويلا، فصارح الرجل بتعذر هذه المقابلة لأنني كراهب ترك الدير أرفض بتاتا الاتصال برجال الصحافة محاذرة من نشرهم ما لا أريد نشره حرصا على كرامة رجال الدين من اعتداء الأقلام السفيهة.

ولكن الطمع لم يقنع بهذا العذر فعمد إلى مضايقتي في فندق ناسيونال، كان يحضر مرات في اليوم الواحد يطلب مني هذه المقابلة، ويلح على الخدم ليعرف منهم مواعيد خروجي أو حضوري ليتمكن من مقابلتي مفاجأة، فذهبت مساعيه هباء بسبب حرصي منه.

عدت إلى الحياة الصاخبة متحررا من ثوب الرهينة ومن حبس الحرية، فامتد بصري إلى ما في الحياة من المشاهد البديعة وأنواع الحسن المعروض للأنظار، فصادقت فتاة يونانية كانت شريكة دجال فرنسي يدعى أنه منوم مغناطيسي.

كانت حسناء رشيقة لها جاذبية فارتحت لمجالستها، وسافرت مع الدجال إلى الصعيد فرحلت معها حتى وصلنا إلى أسيوط، فكنا لا نفترق إلا في الوقت المخصص

لعملها، وكنت أطلب إلى المنوم تنويمها في غرفتي لأسألها عن أسرار خاصة بي، ثم أغتنم فرصة نومها الكاذب لأسألها عن أسرار فؤادها ونوع عاطفتها فتجيب إجابات تدعى أنها صادقة صريحة وأجزم في سري أنها كاذبة للاحتيال والسلب، ولكنني كنت راضيا عن دفع ثمن المسرات التي أشعر بها في مؤانستها.

وحدث في سهرة أننا كنا نحن الثلاثة في مقهى على مقربة من المحطة نشرب خمرا وألعب البلياردو مع زوجها، وكان بين الحاضرين الدكتور علي إبراهيم حكيمباشي مستشفى أسيوط (علي باشا إبراهيم) وبعض وكلاء النيابة والمحامين يشاهدون اللعب، فدخل الخواجة متري بشارة أحد الأعيان وكان في انتشاء تجاوز حد احتمال العقل فاندفع بيننا يعبث بكرات البلياردو وقتا غير قصير يتعمد منعنا من الاستمرار في اللعب.

ونبهته إلى تصرفه أنه تجاوز حدود الأدب والدعابة التي تحتمل من سكران، فحدثت بيننا مشادة كلامية انتهى تأثيرها إلى الأعصاب فظهرت المسدسات لتتكلم بدلا من الألسن.

ونهض بعض الجالسين إلى الخواجة متري يلطفون من ثورته، ونشط إلى بعضهم يعتذر عنه بأنه سكران، وحدث في هذه اللحظة أن متري بشارة أنفلت من الذين حوله وحملق في وجهي وقال:

– أنا أعرف الوش ده .. أنا عارفك تمام .. عارف الوش ده من غير دقن ..

وهذا صحيح فالخواجة متري بشارة كان زميلي في مدرسة أسيوط الأميرية سنة ١٨٩٢، وكنا متلازمين في أوقات الفراغ نلعب معا لعبة أسيوطيه بالكرة والمضرب تسمى "اللقم" وقد عرفته من اللحظة الأولى فليس من المستغرب أن يعرفني، ولكن السكر واللحية ضللاه عني وقتا قصيرا ثم تنبهت ذاكرته واستخرجت الصورة من تلافيف الماضي البعيد ثم أعجزه فقدان الوعي الكامل عن إضافة اسمي إلى الوجه الذي اهتدى إليه وعرفه ..

وخشيت أن يتذكر السكران بقية المجهول من شخصي، وعقدت العزم على الانصراف بسرعة لأتحاشى الخطر الذي يهددني بالفضيحة، فأخذت زميلاي وانصرفت لا من المقهى وحده إنما من أسيوط كلها لأنني حاذرت من تنبه ذاكرة متري بشارة في الصباح فيتذكر اسم صاحب الوجه الذي قرر في حالة السكر أنه يعرفه ..

كان علي باشا إبراهيم زميلا لي في المدرسة الخديوية، وكان في تلك الليلة في المقهى فشاهد الحادث بدون الاشتراك في الضجة التي حدثت، ولكنني عرفت منه في سنة ١٩٣٠ أنه عرفني في تلك الليلة ..

يقولون أن الجاني يحوم بدافع نفسي حول المكان الذي ارتكب فيه الجريمة، ويلوح لي أن هذا الرأي قريب من الحقيقة، لأن رغبة قوية كانت تدفعني لزيارة النواحي التي فيها الدير، فسافرت إلى نزالي جنوب وزرت المرحوم الخواجة حنا شحاتة في قريته التمساحية، وبت ليلة هناك، والتمساحية تجاور الدير.

وزرت محمود أفندي الشناوي ضابط البوليس القوصية ووكيل مكتب البريد، وأهديت الجميع هدايا منوعة تناسب حال كل واحد منهم ومزاجه فكان نصيب الضابط مهمازا وعصا، ووكيل البريد الكتاب المقدس مجلدا تجليدا فخما، والخواجة حنا شحاتة صندوق كونياك، وتاوضروس أفندي ميخائيل خاتما مرصعا بالبرلنت والزمرد.

كنت محتفظا على الدوام بالغرفة ٢٣ بفندق ناسيونال في القاهرة من سبتمبر ١٩٠٨ إلى ١٨ يناير ١٩٠٩، وهي المخصصة للمكتب ولاستقبال الزائرين، وكانت الغرفة ٢٢ للمائدة، و٢٤ للنوم، وكنت معرضا في كل لحظة لخطر اهتداء البوليس إلي مصادقة أو بخطأ من أخطائي، فصار من واجبي تحصين هذا القسم الخاص بي تحصينا يمكنني عند الضرورة من دفع الحظر الفجائي.

وكان من عاداتي الخروج من الفندق عند منتصف الليل مع الهر هرجل صاحب الفندق للتمتع بما فيه من مسرات ومتع، وهرجل كان ضابطا أمنيا من قبل، له جسم رياضي قوي وقوة ونشاط وجرأة نادرة المثال، وله ذكاء خطر علي قليل من الحذر ودقة الملاحظة.

درست الرجل ووزنت جميع نواحيه فعرفته وحرصت منه كل الحرص، وأدركت أن عملية تحصين حجرتي يكشفها ذكاؤه إذا بدأت بها أثناء وجوده في الفندق فعقدت العزم على إبعاده عن القاهرة أياما أتمم فيها عملي سرا.

عرفت أن الرجل من عشاق المحاسن فإذا وجدت الحسن الذي يلفت نظره وينبه رغبته أجعله وسيلة لإقصائه معه إلى أقصى الأرض، فجعلت أبحث في كل مكان عن هذا الحسن حتى اهتديت إليه ..

كانت الفتاة فرنسية إسرائيلية سائحة كل ثروتها حسنها، والحسن عملة صعبة ينفق منها صاحبها في كل مكان بدون محاذرة وبدون الخوف من نقص الرصيد.

عرفتها وغمرتها بكل أنواع الإجلال وبتقديم الذبائح والقرابين بوسائل جعلتها تنسب إلى العبط أو السفه وتزيد فيها قوة الطمع.

والرغبة في الاستغلال تبعث الطامع على الملاينة والمطاوعة، كانت تطمع في رحلة إلى أسوان على النيل، واعتذرت بكثرة أعمالي في القاهرة وعرضت عليها تحقيق هذه الرغبة على نفقتي بشرط أن أضع إلى جانبها صديقا لي ليتولى خدمتها أثناء الرحلة بسبب عجزي عن تأدية هذا الواجب، فقبلت الاقتراح راضية مبتهجة.

وعرضت الأمر على هرجل مع صورة الحسناء، صارحته بأننا أخوان في السراء والضراء وقد نلت نصيبي منهما، ولكن صاحبتي تطمع في رحلة إلى أسوان في النيل وسأدفع نفقات الرحلة إذا قبل مرافقتها لينال نصيبه مما نلت.

وفحص هرجل محاسن "روجين" ووزن قوة تأثير الجاذبية في نفسه ثم قبل الاقتراح شاكرا، فهيأت لهما جميع وسائل السفر، وودعتهما على ظهر الباخرة وعدت إلى الفندق في ارتياح وهدوء لأتم عملي في غيبة ذلك الصديق الخطر.

أخطأت مرات وروجين معي في القاهرة، ذهبت معها مرة إلى الأهرام وركبنا جملين لأنها رغبت في تجربة ركوب الإبل في الصحراء، وضايقنا العراب ضيقا شديدا فنشط عسكري بوليس لدفع هؤلاء الفضوليين عنا فبذل جهودا ولاقى عناء.

ورغبت الحسناء في أخذ صورة شمسية لها وهي إلى جانب أبو الهول فصورتها هناك، وتركت عنواني بفندق ناسيونال لترسل إلي الصور، ورافقنا العسكري حتى ركبنا السيارة فتذكرت ما لاقاه بسببنا من التعب والعناء وأردت مكافأته فأعطيته جنيهين من الذهب "عملة ذلك الزمان" وكان هذا التصرف خطأ له نتائجه ..

حضر إلي مدير الفندق بعد يومين ونبأني بأن ضابطا إيطاليا من محافظة مصر حضر وطلب الإذن له بمقابلتي، فلم أتردد في استقباله في الغرفة ٢٣ لأن من الحماقة التهرب من هذه المقابلة.

كنت مرتبكا أخشى نتائج هذه الزيارة وأحاول تعليل سببها فلم أهتد إليه، ولكنني أعددت وسائل الدفاع عن نفسي إذا احتاج إليها الأمر، ودخل الرجل في تأدب، وذكر لي أن العسكري الذي كان في الأهرام يوم زيارتنا بلغ ضابط نقطة بوليس الهرم أنني منحته اثنين جنيه، وبلغ الضابط مأمور القسم وهذا بلغ سعادة الحكمدار ليستأذن منه في قبول هذه المنحة!

وسألني اليوزباشي "رنده" عن سبب منح العسكري هذا القدر من النقود، فذكرت له ما لاحظته من الجهود التي بذلها الرجل في حمايتنا من وقاحة الأعراب وحمايتنا من مضايقتهم، والشوط الطويل الذي قطعه إلى جانبا ونحن على ظهور الجمال، فكان من الواجب علي الشكر ومكافأة العسكري على حسن صنيعه معنا.

وشكرني الضابط على اعترافي بما بذله العسكري من الجهد في تأدية الواجب، وصرح بأنه لم يكن في مقدوره قبول المكافأة بدون إذن من رئيسه، وانه اقنع الآن بأن السبب الذي ذكرته يبرر الإذن للعسكري بقبول المكافأة.

كان تصرفي خطأ أدى إلى تحرك البوليس للسؤال عن شخصي من إدارة الفندق، وسبب طلب مقابلتي وسؤالي، وكان من الجائز كشف تنكري والاهتداء إلي لولا غباء ذلك الإيطالي .. لقد أسفت على هذا الخطأ ولكنني لم أمنع نفسي من الوقوع في غيره بسبب استهتاري أو بسبب الرعونة.

كان معي في الفندق سائح أجنبي هادئ طيب القلب وديع في بساطة، وكنا نجتمع قبيل تناول طعام العشاء في قاعة البلياردو فنجلس للمسامرة والمطالعة.وعلمت من حديثه أنه يشكو من رئتيه وأن الشتاء في مصر يفيد صحته.

عرفت أن اسمه ماير وأنه من السويد، ورأيته مرات إلى جانب الموقد يطالع أكثر من مرة كتبا وصلت إليه من زوجه التي تقيم في واشنطن، وكان يقبل صورة ابنته الصغيرة وولده ويلصقهما على صدره فتبدو عليه دلائل الراحة، فأدركت أنه زوج وفي، ووالد له حنان.

وسعل في ليلة سعالا حادا وبصق دما ووهنت قواه، فطلبت من الفندق استدعاء طبيب، وحضر الرجل وأسعف المريض ونصح بنقله في الحال إلى المستشفى فتوليت هذه العملية لأنها واجب إنساني مع أجنبي غريب عن البلاد.وزرته في النهار الثاني لأطمئن على صحته، فصارحني بأن العلة ستقضي عليه حتما وأن من الوجب عليه كتابة وصيته وهو في وعيه لحماية زوجه وأولاده من خصومهم بعد وفاته.

وعلمت منه أن يحمل لقب بارون وأن له ثروة كبيرة ومراكب صيد ويختا ورصيدا كبيرا في المصارف، ولكنه تعس وشقي في الحياة لأنه بتأثير الحب الطاغي تزوج مغنية فرنسية عرف السعادة والهناء إلى جانبها، وأنجبت له ولدين، وقد تم ذلك الزواج في باريز حيث أقام مع زوجه.

وطرأت عليه ظروف خطيرة تستدعي اقترانه بفتاة من العائلة المالكة في السويد، وتم هذا القران هناك زواجا دينيا لأن أحدا لا يعلم بالزواج الأول، فكان الأول بدافع الحب والثاني بدافع المصلحة.

وفضحت الظروف سر الزواج الأول ووجدت الأدلة التي تثبت صحته، فصار الزواج الثاني الشرعي باطلا في اعتبار الكنيسة فألغوه، وثارت ثورة العائلة المالكة على البارون فوجهت إليه الحكومة تهمة الزواج باثنتين، وتأجلت المحاكمة بسبب مرضه.

وطلبت الزوجة الثانية التعويض لها بسبب الخدعة التي صارت فريسة لها، وبسبب

التضحية التي ضحتها كزوجة شرعية، ثم ظهر بطلان ذلك العقد الشرعي، فخسرت كثيرا جدا .. وسيحكم لها بالتعويض مع المبالغة في أرقامه نكاية فيه.

فلهذه الأسباب يرى من الواجب عليه كتابة وصيته في الحال لينقذ ثروته من الضياع وليوفرها لزوجته الوفية ولولديه.

عرفت الرجل مؤدبا وديعا له كياسة الأمراء وظرف الأدباء، ورأيت بعيني مقدار ولعه بكتب زوجته وبصور ولديه، فأكتسب احترامي له كزوج وفي وكوالد له حنان، وزاد عطفي عليه بسبب مرضه الخطير وابتعاده عن مقر أسرته المحبوبة حيث يحاط بالحنان والرعاية.

وتحت تأثير هذه الظروف عقدت العزم على معاونته لكتابة الوصية في الحال بوسيلة مشروعة تمنع كل اعتراض عليها في المستقبل، وقابلت في عجلة المحامي المشهور الأستاذ فاتيكا وذكرت له الظروف التي تستدعي الإسراع محاذرة من أن يفقد المريض وعيه أو قدرته على الكتابة.

وأدى الأستاذ المحامي واجبه كرجل قانون فجمع في الحال الشخصيات الرسمية لنكتب الوصية أمامهم، وانتدبت هذه الجماعة اثنين من كبار الأطباء للكشف على البارون المريض فشهدا كتابة بأنه يملك بدنه وعقله سليمين، وشهد الجميع بأنه في نفس هذه الظروف كتب الوصية بخطه وبإراداته المطلقة بدافع من رغبته وبدون وجود أي مؤثر أجنبي في نفسه.

كتبت الوصية بخط المريض من صورتين وقع عليهما الشهود جميعا ثم انصرفوا فسلمني إحدى الوصيتين ورجا مني أن أسلمها لزوجته يدا بيد، إذا قدر له أن يموت وكتب إلى إدارة الفندق لتسلمني حاجاته التي تركها في غرفته.

وزرت المريض في النهار الثاني وكان في حالة ضعف، فصارحته بأن الضرورة تقتضي أن يكتب لي كتابا بخطه يأذن لي فيه بعمل جميع الوسائل التي تمكنني من استخلاص ثروته أو بعضها لأسلمها لها مع الوصية لتتمكن من استخلاص الميراث

فكتب العبارات التي أمليتها عليه ووقع الكتاب.

ولا أدري كيف أصغى لمشورتي وكتبها في غير احتراس، لأن الأيام القليلة التي عاشرته فيها لم تكن كافية لحمله على الثقة بي كرجل غريب لا يعرفه حق المعرفة، ثم عللت هذا التصرف غير الحكيم بأنه تم والرجل في حالة ضعف أثرت في عقله تأثيرا منعه من وزن الأمر بعناية قبل كتابة الكتاب الخطير.

ومات الرجل بعد ثلاثة أيام من زيارتي الأخيرة له، ونبأني المستشفى بموته فدقنت الجثة تحمل الاسم الذي تنكر به وساح سباحته الأخيرة، لأنني أردت أن تجهل حكومته نبأ موته حتى تصل الوصية إلى زوجته.وعدت من المقبرة بعد دفن الجثة لأبدأ مغامرة جديدة، ففتحت حقائب الميت وفحصت جميع أوراقه لأستعين ببعضها عند الضرورة، فوجدت بين هذه الأوراق ما عاونني على تنفيذ الخطة الجريئة التي وضعت تصميمها.

نزلت في مينا هاوس باسم البارون شنيدر وهو، الاسم الحقيق للمرحوم المسيو ماير، وأرسلت رسالة برقية إلى مصرف كبير في كرستيانا آمره بدفع مبلغ إلى قومندان يختي "لابالين" ورد المصرف على رسالتي برسالة برقية بعنواني يقول فيها "كرر الطلب" وغرض المصرف من هذه الرسالة الاطمئنان على الرسالة الأولى أنها صادرة مني، فنفذت رغبة البنك.

وأرسلت في الوقت نفسه رسالة برقية إلى قبطان اليخت آمره باستلام ذلك المبلغ من المصرف ثم السفر إلى لندن بيخته وانتظار أوامري هناك، وقصد القبطان إلى البنك فلم يتردد في صرف المبلغ له كأمري المكرر، وزاد في الاطمئنان أنه يسلم المال إلى شخص معروف للبنك بالذات وله معه معاملات.

وانتقل اليخت إلى لندن ونبئت بوصوله، فأمرت القبطان بالكشف على الباخرة في الحوض وتقوية مواضع الضعف فيها ثم دهنها باللون الأبيض. فإذا انتهى من هذه العملية ينتقل باليخت إلى مرسيليا أكبر ثغر فرنسي في البحر الأبيض المتوسط.

لم يكن في مقدوري ركوب هذا اليخت لأن قبطانه يعرف وجه البارون معرفة تامة وكذلك الشطر الأعظم من الموظفين والملاحين، ولأنني لا أعرف كلمة واحدة من لغة السويد، فلابد من حيلة تمكنني من إبعاد الجميع من الباخرة واستبدالهم بغيرهم.

قابلت سفير فرنسا في مصر مسيو لابونيير باسم الخواجة غالي جرجس نائبا عن البارون شنيدر، وبلغته رغبة البارون في اختيار قبطان ليخته "لابالين" من رجال البحرية الفرنسية ثم يترك له الحرية في استبدال جميع موظفي الباخرة وعمالها بغيرهم من الفرنسيين بسبب العزم على سياحة حول العالم.

وقبل الرجل هذا الرجاء بارتياح وكتب إلى وزير البحرية في باريس ينبئه برجائي ويفوض له اختيار القبطان الصالح لهذه الأسفار واختيار الملاحين والهندسيين وجميع الموظفين الذين يرتاح لهم القبطان الجديد.

خطر الحماقة

لم ييأس جندي بك إبراهيم من مقابلتي، فلبث يتردد على فندق ناسيونال مرات كثيرة في كل أسبوع، يسأل عن موعد عودتي إذا رغبت ويطلب الإذن له بالمقابلة إذا علم بوجودي في مصر، فخشيت هذه المطاردة لأنها ربما تبعث على الشك في أمري وخاصة من صحافي جرئ، فعقدت العزم على التخلص من هذا المتنطع الخطر.أردت أن أستدعيه لمقابلتي في الفندق لأتفق معه على طبع مجلة في مطبعته، وأدفع له سلفا قدرا من النقود يصرف له قبيل خروجه من مكتب مدير الفندق بإذن كتابي، فينصرف عامر الجيب قوي الأمل في استغلال عبطي، فيصادفه القدر في الطريق ...

واعتمدت على زميلي خليل حداد في التمهيد لهذا الاتفاق لتحديد وقت المقابلة، وظن جندي بك أن صيده قارب الوقوع في الشرك، فقبل الشروط التي عرضت عليه وأحضر صورتي العقد، وحددت له تاريخ المقابلة ووقتها.

وأرسلت خليل قبيل ذلك الوقت بقليل لمرافقة جندي بك إلى غرفتي بالفندق.وهنا بدأت الحماقة تهدم كل ما بنيت لتكوين شخصية الخواجة غالي جرجس.

توهم الأحمق أنني سأكشف حقيقة شخصيتي لذلك الصحافي كثير الطمع، واعتقد أن اتفاقه معي سينيله شيئا من المال، والرغبة في الانتفاع ترغمه على السكوت وعدم فضح حافظ نجيب المتنكر في شخصية غالي جرجس ..

وارتقى خيال الأحمق إلى أكثر من هذا الحد، فبنى على هذه المقدمة الخاطئة نتيجتها الخاطئة، ظن أن ظنونه هي الحقيقة التي لابد من وقوعها، سيعرف غالي جرجس جندي إبراهيم حقيقة شخصيته عند المقابلة، فما الضرر من كشف هذه الحقيقة له قبل ذهابه لمقابلة حافظ نجيب؟

لم يكن خليل حداد صديقا خائنا ولكنه كان يقدر نفسه فوق قدرها فيمتلئ

بالغرور والزهو .. ولكن الغرور في هذه المرة دفعه إلى تصرف خاطئ خطير.

تأبط ذراع جندي إبراهيم واستقر به في خلوة وجلسا يشربان منبهات للشهية، ودار الحديث في ذلك المجلس حول راهب الدير المحرق الأب فيلوثاؤس ثم شخصيته الجديدة: غالي جرجس.

لعبت الخمر برأس خليل لأنه قليل الاحتمال، وكان يعتقد أن صاحبه صحافي يكاد يكون أميا لأن تعليمه لم يعد معرفة القراءة والكتابة ولكنه مغرور وجرئ يعتمد على جريدته كسلاح للاستغلال، فهاجمه خليل لينال من غروره قال:

لقد نشرت رثاء راهب الدير في جريدتك، فهل تعتقد أن بين الرهبان الأقباط شعراء؟ وقال:

وقد سمعت عن نصيب الراهب فيلوثاؤس من المعرفة والثقافة، وعن مقدرته في الوعظ والخطابة، فهل تصدق أن بين الرهبان من له هذا النصيب من التعليم والاطلاع؟

وأدرك جندي إبراهيم أن وراء تلك الأسماء أسرار، وأن الخمر أدارت رأس رفيقه وأطلقت لسانه، ورأى من مصلحته كصحافي نهاز للفرص أن يدفع السكران دفعا للاعتراف فتحرش به وقال:

– عندنا الدليل الواضح على وجود رهبان متعلمين في الأديرة، ألم يكن الرهب فيلوثاؤس واحد منهم؟

فضحك خليل مقهقها وقال:

– أذكر اسم واحد غير هذا الذي تفخرون به! ..

– عندنا كثيرون من نوعه ووزنه ولكن حياة الترهب تمنع الرهبان من الدلالة على معرفتهم بالإعلان عن النفس ..

وقال خليل محتدا: أؤكد لك أنك واهم فلم يترهب متعلم مثقف ثقافة عالية سوى

الراهب فيلوثاؤس، ومع هذا فليس الشاب مسيحيا ولا قبطيا ولا راهبا ..

وهذا الذي فخرتم به أيها الغبي هو حافظ نجيب صديقكم القديم .. وستراه الليلة بعينيك ..

فوجئ جندي بك مفاجأة مزعجة بهذا النبأ، وأدرك في الحال أن دعوته لتناول العشاء مع الخواجة غالي جرجس "حافظ نجيب" تخفي وراءها خطرا مجهولا.

لم يخف الرجل اضطرابه ولم يتحكم في أعصابه لأنه أسرع إلى التليفون وبلغ المحافظة بصوت مرتفع بأن الخواجة غالي جرجس المقيم في فندق ناسيونال هو طريد البوليس والعدالة حافظ نجيب.وأدرك خليل حداد أنه أخطأ، وقللت الصدمة من تأثير الخمر في رأسه فخاف على أن يدهمني البوليس مفاجأة في غفلة لا تمكنني من الدفاع عن نفسي أو الإفلات قبل وقوعي في الشرك، فركب عربة وجاء لمقابلتي ولإنذاري ..

وفي يوم ١٨ يناير سنة ١٩٠٩ قابلت سفير فرنسا في غرفة استقبال خاصة في السفارة، فنبأني بأن وزير البحرية المسيو دلكاسيه وفق لاختيار القبطان، فأرسلت رسالة برقية إلى قبطان اليخت آمره بمقابلة وزير بحرية فرنسا وتنفيذ كل ما يأمره به.

وكتب السفير للوزير قبطان يختي ويأمره بتسليم الخزانة واليخت للقبطان الفرنسي، ويأخذ من المال المودع عنده مرتب سنة مكافأة له، ويعود إلى السويد ليتولى قيادة مراكب صيد السمك والحيتان بزيادة في المرتب.ويصرف من ذلك المال مرتب ثلاثة شهور لجميع موظفي اليخت وعماله مكافأة لهم، ثم يتولى توزيعهم على مراكب الصيد مع زيادة المرتبات.

ولم يتردد القبطان في تسليم اليخت وخزانة المال لأن الذي يتولى عملية الاستسلام وزير بحرية دولة كبيرة لا رجل من الطريق، وزاد في اطمئنانه وارتياحه ما كوفئ به من المال هو ورجال اليخت ثم زيادة المرتبات في مراكب الصيد.

تمت هذه الإجراءات بسهولة بوسائل بسيطة تلوح لكل عقل سليم أنها مشروعة فشكرت السفير على هذه المعاونة وانصرفت لمقابلة زائر آخر حددت لمقابلته الساعة

الرابعة بعد الظهر في فندق ناسيونال.

وتمت هذه المقابلة في غرفة استقبال خاصة في الطابق الأرضي، وبينما نحن في هذه الخلوة فتح الباب بدون استئذان ودخل خليل حداد في عجلة واضطراب واضحين، وفوجئ بوجود ذلك الزائر معي فارتبك لحظة ثم سألني:

- هل يعرف صاحبك اللغة العربية؟

فقلت: لا .. تكلم ..

قال: لقد عرف جندي إبراهيم كل السر، وبلغ النبأ للمحافظة بالتليفون ..

قلت: اصعد إلى الغرفة رقم ٢٣ وانتظر بها ..

فأطاع بدون تردد وانصرف، ولكن الزائر لاحظ في صمت على تصرفات خليل أنه خالف الأدب بسبب دخوله بدون استئذان، ولاحظ أنه كان في حالة تدل على الاضطراب، فصار لزاما علي الاعتذار عن سوء تصرف الرجل وتعليل سبب اضطرابه تعليلا يجعله نتيجة حتمية لحالة نفسية طارئة، ويجب أن أختلق سببا يحدوني لترك الزائر في الحال قبل وصول رجال البوليس إلى الفندق للقبض علي.

فقلت: لقد كان الرجل الذي جاء لمقابلتي في اضطراب شديد أنساه الاستئذان قبل الدخول، لقد جاء يحمل إلي نبأ وفاة عمي بالسكتة القلبية، وهذا النبأ المزعج يرغمني على الاستئذان لتركك الآن لكي أسرع لتأدية الواجب ولترحيل الجثة.

فبادر الرجل لتعزيتي، وتركته حيث كان ليتمم شرب الشاي وانصرفت ورددت الباب، وقد رأيت من النافذة وأنا واقف أسمع عبارة التعزية رجال البوليس من الفرسان ينتشرون في الشارع الذي يفصل بين الفندق من الناحية القبلية عن نادي سيروس (شارع كذا).

خلوت بنفسي في الردهة وفكرت في الوسيلة التي تمكنني من الوصول إلى الغرفة ٢٣ في الطابق الثالث بدون تعريض نفسي لأنظار المطاردين، قلت لنفسي: سيحاصر

رجال البوليس الفندق من الخارج ليمنعوا الذين فيه من الخروج، ويحتلون المصعد والسلم ثم يبدؤون التفتيش عني، ولكنهم لن يفكروا في احتلال السلم الخاص بالخدم، فهو إذن آمن وسيلة للصعود إلى غرفتي.

دخلت غرفة التدخين وانتقلت منها إلى غرفة المائدة، واجتزتها إلى غرفة تليها كانت معدة لتحضير أدوات المائدة، فاستولت الدهشة على الذين بها من الخدم، ولكنني عبرت مسرعا إلى الردهة فإلى السلم وصعدت إلى القسم الخاص بي في الطابق الثاني.

كانت الغرفة ٢٢ خاصة لمائدتي، و٢٣ للمكتب وللاستقبال و٢٤ للنوم.

والغرفة ٢٢ في نهاية الضلع من الناحية البحرية إلى الناحية القبلية، وتبدأ الغرفة ٢٣ الضلع الواصل من الغرب إلى الشرق، وبسبب وجودها إلى الزاوي صارت مساحتها مساحة غرفتين، ولها ثلاثة أبواب، الأول على الممشى والثاني يؤدي من الداخل إلى الغرفة ٢٢، والثالث يوصل من الداخل إلى الغرفة ٢٤، ولهذه باب آخر على الممشى.

ذكرت من قبل أنني رحلت الهر هرجل صاحب الفندق إلى أسوان على ظهر باخرة واغتنمت فرصة غيابه الطويل وحصنت الغرف الثلاث الخاصة بي فصارت معقلا صالحا للدفاع ولاستقبال من يهاجمني فيها للقبض علي.

طول الغرفة ٢٣ ٨ أمتار وعرضها ٤ متر، ولها في الناحية الغربية نافذة تطل على شارع خاص بين عمارتي رويال هاوس وفندق ناسيونال، وهذا الشارع موصد من الناحية البحرية ببناء كان ملكا للمرحوم عفيفي بك البربري، وله من الناحية القبلية سور مرتفع من الحديد، وقد ترك أصحاب العقارات هذا الفضاء لإضاءة مبانيهم بالنهار وللتهوية.

ولهذه الغرفة نافذتان أيضا تطلان من الناحية القبلية على الشارع "كذا" الذي كان به نادي سيروس، وجميع نوافذ الفندق ترفع وتهبط بجهاز كهربائي خاص.

وكان مكتبي في الزاوية القبلية، وفي وسط الغرفة منضدة كبيرة عليها أواني الزهور والكتب والمجلات التي أطالعها، وإلى جانبيها أربعة مقاعد لا أكثر، وقد وضعت المنضدة بحيث يمتد طولها من الناحية الغربية إلى الشرقية متجهة مع طول الغرفة.

فلما وصلت إلى قلعتي المحصنة بالغرفة ٢٣ لعبت لعبة صغيرة في الباب ثم تركته يرتد وحده، وعاونني خليل حداد فوضعنا المنضدة بعرض الغرفة ورأسها لاصق بحائط الغرفة ٢٢، وأسدل الستار السميك "القطيفة" على الباب الذي يوصل إلى الغرفة ٢٢ واختفى وراءه خليل ليؤدي عمله عند الضرورة.

المهاجمة

دق باب الغرفة **٢٣** ثم فتح ودخل منه حكمدار البوليس، والمسيو كارتييه رئيس البوليس السري، وجبران بك مسكات مأمور الضبط، ومحمود أفندي مُحَمَّد مأمور قسم عابدين، والهر هرجل صاحب الفندق .. وظن الجميع أنهم فاجأوني.

ووضع المنضدة في ذلك الوضع قطع الطريق إلى المكتب إلا من الناحية القبلية وتقدم الجماعة خطوات والحكمدار يهز رأسه للتهديد أو للشماتة أو كان يعبر بهذه الهزات البطيئة عن معنى كلمة: وقعت يا شاطر ..

توهم الجميع أن الفأر صار داخل المصيدة ولا سبيل لإفلاته من الشرك ففوجئوا بصوت انفجار شديد فوق رؤوسهم بعثهم على الرعب لحظة، وكانت هي اللحظة التي أردت استغلالها لمضاعفة تأثير الرعب في نفوسهم.

سمعوا صوتا عاليا يأمرهم برفع أيديهم في الهواء ..

Vos bras en I'air فرفعوا أيديهم لأنهم يعرفون يقينا أن مخالفة هذا الأمر يتبعها إطلاق النار، ووجهوا أنظارهم لناحيتي فوجدوني منتصبا إلى جانب المكتب وفي يدي قنبلة مصوبة لناحيتهم. وقلت:

– حتى لو أطلقتم عليا النار فسنموت جميعا ..

ووزنت العقول المضطربة عبارتي وأدركت أنها الحقيقة، لأن سقوط القنبلة على الأرض يحدث الانفجار والإصابات والموت، فاقتنع الجميع بوجوب عدم المهاجمة وعدم المقاومة لاتقاء خطر الموت ..

وخرج خليل حداد من وراء الستر وجعل يفتشهم واحدا بعد الآخر ويحمل إلى مسدسا بعد مسدس ويضعها على سطح المكتب، فلما اطمئن لخلو الجميع من السلاح قلت له:

– من عادة الهر هرجل حمل مسدسين في سهراتنا الليلة، واحد منهما يضعه في جيبه كعادة الناس، ويخفي الناس عند بطن ساقه اليسرى .. ففتش الساقين محاذرة من هذا الشجاع الحريص ..

ونفذ خليل الأمر ولكنه لم يجد المسدس الثاني .. فأمرت الجميع بالوقوف صفا واحدا بجانب الحائط فأطاعوا، واستند هرجل إليه ويداه خلف ظهره وهو ينظر إلي نظرات فيها دلائل الدهشة والغضب والرغبة في الافتراس، فلم أعبأ به، والحقيقة أنني لم أحول نظري عنه لأنه الرجل المفرد الذي كنت أخشاه بين هذه الجماعة بسبب قوته ونشاطه وخفة حركته وجرأته.

قلت: لقد اقتحمتم غرفتي .. فماذا تريدون؟

وهم مأمور عابدين بالكلام فمنعه جبران بك محاذرة من فلتات اللسان وتولى هو المحادثة معي، قائلا:

لقد عرفنا أنك حافظ نجيب الصادر ضده أحكام غيابية لا الخواجة غالي جرجس كما تدعي، وقد جئنا للقبض عليك ..

قلت: وأنا أعترف بأنني حافظ نجيب، وها أنا ذا أمامكم فتقدموا للقبض علي .. أدوا الواجب المطلوب منكم إذا استطعتم.

قال: أنت مسلح بقنبلة قد تحميك دقائق منا ولكنها لن تحميك من بقية القوة التي معنا. والفندق محاصر وجميع منافذ النجاة موصده في وجهك.

قلت: وكيف تستنجد بتلك القوة لتحميكم من سلاحي ولتمكنكم من القبض علي؟

قال: إذا طال عليهم غيابنا يجيئون ..

قلت: لقد تركتم باب الغرفة مفتوحا كما كان، وأنا أسمح لك بالخروج للاتصال بالقوة التي تهددني بها .. أخرج ولا خوف عليك.

واتجه الرجل إلى الباب يريد النجاة من الخطر المفاجئ الذي لم يفكر فيه، فوصل

إليه وحاول فتحه فوجده موصدا بالمفتاح، فقال في ارتباك:

– لقد تركنا الباب مفتوحا وها هو الآن موصد، وهذا دليل على أن لحافظ نجيب شركاء أغلقوا الباب من الخارج!

قلت – أمامك النوافذ فأفتح واحدة منها واتصل برجالك ..

فقال هرجل – إنه لا يعرف كيف يرفع النوافذ ؟

قلت – أذهب أنت وافعل ما شئت.

فاتجه هرجل ناحية النافذة بدون اكتراث، ثم حاول فتحها بالوسيلة التي يعرفها فوجد الجهاز الكهربائي لا يؤدي عمله وبقيت النافذة موصده، فعض على شفته من الغيظ وعاد إلى مكانه الأول بجانب الحائط وقال:

– لقد أتلف الجهاز الذي يرفع غطاء النافذة!

قلت – وأزيدك علما يا سيدي بأنكم الآن فوق ألغام تكفي لنسف الفندق، لم يكن من العقل مهاجمتي في معقلي حيث أقمت شهورا لأنني أعددت فيه وسائل الدفاع عن نفسي ضد كل قوة تقتحم على هذا العرين ..

اسألوا الهر هرجل ينبئكم بأنني سكنت في هذا الطابق زواياه الأربع، وقد أعددت في كل مكان حللت فيه لغما يتصل بهذه الغرفة .. انظروا إلى هذا الزر المثبت في الحائط .. إن ضغطة واحدة عليه تطلق الألغام وتنسف البناء جميعه ..

تقولون إن لكم في الشارع جنودا حول الفندق، ولكم حراس في الداخل، وأقول لكم إن في الفندق خدما نصفهم الآن في الخدمة، والنصف الآخر في غرف النوم استعدادا لاستلام عملهم في الليل .. وأقول إن في الفندق ثمانين سائح وسائحة الشطر الأعظم منهم الآن في الفندق يتناولون الشاي.

فإذا نسفت الفندق يموت هذا العدد الكبير من الخلق، وتموتون معهم وأنا معكم، فيكون ثمن حياتي عشرات من الرجال والسيدات وهو ثمن يرضيني ..

لقد اعتمدتم على القوة لتحطيم حياتي وسأعتمد على نفس السلاح لأرسلكم جميعا إلى العالم الثاني ..

لو كانت لكم حكمة في تصرفاتكم كنتم تتربصون لي بعيدا عن هذه القلعة الصغيرة، أما اقتحامها علي فإنه بعث عليه الغرور والاستخفاف وستدفعون الآن ثمن هذا الخطأ ..

سأموت معكم ولكنني لا آسف على الحياة التي تبددونها مني بما تكرر من أخطائكم وأخطاء غيركم، فهل فيكم رجل يستطيع أن يستخف بحياته ويضحيها في سبيل الانتقام كما سأفعل الآن؟ ..

بني جبران بك مسكات عمارات في شارع وجه البركة! كانت تؤجر غرفا مفردة للأرتيست بأجور مرتفعة فصار دخلها رقما كبيرا، وقارب الرجل سن الإحالة على المعاش فلم يبق بينه وبين الراحة سوى شهور قليلة، وحياة الغنى الممتع أقل عنده من الفقير البائس الساخط على الحظ والبيئة والناس، فشق على حضرة مأمور الضبط أن تضيع حياته هباء بيد مغامر جرئ أو مجنون. فذكر أن له زوجة وأولادا ومالا موفورا، ودخلا محترما، ومرتبا كبيرا يحل له بعد إحالته على المعاش، وستضيع جميع هذه النعم بضغط المغامر المجنون على زر قريب من أصبعهم.

تحول الرجل تحت تأثير الموقف الحرج الذي زج فيه إلى والد ورب أسرة ضنين بحياته، ونسي أنه مأمور الضبط الذي جاء مع رئيسه وجماعة من رجال البوليس لإلقاء القبض على الشقي الخطير الذي تطارده العدالة. ظن أن المسألة تتم بسهولة بمجرد حصر حافظ في غرفته فانقلبت إلى معركة خاطفة جعلت قوة الهجوم تقع في الشرك المهيأ لها من زمن بعيد، وقد يدفع اليأس والحماقة ذلك الشيطان إلى تصرفات أكثر جرأة وخطورة، فلا بد إذن من اللجوء إلى الملاينة والحكمة بدلا من التهديد بالقوة رجلا يثور بالعنف والقوة ضد القوة.

فقال – ليس من المعقول يا حافظ تضحية العاقل المتزن حياته بتأثير الغضب مادام في

المقدور إنقاذ هذه الحياة.

قلت – ليس للحياة قيمة في اعتباري ..

قال – جميع الأحكام التي صدرت ضدك غيابية تسقط بمجرد القبض عليك ثم تعاد إجراءات المحاكمة من جديد. وفي مقدورك الدفاع عن نفسك والحصول على البراءة فتربح حياتك وحريتك.

قلت – في مقدوركم إصدار أحكام ضدي. ولكن ليس في مقدور أية قوة تنفيذ هذه الأحكام، فلماذا إذن أزعج نفسي بإجراءات المحاكمة وباستجداء البراءة والحرية؟

قال – في مقدورك أن تقاوم وقتا ما، وأن تفلت ممن يريدون القبض عليك مرات، ولكن قوة الفرد أضعف من قوة الجماعة، إذن سيجيئ اليوم الذي تعجز فيه عن المقاومة وعن الإفلات من الذين يطاردونك في جد ونشاط.

قلت – لن تصل إلى القوة وأنا حي .. ولكني سأتقاضى ثمن حياتي غاليا وأقرب الأمثلة التي تقنع العقل الوضع الذي نحن فيه الآن، نحن محصورون في هذه الغرفة، أنتم تريدون القبض علي وأنا سأدافع عن نفسي وعن حريتي أمام هذه القوة .. وستكون النتيجة عجز الجميع عن النجاة من النتائج المحتومة التي ينتهي إليها هذا الوضع ..

قال – هذا دليل على اليأس واليأس اعتراف بالضعف والعجز، وقد ألقي القبض عليك مرات ولكنك تمكنت من الهروب بوسائل تدعو إلى العجب والدهشة، فلماذا تيأس من إمكان الهروب إذا قبض عليك في هذه المرة.

قلت – لست عاجزا عن تكرار الهروب مرات أخرى من أي سجن ومن أية حراسة، ولكنني سئمت الحياة فليس فيها ما ترتاح له النفس، فلن أمكنكم من القبض علي الآن للتخلص من هذه الحياة التي تبعث على الملل والسآمة.

وأنا أتمنى في هذه اللحظة أن تبدر من أحدكم كلمة نابية أو حركة مريبة تبعثني على الغضب أو على الدفاع عن نفسي فتحتم المأساة، ستلقى القنبلة على الأرض فيحدث انفجارها انفجار الألغام فينسف الفندق وننتقل جميعا إلى العالم الجديد المجهول..

قال – لم تكن طول حياتك رجلا يسفك الدماء، بل كانت حوادثك شبه مداعبات تبعث على الإعجاب وتفكه الناس، وليس في تصرفنا اليوم معك ما يعتبر اعتداء عليك أنت رجل محكوم عليك يطاردك البوليس، وقد أخطأت في تصرفاتك فمكنت رجال العدالة من معرفة شخصيتك والمكان الذي تختبئ فيه، فجاء هؤلاء الرجال لتأدية واجبهم المفروض عليهم، ولقد أخطأت والخاطئ يتحتم عليه دفع ثمن خطئه، فالحكمة تقتضي أن تذعن لمقتضى الظروف التي وضعت نفسك فيها بدلا من المقاومة التي تؤدي إلى مأساة وخاتمة دموية.

قلت – في قولك تعقل وحكمة، وقد نشطت رغبتي لاستبقاء الحياة، ولطلب حريتي من جديد بالهروب من المطاردين فأضيف إلى المداعبات الماضية مداعبة جديدة تكون حديث الناس وتسليهم على حسابنا وقتا ما ..

قال – لقد زال عنك تأثير الغضب واليأس وعدت إلى الصواب، والعودة إلى حكم العقل قد وفرت لك حياتك وربما تيسر لك الحرية المنشودة أيضا، فيحسن أن تخضع لمقتضي الظروف وتسلم نفسك لرجال العدالة.

حولت نظري لأحد الحاضرين وتظاهرت بأنها النظرة الأولى إليه، وقلت له:

– هل من الأدب أن تبقى قبعتك على رأسك وأنت في غرفتي؟

كانت أمامي مسدسات الجماعة موضوعة على مكتبي ولكنني لم أحاول لمسها وأخرجت من جيبي مسدسا سددته إلى رأس حامل القبعة وقلت له بصوت الأمر:

– ارفع هذه القبعة عن رأسك أو أطلق عليك النار ..

ولم يتردد الرجل في الإطاعة ووضع القبعة على المنضدة التي كانت إلى جانبه في صمت وفي حنق مكبوت.

فقلت لمأمور الضبط يلوح لي أنك أعقل هؤلاء الناس فقد أقنعتني بوجوب تسليم نفسي وسأفعل، إنما يجب رفع اللغم الموجود في أرض هذه الغرفة قبل التسليم محاذرة من انفجاره بخطأ مخطئ.

قال — سيتولى هذه العملية رجل إخصائي طبعا.

قلت — بل يتحتم رفع اللغم في الحال بمعرفتي فليست لي ثقة بأي إنسان، فاذهبوا جميعا إلى نهاية الغرفة لترفعوا البساط وتكشفوا الأرض ..

كانت الأرض في الغرفة ٢٣ يغطيها بساط من النوع السميك، وحوافيه مثبتة بجانب الجدران بمسامير طويلة من النحاس يتكون كل مسمار من جزئيين ذكر وأنثى. أما الأنثى فثابتة في خشب الأرضية، ويدخل الذكر في كبسولة في البساط نفسه ويمر منها إلى فجوة الأنثى فيحشر فيها إلى عمق ٧ أو ٨ سنتي متر ضاغطا على طرفي البساط فيلتصق بالأرض.

قلت لهرجل — علم الجماعة كيف ينزعون المسامير ؟

فانحنى الرجل لينزع المسمار الأول أمامهم — وفي هذه اللحظة نفسها سمعوا صوتا غريبا في الزاوية التي كنت فيها .. ضغطت على الزر الذي أوهمتهم بأنه يحدث انفجار اللغم، فانفتح باب من الصاج كان مختفيا وراء الورق الملصق على الحائط الغربي، وحركة الباب عند فتحه مزقت الورق على شكل زاوية قائمة بمقدار عرض الباب وطوله ..

سمع القوم صوت تمزيق الورق فرأوا الباب السري مفتوحا واندفاعي وراء خليل حداد في تلك الفجوة، ورد الباب من الداخل بمزلاجين من الحديد السميك، فتمت هذه العملية بسرعة.

ورأى هرجل هذا الحادث الفجائي فوثب في خفة النمر لناحية الباب ليحاول

فتحه فاستعصى عليه، فتناول مسدسا من سطح المكتب وجعل يطلق الرصاص على الحائط الصناعي الذي فصل في غيبته قليلا من مساحة الغرفة عن الشطر الباقي منها..

ركبت هذا الحائط المصنوع من الصاج، وغطيت الحيطان جميعها بورق جديد لأخفي هذا الحائط، وتركت الستر مسدولا على المكان الذي يجب أن تكون فيه النافذة، ولم يلحظ أحد هذا التصرف لأنني لا أسمح لأحد من خدم الفندق بدخول القسم الخاص بي، وتركت الخدمة فيه لخادم خاص من أتباعي ..

ولكنني لم أجرب من قبل مقدار احتمال هذا الصاج للرصاص الذي يطلق عليه، فلما دخلت هذا القسم الضيق المعزول عن الغرفة رقدت على الأرض ومعي صديق خليل محاذرة من الرصاص أن ينفذ من الحائط ويصيبنا، نقاوم الصاج الرصاص الذي ينهال من المسدسات فاطمأنت وبدأت عملية الهروب من الفندق جميعه ..

فتحت النافذة المطلة على الشارع الخاص الذي يفصل بين بناء الفندق والرويال هاوس، وتناولت من تحت النافذة سلكا رفيعا كان مثبتا في مسمار وجذبت السلك حتى انتهى فجر إلي سلكا آخر أقوى منه، وجر السلك الثاني ثالثا متينا سميكا "Cable" فثبت طرفه في المكان الذي أعددته له في قلعتي الصغيرة بعد أن وضعت عليه بكرتين كبيرتين من الحديد.

في نهاية كل بكرة من الاثنتين "في مركزها" سلسلتان تمسكان مقعدا لينا في الجلد المتين، وعلى هذا المقعد تمكنت من الانحدار بسرعة إلى المسكن المقابل لغرفتي في بناء الرويال هاوس. وقد وجد هذا الانحدار لأن طبقات فندق الناسيونال ترتفع نحو متر عما يقابلها في البناء الآخر.

تحركت البكرة بحملها بسرعة فوق الحبل "السلك" بسبب الانحدار. وكانت نافذة ذلك المسكن مفتوحة ليلا ونهارا للوصول منها إلى الرويال هاوس، ثم نزعت الحبل من المكان المثبت فيه لأمنع غيري من الانتفاع به.وفي ذلك المسكن الخاص دخلت في معطفي وتقبعت ونزلت مع خليل إلى باب البناء، وكانت هناك سيارة تنتظر على

الدوام وصول الهاربين إليها.

كان رجل البوليس الخيالة منتشرين في هذا الشارع بين نادي سيروس وفندق الناسيونال يراقبون بانتباه نوافذ محاذرة من خروج الشقي منها، وليست لهم أية علاقة بالذين يخرجون من الرويال هاوس فأفسحوا الطريق للسيارة فاندفعت بينهم ووصلت إلى شارع سليمان باشا، ثم اتجهت إلى حيث أريد ..

كتبت في مخبأي الأخير كتابا إلى محافظ مصر قلت فيه:

حضرة صاحب السعادة.

انتقلت قوة من البوليس إلى فندق ناسيونال للقبض علي لأنهم عرفوا أنني أقيم هناك في الحجرات ٢٢ – ٢٣ – ٢٤، وقد دهموني في الغرفة ٢٢ ولكنني تمكنت من حجزهم فيها والهروب منهم بوسائل ستعرفها من محضر التحقيق.

والجماعة محبوسون الآن في تلك الغرفة ويتوهمون أن القنبلة التي تركتها على المكتب قنبلة زمنية ستنفجر بعد زمن معين، ولكنها قنبلة فارغة بها آلة متحركة لقياس الزمن، فلا خطر منها على الإطلاق.والأبواب الثلاثة والنوافذ موصده فليس في مقدورهم الاتصال بالخارج، وقد أفلت منهم فلا ضرورة لبقائهم هناك، وها أنا ذا أرسل إليك في جوف هذا الغلاف مفتاح الغرفة ٢٣ لتفتحها لهم.

وأرجو أن تأمر بالاحتفاظ بمسدسي الذي نسيته فوق المكتب لأنه من نوع نادر وهدية من عزيز من الواجب عدم التفريط فيها، ويسرني أن أجده حين أحتاج إليه.

كما أرجو التكرم بقبول احترام المخلص

١٨ يناير ١٩٠٩

حافظ نجيب

غلفت الكتاب وعنونته وانتقلت بالسيارة إلى منزل المحافظ وسلمت الكتاب إلى باتشاويش كان جالسا على الباب فأوصله إليه، ولم أنتظر الإجابة على كتابي طبعا وانصرفت ..

وصل الخطاب والمفتاح إلى المحافظ فظن أنني أمزح معه، فسأل المحافظة بالتليفون فعلم أن الحكمدار وقوة من الضباط والجنود يحاصرون فندق ناسيونال للقبض على شقي هناك.وسأل إدارة الفندق عن الحكمدار فقيل إنه في الغرفة ٢٣ مع بعض رجاله وصاحب الفندق، فوثق مما في كتابي أنه جد لا مداعبة فركب إلى الفندق ووصل إلى الغرفة ٢٣ وفتح بابها بالمفتاح ودخل ..

ورأت الجماعة المحافظ يدخل الغرفة فصاحوا به يطلبون منه الابتعاد خوفا عليه من القنبلة التي ستنفجر، ولكنه لم يصغ للنصيحة لأنه على يقين من أنني لم أخدعه، وصل إلى المكتب وتناول القنبلة وهزها في يده ثم ألقاها على الأرض فتدحرجت حتى استقرت، ثم جلس على كرسي المكتب في دهشة لأنه رأى القوم راقدين على الأرض حول المكتب!

وقال أحدهم يفسر له السبب بأن القنبلة حين تنفجر تطير شظاياها بقوة دفع البارود فتحدث بين مكان الانفجار وموضع سقوط المقذوفات زاوية تسمى الزاوية المتينة، والبقاء في الزاوية يحمي من الإصابة.

زال الخوف من خطر القنبلة فبدأ رجال البوليس كتابة المحضر، وتحديد التهم التي توجه إلي بسبب تصرفاتي في هذا الحادث، هددتهم بالقنبلة فثبت أنها خالية من البارود والمقذوفات فالتهديد بها لا يكون جريمة، ولكنهم وجدوا مسدسي على المكتب محشوا بالرصاص، وقد هددت به أحدهم تهديدا مصحوبا بطلب فعملي إذن جريمة وصفها أنها جناية، فوضعوا الرصاصات الست في حرز وختموه بالشمع، وهكذا فعلوا بالمسدس.

وثبت من الفحص أن الانفجار الذي حدث فوق رؤوسهم مباغتة نشأ من وصول هواء مضغوط إلى كيس من المطاط السميك كان مخبأ تحت غطاء النجفة المدلاة وسط

الغرفة؛ ووجدوا الآلة التي كان بها الهواء المضغوط وراء ستر باب الغرفة.

وزال العجب من إيصاد باب الغرفة ٢٣ بالمفتاح بعد دخولهم منه، تركوه وراءهم مردودا ثم وجدوه موصدا، فكشفت المعاينة السر في هذه العملية التي لاحت لهم شاذة عجيبة ثم ظهرت بسيطة سهلة.استبدلت قفل الباب بآخر من نوع قفل أي باب من أبواب السجون .. في ذلك القفل من ظاهرة زر سميك ناتئ، فإذا ارتد الباب بقوة أي دفع يضغط صدغ الباب على هذا الزر فيحرك اللسان فيدخل في الفجوة الموجودة في المكان المخصص له في حلق الباب.

ولم يتحرك اللسان قبل دخولهم من الباب لأنني وضعت بينه وبين فتحة الفجوة المخصصة لدخوله قطعة معدنية رقيقة حجزت اللسان من الولوج في الثقب المفتوح، فلما فتحوا الباب سقطت القطعة المعدنية الملونة باللون الأحمر على البساط الملون بهذا اللون فلم يسمع لها صوت ولم ينتبه لها أحد لأن رؤوسهم خالية لا تفكر في هذا النوع من الاحتياط والحيلة.

عرضت هذه القضية في سنة ١٩١٣ على محكمة الجنايات دائرة كانت برئاسة المرحوم مُحَمَّد توفيق باشا بحضوري وكان ممثل النيابة المرحوم مُحَمَّد زكي الإبراشي أفندي حينذاك "الباشا بعد ذلك" وبشهادة الشهود ثبت أنني هددت بالمسدس المحشو بالرصاص واحدا من رجال البوليس، والتهديد كان مصحوبا بطلب .. فهو جناية تمت أركانها جميعا، فتحتم الإدانة والعقاب.

وكان المحامي الذي تطوع للدفاع عني حينذاك في القضية وغيرها المرحوم محمود بك أبو النصر، فبنى دفاعه على تصرفاتي أنه كان للإيهام بإطلاق النار مع عدم وجود النية على التنفيذ في حالة عصيان أمري.

ورأيت المحكمة غير مقتنعة بهذا الدفاع لأن القانون يعاقب على التهديد نفسه لا على النية المستورة المجهولة من الذي وقع عليه التهديد، فالتمست من المحكمة الإذن لي بالدفاع عن نفسي فأذنت لي بشرط عدم تكرار ما ذكر في دفاع المحامي.

قلت إن جسم الجريمة هو المسدس والرصاصات التي كانت فيه، ومن حقي أن أرى المسدس لأعترف بأنه هو الذي كان معي أو استبدل بغيره، ففتشوني قبل تسليمي المسدس، ففحصته ثم رددته للمحكمة واعترفت بأنه مسدسي ..

وطلبت فحص الرصاصات فسلمت لي ففحصتها فحصا دقيقا ثم رددتها وقلت:

– المسدس والرصاصات هي التي كانت معي وهددت بها رجل البوليس فكون تصرفي جريمة التهديد المصحوب بالطلب، فلا جدال في هذا الموضوع .. ولكن دفاعي عن نفسي سيكون بعيدا عن الجريمة وأركانها، لأنني أعتمد في الدفاع على أساس يهدم الجريمة وجميع أركانها، لأنني رجل عملي .. ضعوا الرصاص في المسدس وأطلقوا علي .. فتهدم الجريمة.

وظن رئيس المحكمة أنني قد فقدت صوابي، فقال:

– ولكن طلبك مستحيل لأن إطلاق الرصاص عليك يسبب القتل! .. فهل تريد أن تهدم الجريمة بسبب موتك؟ ..

قلت – لا .. إن إطلاق النار من هذا المسدس بهذه الرصاصات لا يسبب القتل إطلاقا .. فهذه الرصاصات جميعها خالية من البارود الذي يحدث عند التهابه عملية قذف المقذوف ، فإذا ثبت بالتجربة أن الرصاص لا ينطلق من المسدس تكون جريمة فتكة بالغير مستحيلة .. فينهدم الاتهام الموجه إلى من أساسه ويصدر الحكم بالبراءة لاستحالة الجريمة.

كان الدفاع غريبا بعيدا عن عقول الحاضرين وتفكيرهم، وأمرت المحكمة بإخراج الرصاص من ظروفه النحاسية فثبت لها أنها خالية من البارود إطلاقا.واقتنعت المحكمة باستحالة الجريمة، وصدر الحكم بالبراءة.

تركت فندق ناسيونال هاربا قبيل المغرب يوم ١٨ يناير ١٩٠٩، أرغمت على هذا الهروب إرغاما لإنقاذ نفسي من طالبي القبض علي، فلا يسلم أي عقل سليم بأن الذي هرب في مثل تلك الظروف يكون في مقدوره العودة إلى ذلك الفندق لأي سبب.

وقد خسرت بهذا الهروب جميع حاجاتي التي كانت في حجرتي نومي ومكتبي، وخسرت شخصية الخواجة غالي جرجس بعد إنفاقي لتكوينها جهودا ومالا كثيرا، وخسرت مع غالي جرجس شخصية راهب الدير المحرق الأب فيلو تاؤس، وعرف الجميع أنه حافظ نجيب.

ولكن إدارة الفندق لم تعتبر هروبي إعلانا لها بقطع علاقتي بالفندق، فادعت أنها لم تخل الغرف الثلاث فظلت على حسابي أياما بعد هروبي، وكونت حسابا لم يدفع بعد يوم ١٨ يناير، ثم قدمت الشكوى للنيابة ونسبت إلي تهمة الاحتيال بتنكري بشخصية غالي جرجس الثري الوجيه، فكونت النيابة جريمة احتيال سأتحدث عنها في المكان المناسب لها في هذا الكتاب، ليعرف الناس كيف كانت الاتهامات التي أسندت إلي جرائم الاحتيال الكثيرة ..

تركت مرغما الشخصيات التي عرفها البوليس والناس، وتنكرت في غيرها جديدة منها شخصية المسيو توندور، وانتقلت من شارع سليمان باشا خطوات فقط فصرت في شارع قصر النيل، وسكنت في عمارة الكونتيننتال القديمة في بنسيون مع هارفي باشا وكان مفتشا في وزارة الداخلية في ذلك الحين ..

قالوا "قليل البخت يلقى العضم في الكرشة" وقد وجدت في ذلك البنسيون عضمه خشنة جدا صورتها الطبيعة في صورة حسناء فتانة يحوم حولها جماعة من الشباب المثقفين وبعض رجال المال ..

وكان لها شأن خطير في حياتي لأنها خلقت لي مغامرة جديدة سأحدث الناس عنها في الكتاب الثاني من اعترافاتي بإذن الله، لأن الحوادث الخطيرة توالت بسرعة بعد ١٨ يناير ١٩٠٩ ودفعتني بعنف في خضم الأخطار ..

انتهى

الفهرس